جامعة محمد خيضر ببسكرة

كلية العلوم الانسانية والاجتماعية

قسم العلوم الاجتماعية

تأثيرات أنماط البيئة في تغيير العادات الاجتماعية الغذائية

دراسة ميدانية بصحراء وادي سوف ـ وادي العلندة نموذجا ـ

رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في علم اجتماع البيئــة

إعدادالطـالب:

بن عمارة محمـد

إشراف الأستاذ الدكتور:

حسان الجيلانـــي

أعضاء لجنة المناقشة

أ د. زوزو رشيد	جامعة بسكرة	رئيــسا
أ د. حسان الجيلاني	جامعة بسكرة	مشرفا ومقررا
أ د. عوفي مصطفى	جامعة باتنة	عضوا مناقشا
د. أوذانية عمر	جامعة بسكرة	عضوا مناقشا
د. رحاب مختار	جامعة مسيلة	عضوا مناقشا
د جغلولي يوسف	جامعة مسيلة	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 2014 ـ 2015

شكر وتقدير

لكل عمل علمي يكتمل من طرف باحث، ومن ورائه من يساعده، وهذا العمل المتواضع ساهم فيه بدرجة كبيرة أستاذي المشرف، الدكتور حسان الجيلاني الذي أمدني بكل ما يملك من مساعدات سواء ما تعلّق بالأفكار وطريقة طرحها، أو بالجوانب التي تسهل العمل الميداني، أو ما حازت عليه مكتبته الشخصية من مراجع مختلفة، أو ما خصص من وقت في متابعة الرسالة سواء في الجامعة أو ببيته الخاص، فكلّما طلبت منه اللقاء كان القبول في لسانه، بل كان على الدوام يتصل بي مباشرة، أو عن طريق الهاتف، فكلّما تبادر لذهنه فكرة تخدم الموضوع فلا يتوانى في إفادتي بها، فكان نعم المشرف لتلميذه، فأتقدم له بجزيل الشكر والعرفان، متمنيا له مزيدا من العلم والمعرفة.

كما أشكر كل من ساعدني في إتمام هذا البحث، أذكر منهم المخبرين الذين فتحوا لي أبواب بيوتهم، وتكرّموا عليّ بما جادت به بيوتهم من مأكولات، وأشكرهم على ما خصصوا لي من وقتهم في إتمام المقابلات بصورة مرضية، كما أتقدم بجزيل الشكر والعرفان لموظفي دار بلدية وادي العلندة الذين أمدوني بكل ما احتجته من بيانات ومعلومات تتعلّق بالمنطقة، ولا أنسى الأستاذ بشير زلاسي الذي قدّم لي مساعدة كبيرة في هذا الجانب، كما لا أنسى من فتح لي باب بيته وأمدني بما يملك من كتب تتعلق بثقافة وادي سوف وشرح لي العديد من الأمثال والحكم الشعبية، وأجابني بكل ما يعرف عن أسئلتي العالقة التي تخص الأمثال والحكم الشعبية، أستاذي الفاضل بن علي محمد الصالح الذي يعتبر كاتبا ومثقفا نموذجيا قلّ نظيره.

كما أتقدم بالشكر لكل من أمدّني بحرف ومهد لي طريق البحث في علم الاجتماع وأخص بالذكر كل أساتذتي في علم الاجتماع في مرحلتي الليسانس والماجستير.

ولا أنسى تشكراتي لزوجتي التي ساعدتني أيضا مع المخبرات ووفرت لي جو البحث من أجل إتمام هذه الرسالة على صورتها الحالية.

فهرس المحتويات

الرقم	العنــوان	الصفحة
	مقدمــة	أ
الفصل الأول **مشكلة البحث والإجراءات المنهجية**		
أولا	مشكلة البحث	12
1	الإشكالية	12
2	التساؤلات الفرعية	14
3	أسباب اختيار الموضوع	15
4	أهداف البحث	16
5	أهمية البحث	17
6	المفاهيم الأساسية	18
7	الدراسات المشابهة	25
ثانيا	الإجراءات المنهجية	33
1	مجالات الدراسة	33
2	الفرضيات	35
3	المنهج المستخدم	37
4	أدوات جمع البيانات	40
5	العيّنة	44
6	أبعاد التحليل والتفسير	46

الفصل الثاني **بيئة وادي سوف وثقافة سكانــها**		
أولا	البيئة	49
1	مفهوم البيئة وأقسامها	49
2	البيئة الصحراوية	54
3	صحراء وادي سوف	57
4	الخصائص الجغرافية لصحراء وادي سوف	60
ثانيا	الثقافة	74
1	ماهية الثقافة	74
2	لمحة تاريخية عن سكان وادي سوف	79
3	الثقافة والبيئة الثقافية	82
4	الثقافة المادية	83
5	الثقافة المعنوية	88
الفصل الثالث **استخدام منتجات البيئة في العادات الاجتماعية الغذائية**		
أولا	الغذاء النباتي	95
1	التمر في الثقافة الغذائية للمجتمع	95
2	الخضر في عادات الغذاء	106
3	أشجار ونباتات مختلفة في ثقافة الغذاء	108
ثانيا	الغذاء الحيواني	109
1	الحليب ومشتقاته	110
2	اللحوم	116

الفصل الرابع		
علاقة البيئة بالممارسات السابقة المتعلقة بالعادات الاجتماعية الغذائية		
أولا	الوجبات الغذائية المعتادة	134
1	فطور الصباح "لكروط"	134
2	وجبة الغذاء المعتادة "الفطور"	136
3	وجبة العشاء	149
4	وجبات ثانوية	152
ثانيا	عادات تصبير المواد الغذائية	154
1	عادات تصبير المواد الغذائية النباتية	154
2	العادات الاجتماعية المتعلّقة بتصبير المواد الحيوانية	161
ثالثا	عادات تناول الوجبات	165
1	مكان تناول الوجبة	165
2	الكلام عند الأكل	166
3	طريقة الجلوس	167
4	الفئات التي تتناول مع بعضها الوجبة الغذائية	167
رابعا	العادات الغذائية في الأفراح والمناسبات	169
1	العادات الغذائية في الأعراس	170
2	العادات الغذائية في مناسبة الختان	171
3	الأغذية في المناسبات الدّينية	172
3	الغذاء في شهر رمضان	173
4	الأعياد العُرفية	174
الفصل الخامس		
تحولات البيئة والممارسات المصاحبة للعادات الاجتماعية الغذائية اليومية		

أولا	التغيرات في البيئة الداخلية	178
1	عناصر البيئة الجغرافية	178
2	تغيرات البيئة الاجتماعية	185
3	التغير الاجتماعي بعد الاستقلال	192
ثانيا	دور البيئة الداخلية في تغيير العادات الاجتماعية الغذائية	195
1	فطور الصباح	195
2	وجبة الغداء	198
3	وجبة العشاء	203
4	وجبات ثانوية	207
5	الفواكه	209
ثالثا	علاقة البيئة الخارجية بتغيير العادات الاجتماعية الغذائية	213
1	الطرق	213
2	الهجرة والعمل بالشركات البترولية والمنجمية	216
3	وسائل الاعلام	219
4	التعليم داخل وخارج المنطقة	220
رابعا	تصبير المواد الغذائية	222
نتائج البحث		224
خاتمة		234
قائمة المصادر والمراجع		237
الملاحق		243
آفاق البحث		252
ملخص البحث		253

مقدمة

يعتبر التغير سمة المجتمعات الإنسانية، فتتغير ثقافتها كلّما كان تغير في أحد العناصر المشكلة لها، ولكن تختلف درجة وطريقة التغير من ثقافة مجتمع إلى ثقافة مجتمع آخر، فيمكن أن يكون بطيئا، ويمكن أن يكون سريعا تبعا لعزلة المجتمع وصغر حجمه وصلابة تقاليده، وهذا كما هو الحال في المجتمعات البدائية، أمّا المجتمعات الصناعية، فالتغيّر فيها يكون بسرعة كبيرة نتيجة للتفاعل الاجتماعي الذي ينجم عنه الاحتكاك، فينتج أفكارا وعادات اجتماعية جديدة، وبالتالي يتغير مضمون النظم والأنماط الثقافية، كما أنّ تحوّلات البيئة الطبيعية تتحرك تبعا لها تلك النظم الثقافية جمعاء، فالتغير في عناصر البيئة الداخلية وكذا البيئات الخارجية لكل مجتمع ما، يعمل على إدخال عناصر ثقافية جديدة.

والعادات الاجتماعية الغذائية هي أحد أنماط الثقافة كما يدّعي "ويسلر" الذي أدرج عادات الطعام ضمن العناصر والمركبات المادية للثقافة، وعادات الطعام تعلّقت بالمطبخ الذي يختلف من مجتمع إلى آخر تبعا لمجموعة من المتغيرات فـ " المطبخ جزء لا يتجزأ من ثقافة المجتمع، كما أنّه انعكاس لها، وتختلف أنواع ونكهات الطعام تبعا للثقافة التي بدورها تأثرت بالجماعة وبيئتها الاجتماعية والجغرافية، والتاريخية ... "[1] وهذا الكلام يتوافق مع النظرية الأيكولوجية التي "تقف موقف وسط بين الحتمية الجغرافية التي تقتصر على العوامل الجغرافية في تفسيرها للثقافات ....، والحتمية الثقافية التي تقتصر على العوامل الثقافية ... وتهمل العوامل الجغرافية من اقليم ومناخ وموارد اقتصادية"[2].

وهذا يدل على أنّ المجتمعات البشرية تحاول جاهدة التكيف مع البيئة سواء الجغرافية أو الاجتماعية، وبناء على هذا الاتجاه فإنّ العادات الاجتماعية الغذائية لا تتأثر بالبيئة الجغرافية التي تعتبر أحد المصادر التي تمد المجتمع بالغذاء فقط، كما ذهب إلى ذلك الحتميون الاقتصاديون، بل تتأثر

---

1 مريم بشيش: **الطعام التقليدي والعولمة**، مجلة الثقافة الشعبية، العدد 9، أرشيف الثقافة الشعبية للدراسات والبحوث والنشر، المنامة، البحرين: 2010، ص 87.

2 عاطف وصفي: **الأنثروبولوجيا الثقافية**، بيروت، لبنان: دار النهضة العربية، 1971، ص 104.

بالأنماط الثقافية السائدة أيضا والتي تتكون من خلال التفاعل الداخلي بين أفراد المجتمع، كما ذهب إلى ذلك التطوريون الأنثروبولوجيون في تفسيرهم للثقافة، وتتكون هذه الأنماط أيضا من خلال الاحتكاك مع البيئات الاجتماعية الخارجية، أي ما يسمّى بالبيئة الخارجية كما ذهب بذلك أصحاب النظرية الانتشارية.

وبناء على ما سبق فإن عادات الطعام لها جوانب تتعلّق بالبيئة الجغرافية كالمناخ، والغطاء النباتي وغيرها من العناصر الطبيعية، ولها أيضا جوانب تتأثر بطبيعة البيئة الثقافية السائدة في المجتمع، سواء تلك العناصر الداخلية، أو الخارجية التي على علاقة بالمجتمع، ففي كثير من الأحيان نجد مجتمعين يعيشان في البيئة الجغرافية نفسها إلاّ أنهما يختلفان في جوانب معينة في عادات الغذاء، وهذا راجع لكون الأنماط الثقافية تتشكل تبعا لعناصر مختلفة من بينها طبيعة الدين ونوع النشاط الاقتصادي وغير ذلك، ولا يمكن أن نعتقد بأنّ تلك العادات الاجتماعية الغذائية تتميز بالاستاتيكية، بل لها ميزة الديناميكية، أي التغير المستمر مثلها مثل عناصر الثقافة الأخرى، وهذا التغير ناتج عن تطور المجتمع بصفة خطية أو دائرية، وينتج من تأثير تلك التغيرات المختلفة في البيئة الجغرافية أو إدماج عناصر ثقافية أخرى، مثل ما حدث لثقافة الهنود الحمر في أمريكا بسبب الاستعمار الأوربي لتلك القارّة حيث مسحوا معالم ثقافة المجتمع الأصلي بصفة كبيرة، ومثل ما حدث لثقافة الدول العربية والتي من بينها الجزائر التي تأثرت بثقافة الفرنسيين الذين استعمروها لمدة أكثر من قرن، بحيث أدخلوا عادات غذائية جديدة إلاّ أنهم لم يستطيعوا أن يغيّروها كاملة.

ففي هذه الدراسة سوف نبحث عن تأثير البيئة بشقيها الطبيعي، والاجتماعي في العادات الاجتماعية الغذائية لدى المجتمع السوفي، الذي تميّز بمميزات اختلفت عن باقي المجتمعات المحلية الأخرى، وهذا راجع لخصوصية هذه المنطقة عن غيرها، وناتج أيضا عن خصوصية ثقافة هذا المجتمع وطبيعة المجتمعات المجاورة التي احتك بها، كالمجتمع التونسي والليبي جراء الهجرات العلمية والتجارية وهجرات العمل.

وقد تناولنا هذه العادات من حيث الجانب البيئي، فالبيئة لها علاقة متميزة بالغذاء والممارسات الاجتماعية المصاحبة له، فالمجتمع الصحراوي له مميزات معينة جعلته يمارس عادات اجتماعية تتعلق بالغذاء تختلف عن العديد من المجتمعات الأخرى كان لطبيعة البيئة دور فيها، ففي هذا البحث تناولنا نمطين إثنين من البيئة، بيئة داخلية وأخرى خارجية، فالبيئة الداخلية تمثلت في العناصر الجغرافية الطبيعية وتلك المزروعات التي يمارسها سكان منطقة مجتمع البحث، بالإضافة إلى جملة التحوّلات التي طرأت على جغرافية المنطقة، والبيئة المشيّدة أيضا، إلى جانب تغيرات البيئة الاجتماعية التي كانت بسبب تسارع نسبة التحضر، أمّا البيئة الخارجية فقد كان لها علاقة متميزة بتغيير العادات الاجتماعية عامة والغذائية على الخصوص، تمثلت في الاحتكاك بالبيئات المجاورة في إطار التبادل التجاري والسياحي والاتصال بالمناطق الأخرى عن طريق التعليم، وكذا وسائل الإعلام والاتصال الحديثة.

وأردنا التطرق إلى عمل أنماط البيئة سواء الداخلية أو الخارجية في عملية تغيير العادات الاجتماعية الغذائية عند المجتمع السوفي، وقد قسّم البحث إلى عدد من الفصول تمثلت في:

الفصل الأول: وعرضنا فيه مشكلة البحث والإجراءات المنهجية، حيث حددنا فيه الإشكالية والتساؤلات الفرعية والهدف من البحث، كما حددنا المفاهيم وعرضنا بعض الدراسات المشابهة لهذا البحث، كما تعرضنا للإجراءات المنهجية ومجموعة التقنيات المستخدمة في جمع البيانات.

الفصل الثاني: وكان تحت عنوان بيئة سوف وثقافة سكّانها، وتعرضنا فيه إلى إعطاء لمحة عن البيئة الصحراوية وبيئة سوف على الخصوص وثقافة السكان القاطنين بها، من خلال وصف شامل لعناصر البيئة الجغرافية وطبيعة العيش بالمنطقة.

الفصل الثالث: واخترنا له عنوانا هو: استخدامات البيئة في العادات الاجتماعية الغذائية، وتم التعرف على أهم العناصر والمواد الغذائية المتناولة من طرف مجتمع البحث، سواء النباتية أو الحيوانية بالإضافة إلى تلك المشتقات المستخرجة منهما.

الفصل الرابع: وقد قدمنا فيه وصفا شاملا للممارسات الغذائية والعادات المصاحبة للغذاء في الفترات السابقة، من خلال وصف المواد الغذائية المتناولة، وطرق تخزينها وتصبيرها، إلى جانب طريقة تناول الوجبات.

الفصل الخامس والأخير: فكان يبحث عن تغيرات البيئة وتحولاتها والتغييرات المصاحبة للعادات الاجتماعية الغذائية، وتمّ التعرض لنوعية التغيير الذي طرأ على تلك العادات الاجتماعية الغذائية جراء تأثير تغيرات البيئة الداخلية والخارجية.

وفي الأخير قدّمنا حوصلة للنتائج المتوصل إليها من خلال هذا البحث، كما أوردنا آفاق هذا البحث أي تلك المجالات التي تستدعي البحث في هذا الموضوع هو البيئة والعادات الاجتماعية الغذائية.
ومن المعروف أن عناصر البيئة لها دور مهم في رسم تغيرات في العادات المختلفة لكل مجتمع، فكلّما حدث تغير في أحد العناصر المشكلة للبيئة سواء عن طريق الطبيعة أو بسبب الإنسان في حد ذاته، فحتما يحدث تغير في كامل النظم الاجتماعية، بما فيها العادات الاجتماعية الغذائية. وهناك تناسب طردي بين نسبة أو درجة التحضر ودرجة تغيّر تلك العادات، فإذا زاد التعلّم في مجتمع ما، زادت معه درجة الوعي بالصحة الغذائية وتنوعها، وكلّما تطورت التكنولوجيا تطورت تبعا لها طرق ووسائل تحضير الوجبات الغذائية وهذا ما ذهب إليه "هوايت" في فكرة تسخير الطاقة.

الفصل الأول

مشكلة البحث والإجراءات المنهجيــة

أولا: مشكلة البحث

1- الإشكالية

2- التساؤلات الفرعية

3- أسباب اختيار الموضوع

4- الهدف من البحث

5- أهمية البحث

6- المفاهيم الأساسية

7- الدراسات المشابهة

ثانيا: الإجراءات المنهجية

1 . مجالات البحث

2 . الفرضيات

3 . المنهج المستخدم

4 . أدوات جمع البيانات

5 . العينة

6 . أبعاد التحليل والتفسير

أولا: مشكلة البحث

1 . الإشكالية

نال موضوع البيئة حيزاً مهماً في الفكر الإنساني، خصوصا ما تعلّق بعلاقة الإنسان مع الوسط الذي يعيش فيه، فمنذ زمن بعيد درس الفلاسفة والعلماء هذه العلاقة، بحيث اعتبروا أن البشر يتفاعلون مع عناصر البيئة الطبيعية، وحاول العلماء تفسير أساليب وطرق تأقلم الإنسان مع وسطه الجغرافي الذي يختلف من منطقة إلى أخرى، وذلك من أجل البحث عن طرق العيش ومقوماته خصوصا الغذاء والكساء والسّكن والجنس، وكلّ ما يتطلبه الإنسان لاستمرار حياته.

وفي كلّ مرّة يحاول أن يغيّر الإنسان حياته وطرق عيشه بحثا عن حياة أفضل، وبالتالي تعددت النظريات التي فسّرت العلاقة التفاعلية بين المجتمعات والبيئة الطبيعية، فهناك فريق من العلماء تبنّى الحتمية، أي أنّ البيئة بعناصرها الطبيعية هي التّي تتحكم في البشر، ومنهم العلاّمة بن خلدون الذي ذهب إلى حدّ السيطرة الكبيرة للبيئة على الإنسان في جميع جوانب سلوكياته حتّى في أعضائه.

كما تكلّم "مونتسكيو" عن أثر المناخ في القوانين، حيث يقول: "إنّ القوانين يجب أن تكون مناسبة لطبيعة البلاد: أي للمناخ المتجمد أو الحار أو المعتدل، ولنوعية الأرض وموقعها ومساحتها"[1]، وتؤكد هذه المدرسة أنّ البيئة هي أساس تشكيل الثقافة.

في حين تذهب المدرسة الإمكانية إلى أنّ الإنسان هو الذي يختار ما تجود عليه البيئة، أي هو السيّد، ولكن تذهب النظرية الإمكانية إلى أنّ السيطرة أو عدمها على البيئة ترجع إلى طبيعة المجتمع الذي يعيش على الأرض.

---

1 جان جاك شوفاليه: **تاريخ الفكر السياسي**، ترجمة: محمد عرب صاصيلا، ط 4، بيروت، لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1998، ص 414.

في حين تكلّمت النظرية التفاعلية على التأثير المتبادل بين عناصر البيئة والإنسان، وتتشكل تبعا إلى هذا "التفاعل ثلاث منظومات: المنظومة الطبيعية، مناخ وتضاريس وغيرها، والمنظومة الثانية هي التكنولوجية، أمّا الثالثة فهي عبارة على المجموعة الاحتمالية، تعليم وتنشئة وعادات وثقافة"[1].

فالإنسان يعيش في جماعات اجتماعية، تنشأ نتيجة للتفاعل مع البيئة مجموعة من العادات الاجتماعية، والسلوكيات والنظم المختلفة سواء السياسية أو الدينية أو غيرهما، وهذا ما يطلق عليه بمصطلح الثقافة. فالثقافة هي الصّفة التّي يتميّز بها الإنسان عن باقي الكائنات، وهذه الثقافة ليست متشابهة في كل المجتمعات، فكل مجتمع له سمات ثقافية تختلف عن الآخر ويرجع ذلك لعدّة عوامل من بينها البيئة الطبيعية.

والثقافة لها عدّة محددات أخرى لا يمكن حصرها في هذا البحث ولا يمكن التكلّم عنها في اختصاص علمي واحد، فكل اختصاص له زاويته، ومن بين الاختصاصات الجديرة بدراسة موضوع الثقافة هي علم الاجتماع على غرار الأنثروبولوجيا.

وموضوع البحث الذي نحن بصدد التقصي فيه، هو دراسة الترابط أو التفاعل الموجود بين أنماط البيئة والعادات الاجتماعية الغذائية، ودراسة التغيّير الذي يطرأ على العادات الاجتماعية الغذائية، وكيفية تدخل أنماط البيئة في ذلك، وبالنظر لحجم موضوعي العادات الاجتماعية والبيئة فإنّنا سوف نبحث في عناصر البيئة الطبيعية من تربة ومياه ومناخ ونباتات وحيوانات ونبحث في عناصر البيئة الاجتماعية، وأمّا العادات الاجتماعية الغذائية سنتناولها من ناحية النوعية والكيفية والممارسات المتعلّقة بالغذاء.

---

1 حسين عبد الحميد أحمد رشوان: **البيئة والمجتمـع**، دراسة في علم إجتماع البيئة، الاسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، 2006، ص ص 89 .94.

وسوف نقسّم في هذا البحث عناصر البيئة إلى جانبين، أوّلهما البيئة الطبيعية الصحراوية الداخلية، وثانيهما البيئة الخارجية التي لها علاقة تاريخية أو حديثة بمنطقة مجتمع البحث، وعلاقتها بالعادات الاجتماعية الغذائية للمجتمع.

وسوف نبحث عن علاقة أنماط البيئة بتغيير العادات الاجتماعية الغذائية، ويتركز التساؤل الرّئيسي لهذا البحث في التالي:

كيف تعمل أنماط البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية في تغيّير العادات الاجتماعية الغذائية؟

وهذا الأمر يتطلب منا الرجوع إلى تاريخ هذه العادات في السابق، حتّى يمكن لنا التعرّف على التغيير الذي طرأ عليها، فيقول وليم أجبرن: "إن التراث الاجتماعي لا يعتبر نتيجة لعمل الإنسان خلال فترة محددة، بل هو نتاج الإنسان المتبقي من زمن بعيد، واستطاع أن يدوم لينتقل من جيل إلى جيل"[1].

ومن خلال هذا يمكن لنا اختيار نظريتين في علم الاجتماع أولّهما الرمزية المنبثقة عن مدرسة شيكاغو لِـ "جورج هربرت ميد" وكذلك "هربرت بلومر"، باعتبارها . النظرية الرمزية . تضع من الثقافة رموزا، وتعتمد في أساسها على الجانب البيئي، حيث تعتبر أنّ المجتمع "هو شبكة من التفاعلات والرموز والأدوار والتوقعات المرتبطة بها. فلكل فرد دور يؤديه ويرتبط بهذا الدور توقعات معينة"[2].

والمدخل الثاني الذي نأخذ به في هذا البحث يتمثل في الأيكولوجيا الثقافية لـ "جوليان ستيوارد" 1955 التي تتناول التفاعل بين البيئة والثقافة من أجل التوافق مع الوسط الطبيعي.

2 . التساؤلات الفرعية

إنّ البحث العلمي هو أحد المجالات الفكرية والمعرفية التّي تتطلّب التقصّي الدّقيق من حيث الجزيئات، فإنّه من الضروري بمكان تقسيم التساؤل الرئيس إلى فروع حتّى تسهل الممارسة الميدانية من أجل الوصول إلى نتائج علمية دقيقة.

أ . ما هي طبيعة البيئة الصحراوية وما هي أنواع الأغذية التي يتناولها المجتمع بوادي سوف؟

---

1 محمد أحمد بيومي: **تاريخ الفكر الاجتماعي**، الأزاريطة، مصر: دار المعرفة الجامعية، 2003، ص 239.

2 عبد المجيد لبصير: **موسوعة علم الاجتماع**، عين مليلة، الجزائر: دار الهدى،2010، ص 156.

ب ـ ما هي علاقة عناصر البيئة الصحراوية بالعادات الاجتماعية الغذائية في السّابق؟

ج ـ ما هو التغير والتغيّير الذي حدث في عناصر البيئة بأنواعها المختلفة؟

د ـ ما هو التغيّير الذي طرأ على العادات الاجتماعية الغذائية وعلاقة ذلك بأنماط البيئة؟.

3 ـ أسباب اختيار الموضوع

لكل بحث علمي دواع ذاتية وأخرى موضوعية تستدعي الاختيار، لأن الإشكالية لا تحصل اعتباطا بل لها رواسب وخلفيات تدور في ذهن الباحث ناتجة عن الملاحظات والاطلاع المسبق وحتّى الحوار والنقاش الذي يحصل في الوسط العلمي خصوصا الجامعة.

فهذه الإشكالية تمخضت عن:

أ ـ ندرة الدراسات الميدانية التي تبحث في علاقة البيئة بالثقافة بصفة عامة، وهذا من أجل تبيين كيفية تفاعل مجتمع وادي سوف مع البيئة الصحراوية التّي يعيش فيها، بحيث نعثر على بعض الدراسات والأبحاث النظرية والميدانية في المجتمعات الأخرى إلاّ أن بحثنا هذا يعتبر الأوّل في تناوله لعلاقة البيئة الصحراوية بالعادات الاجتماعية بمنطقة وادي سوف.

ب ـ التخصص العلمي يملي على الباحث تحديد نطاق معين يتحرك فيه، فلا يمكن للباحث أن يختار موضوعا بعيدا عن تخصصه الأكاديمي.

ج ـ دراستي في الماجستير التي أظهرت لي بعض الإشكاليات التي تتعلّق بعلاقة البيئة الصحراوية بالعادات الاجتماعية.

د ـ الرغبة الشخصية في البحث في مجال العادات الاجتماعية كأحد عناصر الثقافة وكذلك علاقة هذا بالبيئة الطبيعية.

هـ ـ توفر بعض المراجع التي تمس الموضوع، من شأنها إثراء البحث بالمعلومات والمعارف، وتدعمه بالأدلة والبراهين ونتائج البحوث السابقة.

و ـ انتمائي لهذه البيئة الصحراوية، وكوني عنصرا متفاعلا معها، ومهتما بها الشيء الذي يساعدني في كشف خبايا البحث، وفهم رمزية ثقافة المجتمع.

4 . أهداف البحث

إن العادات الاجتماعية هي إحدى السّمات التي تميّز مجتمعا معيّن عن باقي المجتمعات الأخرى، وهي صورته وشخصيته، وبالتالي نستطيع القول بانّ الثقافة بقسميها المادي والمعنوي تعبّر عن طريقة حياة المجتمع وعلاقته بالوسط الذي يعيش فيه.

فالتكنولوجيا والأدوات المستعملة في الحياة اليومية، هي نتاج اجتماعي مأخوذ ومستقصى من البيئة الطبيعية يتيح للإنسان التكيّف مع وسطه البيئي.
والثقافة المعنوية سواء عادات أو ثقافة شفهية أو غير ذلك من العناصر التي أنتجت من خلال التفاعل الاجتماعي كل ذلك يترجم رخاء العيش أو عسره من خلال ما تترجمه تلك الثقافة وتعبر عنه.
وبالتالي يهدف هذا البحث إلى التطرق لتحليل الجانب المعنوي للثقافة في شق العادات الاجتماعية الغذائية لسكان وادي سوف وعلاقة ذلك بالبيئة بمختلف عناصرها، وكيف صوّرت عناصر البيئة الصحراوية في العادات الاجتماعية الغذائية؟.
إذن تتلخص أهداف البحث في:
أ ـ توضيح استخدامات المجتمع لعناصر البيئة الطبيعية في العادات الاجتماعية الغذائية.
ب ـ تحليل وتفسير صورة عناصر البيئة الطبيعية في العادات الاجتماعية الغذائية وتوضيح مستوى التغيّير الذي طرأ على هذه العادات الاجتماعية جراء التغيرات الداخلية الكامنة، ونتيجة لتأثير البيئة الخارجية التي على علاقة بالمنطقة.

5 . أهمية البحث

إذا تصفحنا الإصدارات المعرفية خصوصا في الجزائر، فلا نعثر على دراسة علمية متخصّصة في علاقة البيئة بالعادات الاجتماعية الغذائية، وإذا عثرنا على بعض الدراسات فإنّها تتناول الموضوع كجزئية بسيطة من موضوع كبير، وأغلب الكتابات التي نشرت كانت عبارة على محاولات نظرية، أو تقارير صحفية في الجرائد المختلفة.

فقد أغفلت الأبحاث في المجال السوسيولوجي تناول هذا الموضوع وهو العادات الاجتماعية الغذائية وعلاقتها بالبيئة، وهنا تبرز أهمية التحليل العلمي الذي يهتم بالترابط العلائقي الذي يكون نتيجة لعيش المجتمع في البيئة، ونستطيع من خلال ذلك معرفة ما عملته عناصر البيئة سواء التضاريس، أو الثروة النباتية والحيوانية، في التعلق بهذا الوسط البيئي، وكذلك معرفة المعاناة والتطلعات الاجتماعية، من خلال تحليل الخطاب، وتواجد صورة منتجات البيئة ومخرجاتها في تلك الأدوات المستعملة في الحياة اليومية، كما يتبين التأثير الذي ينتج عن عملية الاحتكاك الثقافي بالأوساط الخارجية.

وتكتسي العادات الاجتماعية بصفة عامة أهمية كبيرة باعتبارها تنبع من عامة الناس، فهي تمتاز بالتلقائية بعيدة عن الاصطناع والتكلّف، كما هو الحال في الشعر المنتظم والنصوص الأدبية التي يكتبها الشعراء والأدباء، وبالتالي فالعادات الاجتماعية تمتاز بالتلقائية والعفوية، وهي التي تعبر بصفة موضوعية عن حقيقة الحياة الاجتماعية.

ومن هنا نستطيع القول، أن طبيعة هذا البحث له أهمية بالغة في فهم مقومات الحياة للمجتمع الصحراوي، ويوضح كيف رسمت السمات الحياتية من خلال عناصر البيئة؟.

6 . المفاهيم الأساسية

إن مشكلة العلوم الاجتماعية لهذا العصر يتعلّق جانب منها بالمفاهيم، بحيث تعددت تبعا لطبيعة النظرية وأطرها، وبالتالي فتحديد المفهوم في البداية هو ضروري حتى يتم تحديد الإطار النظري بصفة دقيقة، وبالتالي يسهل العمل الميداني، وتتضح النتائج تبعا للمفاهيم المطروحة في بداية البحث. ولا ننسى أيضا أهمية المفهوم الإجرائي، أي الذي يعبّر عن المقصود بالضبط في البحث الميداني على الخصوص.

أ . البيئة

لقد تطور مفهوم البيئة عبر الزمن تبعا لتطور الفكر العلمي، حتى وصل إلى مفهوم يشمل "كلّ ما يحيط بالإنسان"[1]، أي كل الأشياء التي يعيش الإنسان في وسطها، ويكون على علاقة بها.

وتعرّف البيئة أيضا بصفة أكثر تفصيلا من التعريف السابق بأنها: "الإطار الذي يعيش فيه الإنسان، ويحصل على مقومات حياته، من غذاء وكساء ومأوى، ويمارس فيه علاقاته مع أقرانه من بني البشر"[2].

فهذا التعريف يتعلق بكيفية تكيّف المجتمع مع البيئة، وكيف اختار الإنسان المقومات الأساسية للحياة الطبيعية في جميع مجالاتها بما فيها البيئة الاجتماعية.

وتعرّف البيئة أيضا على أنّها تتمثل في "مجموع العوامل الطبيعية، والبيولوجية، والعوامل الاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية، التي تتجاور في توازن، وتؤثر على الإنسان، والكائنات الأخرى بطريق مباشر أو غير مباشر"[3]، فهذا التعريف يعتبر أكثر وضوحا من سابقيه، بحيث يبين بأن البيئة لها أقسام متعددة:

---

1 عبد المجيد عمر النجار: **قضايا البيئة من منظور إسلامي**، الدوحة، قطر: مركز البحوث والدراسات، 1999، ص 19.

2 فتحي دردار: **البيئة في مواجهة التلوث**، طبعة منقحة، تيزو وزو، الجزائر: دار الأمل، 2003، ص 17.

3 أحمد عبد الكريم سلامة: **قانون حماية البيئة**، الرياض، المملكة العربية السعودية: مطابع جامعة الملك سعود، 1997، ص 65.

. البيئة الطبيعية

تعتبر البيئة الطبيعية أحد أقسام البيئة، و يقصد بها "كل ما يحيط بالإنسان من ظواهر حية و غير حية و ليس للإنسان أي أثر في وجودها"[1]، فالبيئة الطبيعية من خلال هذا التعريف تنقسم بدورها إلى قسمين اثنين:

- الظواهر الحية و تتمثل في مجموعة الكائنات الحية من نباتات و حيوانات.

- الظواهر غير الحيّة و تتشكل من التضاريس و المياه و المناخ و العناصر الفلكية و كل ما هو جامد.

وتعرف أيضا "الأرض وما عليها من ماء وما حولها من هواء، وما ينمو عليها من نبات وما تحتضنه من حيوانات، وجدت بشكل طبيعي، وتمثل الطبيعة الموارد المتاحة الإنسان للحصول على حاجاته الأساسية من غذاء وكساء ودواء ومأوى ومواد مختلفة"[2].

و هذا التعريف يبين أنّ البيئة الطبيعية هي كل العناصر المكونة للوسط الجغرافي الذي يعيش فيه الإنسان، بحيث تعتبر تلك العناصر في مجملها تساعد الإنسان على استمرار العيش من خلال ما تمده من غذاء وكساء وغير ذلك من مقومات الحياة.

- ونقصد بالبيئة الطبيعية كتعريف إجرائي في هذا البحث، بأنها كل التضاريس من الرّمال والحجارة، والمياه المتواجدة على السّطح، أو في جوف الأرض، وكلّ حالات المناخ، من رياح وأمطار، وحرارة وبرودة، وكذلك كلّ النباتات والأشجار البرية، والحيوانات التي تعيش في الوسط البيئي.

. البيئة المشيدة

أي كل ما يوجد على الأرض من صنع الإنسان، ويقصد بها "كل ما أضافه الإنسان من عناصر أو معطيات تمثل نتائج تفاعله واستغلاله لموارد بيئته الطبيعية. ويتمثل ذلك في معطيات العمران

---

1 راتب السعود: **الإنسان والبيئة**، دراسة في التربية البيئية، عمان، الأردن: دار الحامد للنشر والتوزيع، 2004، ص 20.

2 المرجع نفسه، ص 21.

وطرق النقل والمواصلات والمزارع والمصانع وغيرها من معطيات الأنشطة البشرية"[1].

ويخص هذا التعريف أن البيئة المشيّدة هي تلك المنشآت التي أنجزت من طرف الإنسان نتيجة تفاعله واستغلاله للثروات الطبيعية المتاحة، حتى يتغلب الإنسان على المظاهر الصعبة للبيئة، ويوفر لنفسه حياة أكثر راحة.

. ونقصد بالبيئة المشيّدة في هذا البحث، بأنّها تلك المباني السكنية، والمنشآت الخدماتية، سواء مباني مؤسسات عمومية أو طرقات أو مشاريع أنجزتها الدولة في إطار تقديم الخدمة للمواطن، مثل الكهرباء والمياه والصرف الصحي، وتشمل البيئة المشيّدة أيضا تلك المزارع وغيطان النخيل التي أنجزت من طرف السكان.

. البيئة الاجتماعية

تعني في مضمونها جانبا معنويا يتألف نتيجة للتفاعل المستمر بين أفراد المجتمع فهي "التي يشترك الإنسان فيها مع أقرانه من بني البشر، وتعبر عن ربطه وقبوله بين أعضاء جنسه كالصداقة والحب"[2].

ويتبيّن من هذا التعريف أنّ البيئة الاجتماعية هي تلك النظم والأبنية الاجتماعية التي تنشأ بين أفراد المجتمع نتيجة التفاعل المستمر، وتشمل القيم والمعايير وجملة العادات والسنن الاجتماعية التي في مجموعها تلقى استحسانا وقبولا بين جميع الأفراد داخل المجتمع الواحد.

والبيئة الاجتماعية كمفهوم إجرائي، هي تلك الطرق والسنن والعادات الاجتماعية التي يوصف بها المجتمع، سواء التي تنتج من داخل المجتمع المحلّي أو التي تأثر بها عن طريق الاحتكاك الخارجي.

1 حسين عبد الحليم أحمد رشوان: مرجع سابق، ص 9.

2 المرجع نفسه، ص 8.

ب . الثقافة

يعتبر مصطلح الثقافة مرن لدرجة كبيرة، واختلفت التعريفات من مفكر لآخر تبعا لطبيعة الاختصاص والحقبة التاريخية التي عاشها. إلاّ أن الجدير في هذا البحث الأخذ بالمفاهيم التي خلص إليها الباحثون الأنثروبولوجيون، فنجد "كلاكهون" يعرّف الثقافة بأنها "كل أساليب الحياة التي أنتجها الإنسان خلال التاريخ الظاهرة والكامنة، الرشيدة وغير الرشيدة، والتي توجد في وقت معين بوصفها موجهات للسلوك"[1]. ويوضح هذا التعريف بأن الثقافة من إنتاج الإنسان عبر التطور الزمني، ولا يهم إن كان هذا المنتج سليما أو غير سليم، والثقافة هنا هي تلك النظم التي تكوّنت ونقلت من جيل إلى جيل عن طريق التنشئة الاجتماعية من أجل تدريب الأجيال اللاحقة على سلوكيات معينة تتوافق مع طبيعة الحياة الاجتماعية السائدة لدى الأجيال السابقة.

. وتعرّف الثقافة أيضا بأنّها "أسلوب الحياة السائد في المجتمع"[2]، حيث يتضمن أسلوب الحياة كل السلوكيات والتصرفات والمواقف والنظم و الأنساق الاجتماعية بما في ذلك الأدوات المستخدمة في الحياة اليومية للأفراد، أي كل ما أنتجه المجتمع معنويا وماديا في حياته.

. وعرّفها الأنثروبولوجي "مالينوفسكي" بأنّها "مجموعة كبيرة من الوسائل المادية وغير المادية التي تعين الشخص على مواجهة ومعالجة المشاكل التي تقابله في الحياة و تلك المشكلات تبدأ برغبة الإنسان في تحقيق و إشباع رغباته الأساسية كالطعام والإشباع الجنسي والوقاية من الأخطار، وغير ذلك من الحاجات الضرورية والثانوية التي لا يمكن أن تتحقق إلاّ في بيئة الثقافة ذات الاستمرار والدوام والتجديد"[3].

---

1 عبد المجيد لبصير :مرجع سابق، ص 245.

2 أمينة حمزة الجندي: **ثقافة الطفل العربي**، مجلة ثقافة الطفل العربي، تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1992، ص 290.

3 محمد عباس وآخرون: **الأنثروبولوجيا**، "علم الانسان"، الأزاريطة، مصر: دار المعرفة الجامعية، 2002، ص 245.

و يتضح من هذا التعريف أن الثقافة تقسم إلى ثقافة مادية وأخرى معنوية، وتنتج عن طريق التفاعل المستمر مع الوسط البيئي الطبيعي، وكذا الوسط البيئي الاجتماعي، وهذا من أجل مساعدة الأجيال في التكيف مع الوسط الذي يعيشون فيه.
فقد أوضح التعريف المميزات الأساسية للثقافة مثل الاستمرارية.

جـ . العادات الاجتماعية

إن مفهوم العادات الاجتماعية لم يتناوله المفكرون المحدثون فحسب، بل شغلت الفكر البشري منذ القديم، فقد نعثر في كتابات أرسطو تفسيرا للعادات الاجتماعية بأنها "طبيعة ثانية"[1]، أي أن الإنسان يقوم بها من دون جهد بقصد التكيّف، فقد يقوم بها الإنسان بعفوية وبطريقة غير إرادية.

ومن الناحية السوسيولوجية تعرّف العادات الاجتماعية بأنّها "أنماط من السلوك التي تنتقل من جيل إلى جيل وتستمر فترة طويلة، حتى تثبت وتستقر وتصل إلى درجة اعتراف الأجيال المتعاقبة عليها، وفي بعض الأحيان نجد أن العادات تقوم مقام القانون في المجتمع"[2].

وتعرّف أيضا بأنّها "ظاهرة أساسية من ظواهر الحياة الاجتماعية الإنسانية، وإنّها حقيقة أصيلة من حقائق الوجود الاجتماعي، حيث نصادفها في الكثير من المجتمعات البسيطة والمتقدمة على السواء، وهي تؤدي في الوقت نفسه والمجتمع نفسه كثيرا من الوظائف الاجتماعية والثقافية الهامّة كما أنها موجودة في المجتمعات التقليدية التي يتمتع فيها التراث الشعبي بقوة قاهرة وإرادة مطلقة. كما أنّها استطاعت أن تحافظ على كيانها ووجودها في ظل مجتمعاتنا الحديثة والمتطورة"[3].

في الحقيقة بعد عرضنا لهذه التعاريف نود بلورة مفهوم واضح للعادات الاجتماعية التي باتت لصيقة بعلم الاجتماع، حيث تعتبر أحد الموضوعات الأساسية في هذا العلم، وهذا من أجل توضيح مقصودنا من العادات الاجتماعية التي أحيانا تطلق على الأعراف وفي بعض الحالات تطلق مرادفة

1 صلاح الدين شروخ: **علم الاجتماع التربوي**، ب ط، عمان، الأردن: دار اليازوري، 2009، ص 292.
2 إبراهيم ناصر: **علم الاجتماع التربوي**، بيروت: دار الجيل، بدون سنة، ص 121.
3 محمد عباس إبراهيم وآخرون: مرجع سابق، ص 244.

للتقاليد، وأخرى مرادفة للسنن الاجتماعية، وفي الحقيقة أن الأعراف تختلف عن التقاليد، وهي بدورها تختلف عن السنن وهكذا، هذا من ناحية درجة الإلزامية والشيوع والعقاب وغير ذلك.

ولذا سوف نعتمد المرادف الشامل للعادات المتمثل في الطرق الشعبية الذي اعتمده "سمنر" والذي اعتمدته الدكتورة " فوزية دياب" حيث تقصد بالعادات الاجتماعية أو بالطرق الشعبية، "كل سمات وأنماط الثقافة الموسومة بالطابع الجمعي أو الذي يمارس اجتماعيا. فهي تشمل تصرفات الناس في مختلف المواقف والمناسبات الاجتماعية، وتستوعب كل الطرق والأساليب التي أقرّتها الجماعة وتعارفت عليها لمعالجة مشاكل ومواقف الحياة العادية الروتينية الجارية، وكذلك لمقابلة المناسبات التي لها دلالات اجتماعية خاصة"[1].

. ونقصد بالعادات الاجتماعية في هذا البحث، بأنّها تلك الممارسات الاجتماعية، سواء الطرق الشعبية، أو السنن الاجتماعية، المستنبطة من الثقافة التي يتسم بها مجتمع الدراسة، لا سيما تلك الممارسات المتعلقة بالغذاء سواء من حيث النوعية وكيفية الإعداد، أو ما تعلّق بطريقة تناول الوجبات الغذائية وطرق تصبيرها.

د . التغيّر الاجتماعي

يعتبر مفهوم التغير في علم الاجتماع من أصعب المفاهيم تحديدا نظرا لتعدد أبعاده وأسبابه وتعقدها، والتغير ليس من السهل قياسه، كما أنّه لا يمكن أن نتنبأ بحدوث التغير إلاّ في حالات نادرة جدا.
وعلى الرغم من هذا، إلاّ أن العلماء والمفكرين أبدوا مجموعة من المحاولات كل بحسب توجهه والزاوية التي سيبحث عن طريقها أبعاد التغير، فقد ذهب "جنزبيرج" إلى جانب التغير في البناء الاجتماعي، كالتغير في حجم المجتمع وتركيبه ونمط التوازن بين أجزائه أو نمط تنظيماته"[2].

---

1 فوزية دياب: **القيم والعادات الاجتماعية**، ط2، بيروت: دار النهضة العربية، 1980، ص 116.

2 أحمد زايد و اعتماد علام: **التغير الاجتماعي**، ط2، مصر: مكتبة الأنجلو المصرية، 2000، ص 18.

وقد عرّفه "ولبرت مور" بأنّه "التبدل الجوهري في الأبنية الاجتماعية، أي في أنماط الفعل الاجتماعي بما في ذلك النتائج المرتبطة بهذا التبدل. كما تنعكس في التغيرات التي تطرأ على القيم والمعايير والمنتجات الثقافية والرموز"[1].

ويعرّف التغير بصفة شمولية "بأنّه يشير إلى كافة أشكال التحول الجزئية أو الكلية التي تطرأ على البناء الاجتماعي . الثقافي لمجتمع من المجتمعات تحدث عبر سلسلة متصلة من العمليات المستمرة

عبر الزمن، ويكون لها نتائج بعيدة المدى عبر المستويات المختلفة للبناء الاجتماعي"[2].

ونحن في هذا البحث سوف نتناول التغير الذي حدث للعادات الاجتماعية الغذائية، سواء من حيث النوعية أو الكيفية أو السلوكيات المصاحبة للوجبات الغذائية، ويتعلّق الأمر كذلك بطرق تخزين وتصبير المواد الغذائية المختلفة، باعتبار العادات الاجتماعية الغذائية أحد مركبات البناء الثقافي.

هـ . التغيير

التغيير هو حالة من حالات التغير الاجتماعي، ولكن يحدث بفعل عامل من العوامل، أو التغيير الذي يحدث بطريقة مقصودة، ونقصد هنا في هذا البحث بالتغيّير الذي حدث للعادات الاجتماعية الغذائية بفعل العوامل البيئية الجغرافية، وعوامل البيئة الاجتماعية سواء الداخلية لمجتمع الدراسة، أو البيئة الاجتماعية الخارجية التي احتك بها مجتمع البحث.

1 أحمد زايد واعتماد علام: المرجع السابق، ص 19.

2 المرجع نفسه، ص 21.

7 . الدراسات المشابهة

إنّ المعرفة العلمية تتميز بالتراكمية، وتعتبر الأبحاث والدراسات التي سبقت أي دراسة معينة عبارة على فرشة، إمّا نظرية تساعد البحث الجديد على التصور العام للموضوع، وإمّا قاعدة ميدانية تسهل المقارنة، وتدعم النتائج المتوصل إليها، ولا يمكن أن نقول جزما أنّ البحث المتناول لم تسبقه دراسات، لأنه يمكن أن نعثر على البعض منها تمس الموضوع في جانب معين، لا يكن بالضرورة في التخصص المدروس، بل يكون أحيانا في تخصصات قريبة منه.

ومن المتعارف عليه أنّ الدراسات المشابهة أو ما يطلق عليه الدراسات السابقة هي "كل المساهمات العلمية التي لها صلة بالموضوع المراد بحثه، وتمّ تقديمها لدوائر علمية، بهدف الحصول على درجة علمية . ماجستير، دوكتوراه دولة . أو على مقابل مادي أو لمجرد المساهمة العلمية لمشاريع بحث"[1]

وفي هذا الجانب اخترنا بعض الدراسات التي تمسّ الموضوع المدروس في جوانب مختلفة، وقد وقع اختيارنا على القيّم منها، والأكاديمي.

أ . الدراسة الأولى[2]

قامت بهذه الدراسة الدكتورة عليا شكري مع فريق بحث أكاديمي، في المملكة العربية السعودية تحت عنوان: دراسة ميدانية لثقافة بعض المجتمعات المحلية.

تمحورت إشكالية البحث حول عناصر الثقافة التقليدية والتراث الشعبي في مجتمع الدراسة. وقد قسّم البحث إلى مجموعة من العناصر تمثلت في: دراسة العادات الشعبية (الميلاد، الزواج والوفاة)، دراسة عادات الطعام والفلكلور، دراسة المعتقدات الدينية الشعبية. دراسة عادات الطب الشعبي.

---

1 بلقاسم سلاطنية، وحسان الجيلاني: **منهجية العلوم الاجتماعية**، ط 1، عين مليلة، الجزائر: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، 2004، ص 114.

2 محمد الجوهري: **الأنثروبولوجيا** . أسس نظرية وتطبيقات علمية، الأزاريطة، مصر: دار المعرفة الجامعية، 1997، ص 531.

. اختير المجال الجغرافي للدراسة، ثلاث قرى بالمملكة العربية السعودية وتمثلت في . قرية سبت العلاية . قرية الطرفين . قرية سبت تنومة وهي مناطق صحراوية.

. استعين في الدراسة بالمنهج الوصفي التاريخي باعتبار أن البحث يعالج بعض العادات السابقة والحاضرة.

. أما نتائج الدراسة تمحورت حول الآتي:

. الاتجاهات العامة للتغير، كقيام دولة السعودية عمل على إضفاء بعض التغيرات في عناصر الثقافة.

. عمل البترول على تغيير جانب هام من العادات والمبادئ والقواعد الإدارية.

. حدث تغير في القطاع الزراعي من خلال مجموعة من الخطط تتعلق بالتكنولوجيا والمياه والتربة.

. حدوث ظاهرة النزوح الريفي بسبب التعليم ونمو وتطور الخدمة العامة.

. هناك تطور التعليم من مؤسسات وبرامج سهرت عليها الحكومة، فقلصت من نسبة الأمية، وساهمت في تكوين إطارات المملكة.

. حدث تغير في الجانب التجاري بحيث زاد التبادل وتحول الاقتصاد من بدائي إلى اقتصاد السوق.

. قلّت الثروة الحيوانية من ماشية وغيرها بسبب توجه الرعاة إلى مزاولة الدراسة.

. وقع تطور في مجال الطرق، والسكك الحديدية، والمطارات، وتغير النقل من تقليدي بدائي إلى حديث.

. تحول بعض المنتجات الحرفية من مهمة الاستعمال المنزلي كالغذاء أو التخزين إلى مهمة ثانوية تتمثل في وضعها كزينة داخل البيوت.

- تحولت المساكن من طريقة التراص والتزاحم إلى بنايات متباعدة عن بعضها بسبب توقف الحروب السابقة وانتشار الأمان.

. كانت ربة البيت تقوم بجل الأعمال في البيت وهي حامل ولم تكن الولادة تمثل أي مشكل بالنسبة للمرأة. واليوم تحولت مهمات الأم إلى الحاضنة والوسائل الحديثة.

- تغير الختان من حيث السن بحيث يختن الطفل في سن المراهقة واليوم يختن منذ الولادة.

- تغير الزواج من حيث السن وطرق الاحتفال من جراء الهدف من الزواج.
- لم تتغير عادات الموت كثيرا فقط تغيرات تتعلق بالتحاليل الطبية.
- اضمحلت أدوار المساجد بشكل كبير.
- تغير الاهتمام والنشاط في الأعياد والمناسبات خاصة عادات رمضان.
- تحول الاعتماد على الطب الحديث بدلا من الطب الشعبي فقط.

استفدت من هذه الدراسة الميدانية، جوانب تتعلّق بالمنهجية، خاصة نوعية المجتمع المدروس، وكيفية التحليل للبيانات الميدانية التي تركزت على الملاحظة بدرجة كبيرة، كما استفدت منها من ناحية اتجاهات التغير الذي طرأ على الحياة الاجتماعية بصفة عامة، والجوانب الثقافية بصفة خاصة، وعلى الأخص ما حدث في جانب العادات الاجتماعية الغذائية والعوامل التي عملت على تغييرها.

ب . الدراسة الثانية[1]

أجرى هذه الدراسة الأستاذ محيي الدين خريف سنة 2010، بالجمهورية التونسية تحت عنوان النخلة في الجنوب التونسي، وقد نشرت في مجلة "الثقافة الشعبية" المهتمة بالثقافة في الدول العربية، لها من الدكاترة والباحثين المحكمين في مختلف الدول العربية، تنشر عدا الدراسات ذات الصفة الأكاديمية، والتي تملك المعايير العالمية لقواعد البحث في العلوم الاجتماعية.

. تمحورت إشكالية الدراسة حول تأثير النخلة في ثقافة المجتمع، وتناولت هذا الجانب من خلال التعرّف على العلاقة الموجودة بين النخلة والحياة الاجتماعية في الجنوب التونسي.

. استخدم الباحث المنهج الوصفي باعتباره يبحث في صورة أحد عناصر البيئة الحية، وهي النخلة في رسم الثقافة المحلية.

1 محيي الدين خريف: **النخلة في الجنوب التونسي**، مجلة الثقافة الشعبية، العدد9، البحرين: أرشيف الثقافة الشعبية للدراسات والبحوث والنشر، سنة 2010، ص 24.

. وقد استخدم الباحث الشعر الشعبي والأمثال الشعبية المتداولة في المنطقة والتي استخدمت هذا الكائن للتعبير عن بعض المواقف والأحداث، كما استعان الباحث بالأساطير المتعلقة بالنخلة.

. أما محاور الدراسة فتعلقت بـ:

. فرشة نظرية تاريخية تخص النخلة، وإعطاء وصف عن طبيعة نموها وإثمارها.

. فوائد تتعلق بالنخلة ومنتجاتها ، التمر، اللاقمي، الجريد.....

. النخلة في التراث الشعبي كالأمثال الشعبية والشعر الشعبي.

. درس الباحث بعض الفوائد التي تقدمها النخلة من غذاء، وصناعة بعض الأدوات والوسائل التي يستخدمها المجتمع في الحياة اليومية.

. خلصت الدراسة في الأخير إلى أن النخلة دخلت في الأجزاء الثقافية للمجتمع بالجنوب التونسي، وبالضبط منطقة الجريد المختصة بإنتاج التمور بصفة أساسية، هذا الدخول تعلق بالجانبين المادي والمعنوي للثقافة، فقد تغنّى بها الشعراء، ووصفوا العديد من الأشياء المحبوبة عندهم بالنخلة أو بعض أجزاءها، كما ضربت العديد من الأمثال الشعبية بهذا الكائن، وصنعت منها أدوات مادية استخدمت في الحياة اليومية، كما كانت النخلة مصدرا غذائيا مهما، بحيث في ثقافة المجتمع من يملك التمر فلا يصيبه الجوع أبدا.

لقد استفدت من هذه الدراسة في مجملها من ناحية طريقة تناول الموضوع، وكذا المقارنات التي تتعلق بالنخلة واستخداماتها في منطقة الجريد التونسي، مع استخدامات النخلة في منطقة وادي سوف، وكانت الدراسة متطابقة مع جزء هام في هذا المجال خصوصا ما تعلّق بالبحث في جزئه الخاص بعلاقة النخلة بالثقافة الشعبية لمنطقة وادي سوف.

ج . الدراسة الثالثة[1]

قام بهذه الدراسة عالية حبيب ومجموعة من الباحثين في مجال الأنثروبولوجيا التطبيقية في منطقة النوبة بمصر، تحت عنوان ثقافة النخيل في المجتمع النوبي.

. تمحورت إشكالية البحث حول إلقاء الضوء على النخيل باعتباره عنصرا ثقافيا، وكيف دخل وصنع بعض أجزاء الثقافة في المجتمع المحلي من الجانب المادي في مجتمع النوبة بمصر.

. اختير المجال الجغرافي للدراسة منطقة غرب أسوان، باعتبار أن النّخيل يشكل أحد العناصر المكونة للملكية أو الثروة بالنسبة للجماعة القرابية، ويشكل النخيل أحد المعايير الاجتماعية لتحديد المكانة الاجتماعية.

. استعين في الدراسة بنظرية النزعة الوظيفية من زاوية إظهار الوظيفة التي تقدمها النخلة في الثقافة عامة، وقد استعمل المنهج الوصفي بالاستعانة بالمنهج الأنثروبولوجي من أجل الكشف والوصول إلى الأهداف المرجوة.

. تشكلت الدراسة في محاور تمثلت في :

. جانب تاريخي تعلّق بنشأة النخيل في مصر.

. وصف الجانب الإيكولوجي للمجال الجغرافي للدراسة.

. الأهمية الاقتصادية للبلح لقرية النوبيين.

. الصناعات البيئية القائمة على النخيل.

. القيمة الغذائية للبلح.

. النخيل في التراث الشعبي.

. النخيل مدخل للتنمية الاقتصادية والاجتماعية للمنطقة.

. خلصت الدراسة إلى نتائج مفادها أن الثقافات الفرعية ستظل باقية على حالها، مكتفية بذاتها غير متأثرة بالبيئة الخارجية، شكلت الصناعات البيئية جزءا هاما في اقتصاد المنطقة وعملت على تسهيل الحياة اليومية في العديد من الأدوات التي يستعملها المجتمع في البيوت والمجالات الفلاحية.

---

1 عالية حبيب وآخرون: **علم الاجتماع الريفي**، ط1، عمان، الأردن: دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، 2009، ص 225.

وتعتبر هذه الدراسة على علاقة وطيدة جدا ببحثنا هذا، الذي يتعلّق بعلاقة عناصر البيئة الطبيعية بالثقافة، خصوصا أنّ هذه الدراسة تناولت تدخل عنصر النخيل في الثقافة الفرعية من خلال الغذاء والصناعات التقليدية التي تستعمل أجزاء النخيل.

د . الدراسة الرابعة [1]

تناولت هذه الدراسة الدكتورة "نجوى عبد المنعم الشايب" تحت عنوان "الغذاء بين الرؤى الشعبية والصحة الغذائية".

وتمحورت التساؤلات في:

ـ إلى أي حد تقترب مفاهيم الصّحة والغذاء في الريف من ثقافة الغذاء الصحي؟

ـ إلى أي حد تقترب ثقافة الغذاء الريفية من النموذج الغذائي الحديث الذي يعتمد على الوعي بالغذاء الطبيعي؟

ـ ما هو الدور الذي تلعبه المحددات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في تحديد نوعية الأطعمة على مائدة الطعام الريفية؟

ـ هل تلعب الرؤى والمعتقدات الشعبية المرتبطة بالغذاء دورا في التفسيرات العلاجية والغذائية للأطعمة المختلفة؟

ـ هل تقوم البيئة الريفية بدور في تلك التفسيرات التي ارتبطت بثقافة الغذاء في الريف؟

ـ ما هي المصادر التي يتلقى منها الريفيون ثقافتهم الغذائية والصحية؟

المنهج والأدوات المستخدمة في الدراسة كانت تتمثل في المنهج الأنثروبولوجي مع استعمال الملاحظة والمعايشة والمقابلة الفردية والجماعية، واستخدمت الباحثة دليل عادات الطعام وآداب المائدة وكذلك دليل المعتقدات الشعبية.

وقد كانت وحدة الدراسة تتمثل في الأسرة، كما كان استخدام الإخباريين بارزا بصفة كبيرة.

1 محمد الجوهري وآخرون: مرجع سابق، ص 371.

أما ما يتعلق بوحدة التحليل فكانت مدة زمنية تدوم اليوم بأكمله لملاحظة الأطعمة وآداب المائدة، كما روعي في ذلك اختلاف المواسم والفصول.

و فيما يتعلّق بمجتمع البحث، فقد اختيرت قرية "برك الخيام "وهي ذات طابع زراعي وقريبة من المدينة تنتمي لمحافظة الجيزة بمصر يبلغ عدد سكانها 6517 نسمة. وفيها من المؤسسات الحكومية إلاّ القليل.

وخلصت الدراسة إلى النتائج الآتية:

ـ مفهوم الغذاء وفوائده تحول من الاعتقاد بدوره في إضفاء السمنة كما كان في الماضي إلى أن الغذاء يجب أن يمد الفرد بالقوّة الجسمانية والنفسية والروحية.

ـ لعبت العوامل الاجتماعية والثقافية دورا في مفهوم الغذاء الصحي، فالغذاء ارتبط لدى الفئات الوسطى والعليا بالكميات الضرورية للفرد بحسب العمر وطبيعة النشاط. أمّا الفئات الدنيا فهي تبحث على الإحساس بالشبع والتقليل من عدد الوجبات.

ـ تتنوع المائدة من عدد من الخضروات المنتجة عندهم، وهذه الخضروات طازجة، ولكن يوجد عدم وعي صحي بخطورة المحاصيل الزراعية التي أصبحت ملوثة بواسطة المبيدات الزراعية التي تنتقل إلى الإنسان.

ـ يسود الغذاء النشوي العادات الغذائية لمجتمع الدراسة باعتقاد أنها تمنحهم الطاقة للتغلب على المهن الشاقة.

. الإكثار من الدهون نتيجة لوسائل الإعلام والإشهار.

ـ تنوعت المائدة بمجموعة من الأغذية البروتينية الحيوانية والنباتية.

ـ لعبت المعتقدات الشعبية دورا في استمرار العائلات في تناول بعض الأغذية التي لها فوائد علاجية.

. تمثلت هذه الدراسة في تناول موضوع الغذاء من خلال رؤية بنيوية لموضوع ثقافي لأحد المجتمعات الريفية، بحكم أن العادات الغذائية هي جزء من بناء ثقافي، باعتقاد أن عنصر ثقافي واحد له دور في الكل المركب، ويرمز لمجموعة من التلقينات لأفراد المجتمع ككل.

ـ أمّا الفائدة المتوخاة من استخدامنا لهذه الدراسة، تمثلت في طريقة تناول موضوعنا من الناحية المنهجية أولا، ثم الجانب المفاهيمي الذي تناولته الباحثة في موضوع الغذاء، كما أفادتنا من حيث

اختيار مجتمع الدراسة الذي يشبه إلى حد كبير مجتمع الدراسة لهذا البحث، فهو عبارة على منطقة سكنية ذات طابع ريفي تغير من وضع لوضع آخر جديد بحكم الاحتكاك الثقافي، وقرب المجتمعين من مركز المدينة.

ثانيا:الإجراءات المنهجية

1 . مجالات الدراسة

أ . المجال الجغرافي

وقع الاختيار على منطقة "وادي العلندة" بولاية الوادي بالجزائر، وهي ذات طابع صحراوي بامتياز، وهي عبارة على بلدية حديثة التأسيس، تقع في الجهة الغربية من بلدية الوادي، تبعد عن مقر الولاية حوالي عشرين كيلو مترا، أرضها رملية تتخللها بعض النباتات الصحراوية، مياه الطبقة الجوفية منها المالح المذاق وأغلبها عذب صالح لري المزروعات، وتبعد المياه الجوفية بضع أمتار عن سطح الأرض، يوجد بالمنطقة غيطان نخيل حذو المناطق العمرانية.

مناخها صحراوي بارد وجاف شتاء وحار صيفا، تمتاز برياح وعواصف رملية تتطاير فيها الرمال، أمّا الأمطار فهي نادرة جدا، وإن نزلت فتكون عبارة على زخات ويمكن أن تكون قوية، ويعيش في المنطقة عدد من الحيوانات البرية والأليفة.

بـ . المجال الزمني

انقسم المجال الزمني للبحث إلى فترة جمع التراث النظري والدراسة الاستطلاعية، والدراسة الميدانية، ودامت الدراسة الاستطلاعية 15 يوما ما بين 01 أكتوبر 2011 لغاية 15 من الشهر نفسه، تمثلت في زيارة مقر البلدية، حيث قمنا بالاطلاع على توزيع السكان في الأحياء، والتعرف على طبيعة العائلات التي تقطن بالبلدية، كما قمنا بالتعرف على أهم الأشخاص الذين يفيدوننا في جمع البيانات، حيث قمنا ببعض المقابلات معهم وعددها 4، وجرّبنا الاستمارة مع عدد من العائلات.

أمّا الدراسة الميدانية، فدامت ستة شهور في المرحلة الأولى، وانطلقت في جانفي 2012، وأنهيت في جوان من السنة نفسها، والمرحلة الثانية دامت ستة شهور أيضا بداية من جويلية 2013 وأنهيت في ديسمبر من السنة نفسها، كما كنا في كل مرّة نرجع للميدان كلّما تطلّب الأمر ذلك، إلى غاية إتمام كتابة تقرير البحث.

جـ ـ المجال البشري

يقدر عدد سكان منطقة البحث 7070 ساكن بحسب إحصاء 2008، يتوزعون في ستّ قرى صغيرة، ينضمون في 695 عائلة. سكانها أغلبهم أصليون في المنطقة عدا العدد القليل من القادمين من مناطق أخرى من وادي سوف.

أمّا الأصول الأولى لسكان هذه المنطقة تنحدر من منطقة عميش، وعميش هي المنطقة الجنوبية من مدينة الوادي، تبدأ من "البيّاضة" حاليا إلى غاية نهاية العمران جنوبا، إلى جانب أصول سكنية أخرى لأهالي منطقة البحث، حيث سكن المنطقة قادمون من مدينة الوادي، وبعض المناطق الأخرى.

يتميز أهل منطقة البحث بأنّهم ريفيين، على اتصال دائم بالمناطق الحضرية بمدينة الوادي، بحكم قرب المسافة، وعلاقة النسب أيضا.

ومن بين عدد العائلات المتواجدة في منطقة البحث، اخترنا ثمانين عائلة أو أسرة كعيّنة سوف نوضح ذلك في العنصر الخاص بالعينة.

2 . الفرضيات

تحديد الفرضية في البحث العلمي، خطوة هامة، فهي التي ترسم التطبيق الميداني بصفة واضحة، وبالتالي الوصول بطريقة سهلة إلى نتائج يقينية يمكن الاعتماد عليها في مجال العلم، فبمفهوم واسع تعتبر الفرضية هي ما قبل الحقيقة، بالأحرى هي ما قبل اليقين.

وهي وضع تصورات سواء عن طريق الصياغة بصفة النفي أو التأكيد، وبالتالي تعمل على تسهيل الاختبار والقياس، وتساعد الباحث على الاختيار الأنسب للمناهج المستخدمة، وكذا الاختيار الصحيح لأدوات جمع البيانات في الدراسة الميدانية.

وتعرف الفرضية من ناحية امبريقية بأنها "جاءت لشرح حقائق مرصودة لحالات أو سلوكيات، ولكي تستخدم كمرشد أو موجه في عملية البحث"[1].

وبالتالي فهي المرشد أو النطاق الذي لا يخرج عنه البحث الميداني.

وتعرف الفرضية أيضا بأنّها "أفكار مبدئية تدرس العلاقة بين الظواهر قيد الدراسة والبحث والعوامل الموضوعية التي تؤثر فيها"[2].

فهي إذن عبارة على تخمين مسبق للبحث في العلاقة بين المتغيرات خصوصا المتغيرين المستقل والتابع المطروحان للدراسة والبحث. ففي هذا البحث سوف نبتعد عن الطرح الكمي للفرضيات ونصوغها بصفة إنشائية.

أ . الفرضية الرئيسية

تحاول المجتمعات البشرية بصورة مستمرّة منذ أن وجدت على هذه الأرض استغلال ما تجود به البيئة في الحاجات الأساسية، ولهذا فالإنسان يعيش في علاقة ديناميكية تحددها طبيعة البيئة الطبيعية وقدرات أفراد المجتمع، هذا ما فسرته نظريات البيئة والمجتمع.

---

[1] Billy L.Turney and George PRobb: **Research in Education**, U.S.A: The Dryden Press In , 1973, p 26.

[2] إحسان محمد الحسن: **الأسس العلمية لمناهج البحث الاجتماعي**، بيروت، لبنان: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1982، ص 45.

وكنتيجة لهذا الطرح نستطيع طرح الفرضية بشكلها الآتي:

إن أنماط البيئة بمختلف عناصرها تتدخل بشكل من الأشكال في العادات الاجتماعية الغذائية، في حين يعمل المجتمع في الاستفادة منها وتطويعها لصالحه.

ومن مميزات العادات الاجتماعية بحسب نظريات التغير الاجتماعي أنّها تتغير بمرور الزمن نتيجة تأثيرات مختلفة من بينها الاحتكاك الثقافي والحروب وغير ذلك.

. إنّ العادات الاجتماعية الغذائية بوادي سوف ظلّت على علاقة وطيدة بالبيئة الطبيعية الداخلية، وبمرور الزمن تغيرت تبعا لتغيرات بعض عناصر البيئية الداخلية والخارجية.

ب . الفرضيات الجزئية

من أجل تسهيل الدراسة في علم الاجتماع، وتيسير الدراسة الميدانية لا سيما الوقت المخصص يجب تجزئة الفرضية الأساسية إلى جزئيات كلما أمكن ذلك.

فقد قسمنا الفرضية الرئيسية إلى الآتي.

. من أجل الاستفادة ممّا تجود به البيئة، يستخدم الإنسان البعض منها حتى يتسنى له التكيف مع الوسط الذي يعيش فيه من خلال عناصر البيئة المختلفة، فهو يحاول دائما الاستفادة من الثروة النباتية والحيوانية التي تعيش في بيئته، فيصنع منها بعض الحاجيات كلّما أمكنه ذلك، ويستخرج من الثروات الطبيعية ما يسهل عليه الحياة اليومية، وفي الوقت نفسه يحاول استخدام بعض التكنولوجيات في صد بعض الظواهر الطبيعية التي تعكر له الحياة العادية.

وبالتالي فإن الفرضية الجزئية الأولى مفادها هو أنّ عناصر البيئة الطبيعية لها علاقة وطيدة بالعادات الاجتماعية الغذائية في الفترات السابقة.

. وبحكم أن المجتمعات الصحراوية مثلها مثل باقي المجتمعات الأخرى لها عدة عوائق حياتية ولها مجموعة من الأمور المسهلة في الوسط الذي تعيش فيه، وكما نعرف أنه توجد عدّة عناصر في البيئة استخدمها المجتمع في حياته اليومية، وهناك عناصر شكلت أهمية كبيرة أيضا، وبالتالي

فالفرضية يمكن طرحها بالشكل الآتي: لقد استخدمت في العادات الاجتماعية الغذائية بوادي سوف عناصر البيئة الصحراوية بحسب أهمية كل عنصر.

. كنتيجة لاتصال المجتمع بوادي سوف بالبيئات الخارجية تغيرت ملامح العادات الاجتماعية الغذائية من حيث النوعية والكيفية.

. في الآونة الأخيرة تغيرت بعض الممارسات المتعلقة بالغذاء بسبب التأثر بالبيئة الخارجية والتغير والتغيير الذي طرأ في البيئة الداخلية أيضا.

3 . المنهج المستخدم

حتى يكون البحث مصبوغا بصبغة علمية، يتحتم على الباحث الأخذ بمنهج أو أكثر بقصد فحص الظاهرة أو المشكلة المطروحة قيد الدراسة، وبالتالي الوصول إلى نتائج علمية يمكن الاعتماد عليها، ويتأتى ذلك باستخدام طرق وأساليب علمية محددة ومتفق عليها من الناحية العلمية.

ولكن ما نجده في مجال البحث العلمي هو تعدد المناهج، وتختلف من حيث الإجراءات والخطوات وكذا الأدوات التي يستخدمها كل منهج، وهذا التعدد للمناهج ناتج عن اختلاف الإشكاليات المطروحة، واختلاف طبيعتها من مشكلة إلى أخرى، ويرجع أيضا هذا التعدد بحسب تنوع صياغة الفرضيات المقترحة مسبقا، فالفرضيات هي تفرض بصورة مباشرة طبيعة ونوع المنهج الذي يجب أن يستخدم.

فالمنهج يعرف بأنه "مجموعة من الإجراءات والطرق الدقيقة المتبناة من أجل الوصول إلى النتيجة"[1]، من خلال هذا التعريف العام فإن المنهج يتمثل في إتباع مجموعة من المداخل المحددة بصفة واضحة والمتسلسلة منطقيا، وهذا من أجل الأخذ بالنتائج المتوصل إليها.

وهذا البحث يتناول متغيرين أساسيين: الأول مستقل والمتغير الثاني تابع. فالبيئة هنا تعتبر متغير مستقل أمّا العادات الاجتماعية الغذائية فهي المتغير التابع.

---

1 موريس أنجرس: **منهجية البحث العلمي في العلوم الانسانية**، ترجمة بوزيد صحراوي وآخرون: ط 2، الجزائر: دار القصبة، 2006، ص 36.

وفي هذا البحث نريد الوصول إلى البعد البيئي في عادات الغذاء، وكيف عملت عناصر البيئة في تغيير العادات الاجتماعية الغذائية لدى المجتمع بوادي سوف؟. وبالتالي فمنهج البحث هو وصفي في أصله والذي نعتبره مناسبا لمثل هذه الأبحاث ويناسب ما طرح من تساؤلات وفرضيات.

وهذا النوع ينتمي إلى البحوث النوعية لا الكمية، فهو لا يتطلب التعمّق في الإحصائيات والأعداد بصورة كبيرة، ولكن يعتمد على التحليل بطريقة التعبير لا للغة الإحصاء، وحتى لو استخدمت فيه مجموعة من الأدوات والطرق الإحصائية لكن لا تكون بصورة تصبغ البحث، باعتبارها مساعدة للتحليل الكيفي لا أكثر.

فالهدف من الفرضية الأولى يتعلق ب "وصف تحليلي للمشاهدة الاجتماعية، الأفراد والجماعات يعيدون بناء مشاعرهم المشتركة ومعتقداتهم وممارساتهم والمعرفة لديهم، كما أنها دراسة استراتيجيات التفاعلية في الحياة الإنسانية "[1].

وهناك من يرى أن من افتراضات البحوث الوصفية هو أن "السلوك يتأثر كثيرا بالبيئة التي يحدث فيها، فالفهم الحقيقي للسلوك يتطلب فهم تلك البيئة أو السياق"[2] وهذا ما يتطابق مع هذا البحث الذي يدرس فحواه علاقة البيئة بالعادات الاجتماعية في الوسط الصحراوي.

وبالتالي فالفرضية الأولى تتطلب استخدام المنهج الوصفي باعتبار أن البحث يريد الوصول إلى وصف العادات الاجتماعية الغذائية لحقبة زمنية معيّنة.

أمّا ما يتعلّق بالفرضيتين الثانية والثالثة فيتطلب منا استخدام المنهج الأنثروبولوجي باعتبار أن البحث يمتاز بصبغة أنثروبولوجية. وهذا المنهج حسب "ماركيز" "يعتمد على الملاحظة الميدانية، فبعد أن يحدد الباحث المشكلة يقوم ببحث وفحص الحقائق والبيانات في المكتبة، ثم يقوم الباحث بالملاحظة المباشرة لعادات الأفراد وتقاليدهم فضلا عن الافادة من المخبرين الموجودين بالميدان، ويستطيع بذلك أن يصل إلى الأسباب المؤدية للتغيرات الثقافية"[3] .

---

1 فريد أبو زينة وآخرون: **مناهج البحث العلمي**، الكتاب الثالث، طرق البحث النوعي، عمان، الأردن: منشورات جامعة عمان العربية للدراسات العليا، 2005، ص 116.

2 المرجع نفسه، ص 117.

3 أحمد بدر: **أصول البحث العلمي**، ط 1، المكتبة الأكاديمية، 1996، ص 230

وهذا ما يتوافق تماما مع متطلبات هذا البحث في جانب كبير منه، بحيث يتطلب الملاحظة الميدانية للكشف عن التغيرات والتغييرات التي طرأت على ثقافة المجتمع المدروس في جانب عادات الغذاء.

كما أننا استخدمنا منهج تحليل المضمون في أجزاء من الدراسة الميدانية، وخصصت لتحليل مضمون بعض الأمثال والحكم الشعبية بقصد إضفاء ودعم الحجج ونتائج البحث، باعتبار أن الأمثال والحكم خطاب يخرج من أفواه أفراد المجتمع، أي هي أقوال في صور إنشائية أو خبرية.

وهذا ما يتلاءم مع المنهج المستخدم وهو تحليل المحتوى أو ما يطلق عليه تحليل الخطاب الذي يعرف بأنه "أسلوب البحث العلمي الذي يهدف إلى الحصول على استدلالات عن طريق التعرف على الخصائص المميزة لأي نص من النصوص بطريقة موضوعية ومنهجية"[1].
فهذا التعريف يبين أن تحليل المضمون هو مجموعة من الإجراءات المقننة علميا وإجرائيا، والتي تستعمل في دراسة وتحليل محتوى مادة معينة من المواد التي تزخر بها العلوم الإنسانية، فهو إذن يهتم بمختلف الخطابات المختلفة، سواء كانت لغة مكتوبة أو لغة منطوقة أي شفهية أو صور أو برامج إذاعية أو تلفزيونية، وهذا بقصد تحديد الرسالة التي تسعى تلك الخطابات إلى تبليغها.

ومما لاشك فيه بأن قراءة أي خطاب من الخطابات حتى نتمكن من فهمه لا يكفي لمرة واحدة، وإنما لعدّة مرّات، وحتى يمكن لنا إعطاء الفهم الحقيقي يجب أن نقرأه بين السطور، أي معرفة وفهم المغزى الذي يرمي إليه الخطاب وماهية الرسالة التي يوجهها من خلال تلك الأقوال أو الرسومات، حتى أن دوركايم يذهب إلى أن "المعنى الواضح لأي نص من النصوص لا يأتي من القراءة الأولى والمباشرة له، وإنما لابد من تنظيم جديد للمادة المقروءة بكيفية تسمح بالوصول إلى المعنى المقصود"[2]. يوحي هذا الكلام أو الرأي بأنه ليس كل تحليل هو تحليل للمضمون، بل لابد من خطوات منظمة بطريقة منطقية بكيفية معينة تبعا لطبيعة الخطاب حتى نتوصل لنتائج علمية يؤخذ بها.

---

1 أحمد أوزي: **تحليل المضمون ومنهجية البحث**، الرباط، المغرب: الشركة المغربية للطباعة والنشر، 1993، ص 11.

2 المرجع نفسه، ص 14.

4 . أدوات جمع البيانات

يحتاج الباحث في علم الاجتماع وبالأخص في الدراسات الميدانية إلى جملة من الأدوات التّي يتم بواسطتها جمع البيانات، وذلك للحصول على المعطيات الميدانية التي تتم عن طريقها عملية التحليل والتفسير والوصول إلى النتائج المتوخاة من البحث.

وتحدد هذه الأدوات طبقا لطبيعة الموضوع والمشكلة محل الدراسة، وكذا تختار الأدوات تبعا لمجتمع الدراسة الميدانية، كما أن المنهج المتبع يسهل كثيرا اختيار أداة دون أخرى.
واختيار الأدوات المناسبة يلعب دورا هاما في الوصول إلى نتائج علمية يقينية، فإن أحسن الباحث اختيار الأدوات واستعملها بالطريقة الصحيحة والمعمول بها كانت النتائج تؤول إلى الدقة العلمية أكثر. أما إذا كانت لا تتوافق مع طبيعة الإشكالية محل الدراسة كانت النتائج ضعيفة وغير علمية، ولهذا يجب التفكير مليا في عملية اختيار الأدوات الملائمة للموضوع المدروس وكذا يجب استعمالها بالطريقة الصحيحة والمتفق عليها.

وهذه الدراسة قد استخدمت المستوى الوصفي، والمنهج الأنثروبولوجي وكذا منهج تحليل المضمون، فإنّه من المناسب جدا أن نختار الأدوات الآتية:

أ . الملاحظة

تعتبر الملاحظة أداة هامة جدا في بحوث علم الاجتماع، ولها من الأهمية في عملية جمع البيانات.
"ومن خلال الملاحظة قد يكون الباحث قابلا لإحراز معلومات من خلال سلوك الأشخاص والتي قد تكون مسموحة عند استعمال أدوات وتقنيات أخرى"[1]
وتعتبر الملاحظة أيضا "رؤية وفحص ظاهرة موضوع الدراسة مع الاستعانة بأساليب البحث الأخرى

التي تتلاءم مع طبيعة هذه الظاهرات ولا تنحصر في توجيه الحواس فقط ولكنها تنطوي على عمليات عقلية"[1]

1 Billy L. Turney and George P Robb: Op, cit, p 143

فالملاحظة العلمية إذن تكون مقصودة ومنظمة ويمكن أن تستعين بأجهزة ووسائل أخرى متى كان ذلك ضروريا كآلات التسجيل والتصوير وغير ذلك.

والملاحظة أنواع مختلفة مثل الملاحظة بالمشاركة، والملاحظة البسيطة، ونحن في هذه الدراسة اخترنا الملاحظة البسيطة و "هي وسيلة من وسائل جمع البيانات التي يلاحظ الباحث من خلالها بعض الظواهر المفترضة سلفا"[2]

وهذا النوع يساعدنا في ملاحظة جملة الأدوات والعناصر المختلفة للعادات الغذائية السّائدة في المنطقة محل الدراسة، إلى جانب عملية صنع بعض الأدوات والوسائل كلما سمحت الفرصة بذلك، كما تساعد هذه الأدوات في معرفة المواد والمصادر المادية التي تصنع منها تلك الأدوات.

كما تساعد الملاحظة البسيطة على مشاهدة استخدام الأداة في المهمة أو الوظيفة التي صنعت من أجلها.

كما استخدمت الملاحظة بالمشاركة التي تعمل على التعرف الحقيقي للسلوكيات، بحيث حرصنا على حضور العديد من الوجبات الغذائية مع عائلات مجتمع البحث، سواء الأساسية منها أو الثانوية، خصوصا جلسات الشّاي التي أمّدتني ببيانات معتبرة، فكلّما احتجت لتفسير أمر ما كانت جلسة الشاي بها ينقشع الضباب.

بـ . المقابلة

من الضروري جدا استخدام أداة المقابلة خصوصا في البحوث التي تتعلق بالجانب الثقافي لا سيما ما يتعلق بالتراث الثقافي.

فالمقابلة تساعد على جمع العديد من البيانات بجملة واحدة، خصوصا ما توصف به من مرونة أثناء الإجراء فهي تمنح الحرية للباحث بأن يتدخل في كل لحظة كلما تطلب ذلك.

وهي "عملية اجتماعية صرفة تحدث بين شخصين: الباحث أو المقابل الذي يستلم المعلومات ويجمعها ويصنفها، والمبحوث الذي يعطي المعلومات إلى الباحث بعد إجابته على الأسئلة الموجهة

---

1 إحسان محمد الحسن: مرجع سابق، ص 45.

2 المرجع نفسه، ص 107.

له من قبل المقابل"[1]. وبناء على هذا وبحسب طبيعة الدراسة فإننا اخترنا المقابلة الحرة والتي تستخدم عادة في البحوث التاريخية وكذا البحوث الأنثروبولوجية بصفة خاصة، والهدف منها الاطلاع على جوانب الموضوع الذي عادة ما يكون غامضا، بحيث يترك العنان للمبحوث حتى يعبر عن رأيه واتجاهاته ومشاعره تجاه موقف معين، وتطرح فيها الأسئلة بصفة مفتوحة وشاملة، وعادة ما يتدخل الباحث في طرح أسئلة تتخلل المقابلة وإجابة المبحوث، وهذه الأسئلة تكون بصفة جزئية.

واستخدمت هذه الأداة في جلب بيانات من طرف أشخاص لهم دراية بالثقافة الشعبية للمنطقة والمهتمين بالتراث الشعبي وكذا بعض الباحثين السابقين إلى جانب مقابلات متعددة مع أفراد من مجتمع البحث.

ج . المخبرون

إن الأبحاث التي تتناول الجانب الثقافي من الحياة الاجتماعية يفرض علينا استخدام هذه الأداة من أجل جمع البيانات، خصوصا إذا تعلق الأمر بالتي تحمل في طياتها دلالات رمزية، وهذه الدلالات لا يمكن الحصول عليها عن طريق الملاحظة، وخاصة إذا تعلق الأمر بالمعاني اللفظية التي لا يمكن فهمها إلا بالرجوع إلى ما يسمّى بالمخبرين، ويفيدوننا أيضا في تحليل وتفسير معاني الثقافة كلما تطلب منا الأمر ذلك.

ومن شروط استخدام هذه الأداة، فإنّ "الباحث عندما يوجه أسئلة إلى المخبر لا يخاطبه بصفته الشخصية، وإنما كممثل لجماعة معينة من الناس الذين يودّ التعرف على جوانب معينة من حياتهم وثقافتهم"[2].

أي أن المخبر يعبّر عن الجماعة لا عن نفسه.

---

1 إحسان محمد الحسن: المرجع السابق، ص 93.

2 فتيحة محمد ابراهيم وسلوى عبد الحميد الخطيب: **مدخل إلى دراسة الأنثروبولوجيا النفسية**، الرياض، المملكة العربية السعودية: دار المريخ، 1995 ، ص 153.

لقد قمنا بالاتصال بعدد من المخبرين الذين توثقت بهم الصلة، والذين ثقنا في قدراتهم وخبراتهم في هذا المجال، وكان عددهم 20 مخبرا من مختلف القرى والأحياء من كلا الجنسين، كما ركزنا على من تتوفر فيهم قوّة الذاكرة والرغبة في التعاون، وكان التركيز على كبار السن المعروفين في المنطقة. وباعتبارنا من سكان المنطقة فلم يكلفنا الوصول إلى المخبرين العناء الكبير، وقد منحوني الثقة من خلال اتصالنا بهم عن طريق العلاقات الشخصية.

وتجدر الإشارة هنا إلى أننا وجدنا مساعدة كبيرة من المخبرين بشكل خاص في إتمام الدراسة الميدانية، فقد وفروا لنا كل ما نحتاجه خلال البحث، وساعدونا في الاتصال بكل شخص يمكن أن يفيدنا ببعض البيانات، ناهيك عن الكرم عند استضافتنا، وكذا الاحترام الفائق لنا.

د . الاستبيان

يعتبر الاستبيان أو ما يطلق عليه الإستبار أحد أدوات جمع البيانات المستخدمة في البحوث الاجتماعية، وهو عبارة علة صحيفة مشكلة من أسئلة يطلب من المبحوث الإجابة عليها، وهذه الأسئلة يجب أن تكون بلغة مفهومة ومختصرة، ويجيب عليها المبحوث بكل حرية، أي بدون إيعاز من الباحث.

وهذه الأداة كان استعمالها بصفة جزئية اهتمت بكشف بعض الملابسات المتعلّقة بجزئيات جوانب معينة من العادات الاجتماعية الغذائية لمجتمع البحث، وهذا كمساعدة لجملة الأدوات الأخرى التي كانت أساسية في بحثنا، كالملاحظة والمخبرين، وكان استخدام الإستبار كضرورة بحثية حتى نأخذ الطابع العام للغذاء في الوقت الحالي بطريقة رقمية.

5 . العينة

يمكن أن تكون العينة مسحا شاملا لمجتمع البحث إذا كان عدد المفردات صغيرا ويسهل التعامل مع جميع أفراد مجتمع البحث، وهذا ما يطلق عليه المسح الشامل.
ويمكن أن تكون العينة عبارة على اختيار لجزء من مجتمع البحث بحيث يكون التمثيل، وتعطي نتائج قابلة للتعميم بطرق متفق عليها من الناحية العلمية، ولها عدة أنواع تنقسم في مجملها إلى العينة العشوائية والثانية يطلق عليها العينة غير العشوائية.

بالنسبة لتطبيق أداة الاستمارة فإننا اخترنا العينة بالحصة، الوحدة أو مفردة مجتمع البحث هيّ العائلة أو الأسرة التي تقطن تحت سقف واحد، والتجأنا إلى هذا النوع من العينة نظرا لاحتواء البلدية على عدد من القرى وهي ست. وكل قرية لها نوع كبير من التجانس بين العائلات، فالغذاء متقارب جدا واللباس نفسه وحتى العرش نفسه أيضا، ونظرا للاختلاف البسيط بين هذه القرى من حيث نوعية النشاط الاقتصادي ودرجة الوعي، فإننا أخذنا عينة من كل قرية لأخذ الآراء المختلفة من جميع مفردات مجتمع البحث.

وبالنسبة لاعتماد العائلة مفردة البحث لأن طبيعة الدراسة تتعامل مع عادات الغذاء الممارس في هذه المنطقة وعلاقته بالبيئة، ونحن نعرف أن الغذاء يكون نفسه لجميع أفراد العائلة إلاّ في حالات خاصة جدا.
وبالتالي كان اختيارنا للعينة الحصصية مناسبا لهذا البحث وكان تقسيم الحصص كالآتي:
. وادي العلندة الجنوبي عدد العائلات 330 حصة العينة منها 38 عائلة.
. وادي العلندة الشمالي عدد العائلات 205 حصة العينة منها 23 عائلة.
. اميه الغزالة عدد العائلات 60 حصة العينة منها 7 عائلات.
. الدباديب عدد العائلات 40 حصة العينة منها 5 عائلات.
. شقامط عدد العائلات 31 حصة العينة منها 4 عائلات.
. الخبنة الصفراء عدد العائلات 29 حصة العينة منها 3 عائلات.

فمجموع العائلات على كامل تراب البلدية هو 695. فإذا أخذنا نسبة العينة 11.5% فإن مفردات العينة يكون 80 عائلة أو أسرة.

و في هذا البحث فإننا سنتعامل مع منهج تحليل المضمون لثقافة الأمثال والحكم الشعبية، فإن العينة هنا تكون بصفة تختلف عن العينة المعروفة في المجالات الأخرى كالأفراد والأشخاص وغير ذلك.

لقد وقع اختيارنا على كتاب خاص بهذا الغرض وقد جمعت فيه عدد من الأمثال والحكم الشعبية قدرت بـ 1500 وحدة، وبالتالي فالمساحة هنا تتمثل في هذا العدد الذي كل واحد منها لا يتعدى سطرا واحدا، وهذا الكتاب من جمع وإعداد الأستاذ بن علي محمد الصّالح (أنظر الملاحق)، وهو مهتم بالثقافة الشعبية لمنطقة وادي سوف.

فمن ناحية فئة الشكل فقد اخترنا الوحدة هي المثل أو الحكمة وعددها كان 1500 وحدة، ونعني بذلك كيف قيل الخطاب؟ "فقد تضفي الجوانب الشكلية أهمية كبرى على الموضوع، وتتنوع هذه الجوانب الشكلية، وتتراوح من التوقيت، أو الترتيب، والأولويات إلى استخدام خطوط وأنماط معينة"[1]

وبالنسبة لفئات التحليل فقد قسمناها تبعا لعناصر البيئة الجغرافية: حيوانات، ونباتات.

وفيما يخص وحدة الموضوع فقد قسمنا هذه الفئات إلى: . الحيوانات: تتمثل في حيوانات أليفة وأخرى برية وأخرى الطيور ثم الحشرات والزواحف.

أما ما يتعلق بالنباتات، فكانت فئات الموضوع تتمثل في نباتات برية وأخرى غير برية.

ولقد قمنا بتفصيل كل فئة موضوع إلى الأنواع التي تدخل ضمن كل فئة، فمثلا ما يتعلق بفئة الحيوانات الأليفة فقد قسمناها إلى الجمال والماشية والحمير والبغال والأحصنة. وهكذا فكل فئة جعلنا لها تقسيما يتطابق مع ما ورد في المساحة الشكلية المدروسة.

1 بلقاسم سلاطنية، وحسّان الجيلاني: **أسس المناهج الاجتماعية**، ط1، القاهرة، مصر: دار الفجر للنشر والتوزيع، 2012، ص 60.

7 . أبعاد التحليل والتفسير

أ . البعد البيئي

في كل خطوة من هذا البحث حاولنا ربط البعد البيئي سواء الجغرافي أو الاجتماعي في تفسير وتحليل المعطيات النظرية أو الميدانية، وحاولنا قدر الإمكان تفسير البيانات المتعلّقة بالغذاء بالرجوع إلى البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية التي يعيش في كنفها مجتمع البحث.

ب . البعد التاريخي

لقد أملت علينا ضرورة البحث أن نرجع إلى العادات الاجتماعية الغذائية التي كانت سائدة في القديم، لأنّ موضوع التغيير يوحي بالتحول من وضع أو حال معين إلى وضع جديد، وهذا يتطلب منا الرجوع إلى كتب التاريخ الخاصة بالمنطقة، كما يجب الرجوع إلى ذاكرة المجتمع.

ج . البعد الجيلي والجنسي

رأينا أنّه من الضروري أن المقابلات مع المخبرين تتطلب منا تنويع الأجيال والجنس، مقابلات مع رجال وأخرى مع نساء من مختلف الأعمار بحسب ضرورة المعلومة التي نحللها.

د . البعد التعليمي

رأينا افتراضا أن التعليم يمكن أن يلعب دورا في هذا البحث، وبالتالي فالتعرض للمستوى التعليمي مهم لفهم التغييرات التي حدثت على مستوى مائدة الطعام.

هـ . البعد المهني

نحن نعرف أن المهنة تساهم بشكل كبير في ثقافة الفرد وشخصيته، وبالتالي راعينا هذا البعد الذي من شأنه أن يلبس التحليل والتفسير طابعا مميزا.

الفصـل الثانـي

بيئـة سوف وثقافة سكانهـــا

أولا: البيئة

1- مفهوم البيئة وأقسامها

2- البيئة الصحراوية

3- صحراء وادي سوف

4- الخصائص الجغرافية لصحراء وادي سوف

ثانيا: الثقافة

1- ماهية الثقافة

2- لمحة تاريخية عن سكان وادي سوف

3- الثقافة والبيئة الثقافية

4 . الثقافة المادية

5 . الثقافة المعنوية

أولا: البيئة

1- مفهوم البيئة وأقسامها

أ- مفهوم البيئة

اختلفت المفاهيم المتعلقة بهذا المصطلح تبعا لاختلاف المجالات العلمية والمعرفية، فكل اختصاص علمي يعرّف البيئة من زاوية معينة حسب الإجراء الذي يتناوله. وعلى العموم نستطيع القول أنّ كلمة البيئة تطلق في معظم الأحيان عند الكلام عن "حالة الاستقرار والتوازن"[1]، يعني أنّه ارتبط مصطلح التوازن بالبيئة، فأصبحتا كلمتين متلازمتين نظراً لما حصل من اختلال في النظام البيئي سيما في الآونة الأخيرة، حيث كثرت المشكلات البيئية من تلوث واستنزاف للموارد الطبيعية وكذا ما تعلق بمشكلات البيئة الاجتماعية.

فمن الناحية اللغوية، البيئة هي: "المكان أو المحيط أو المنزل المستقر فيه"[2]. وهذا باتفاق معاجم اللغة العربية.

ومن الناحية الاصطلاحية، فقد عرّفها مؤتمر استوكهولم 1972 بأنّها: "كل شيء يحيط بالإنسان"[3]. ويعني أنّ الإنسان يعيش في وسط يتكوّن من كائنات مختلفة سواء حيوانية أو نباتية، وكذا الأرض وما تجود به من ثروات مختلفة باطنية أو سطحية، إلى جانب الهواء وطبيعة المناخ وما يدركه الإنسان من كواكب ونجوم وغير ذلك ممّا تتكون منه الطبيعة.

وقد عرّفت البيئة في دائرة المعارف الجغرافية الطبيعية بأنّها "المحيط الذي يعيش فيه الإنسان ويقوم فيه بعملية الإنتاج، ويحتوي على مواد حيّة وغير حيّة، وتتحكم فيه العوامل الاجتماعية والجغرافية. وهو يتكون من المحيط الطبيعي والمحيط الاجتماعي"[4]. وما دمنا الآن نتعامل في البحث مع البيئة

---

1 حسين عبد الحميد أحمد رشوان: مرجع سابق، ص 3.

2 المرجع نفسه، ص 3

3 المرجع نفسه، ص 7.

4 المرجع نفسه، ص 7.

الطبيعية، فإنّ هذا التعريف المسبوغ بصبغة جغرافية أنسب بالأخذ به، بحيث يعتبر التعريف أن البيئة هي كل الكائنات.

وهذه الكائنات سواء الحيّة من حيوانات ونباتات، أو الوسط الجغرافي المتكون من تربة ومياه ومناخ وغير ذلك.

وقد يفهم من البيئة أنها تشير إلى الوسط الطبيعي فقط، و لكن في الحقيقة هي تلك الظروف والأحوال التي ينمو فيها الكائن وتتغير صفاته نتيجة لتلك الظروف والتغيرات.

وعلى هذا الأساس يجب علينا توضيح أقسام البيئة حتى ينجلي اللبس عن هذا المصطلح.

ب- أقسام البيئة

ـ البيئة الطبيعية

من طبيعة المعرفة الإنسانية أنها متطورة وتذهب نحو الدقة عن طريق التراكم المستمر سواء ما يتعلق بالجوانب النظرية أو ما استخلصته الدراسات الميدانية، فمفهوم البيئة أخذ في التطور من مفهوم إلى ما هو أدق منه نتيجة لتوسع رقعة البحث العلمي، حيث وصل المفهوم إلى أنّ البيئة هي كلّ ما يحيط بالإنسان أو الوسط الذي يعيش فيه.

فهي إذن:"الإطار الذي يعيش فيه الإنسان ويحصل منه على مقومات حياته من غذاء ودواء ومأوى ويمارس فيه علاقاته مع أقرانه من بني الإنسان"[1]. فالبيئة من خلال هذا التعريف هي الحيز الذي يمد للإنسان أسباب العيش على الأرض بمختلف الأشياء التي تحويها الطبيعة في عمومها.

والبيئة الطبيعية تتعلق بما لا دخل للإنسان فيه من حيث التكوين أو غير ذلك، وهي تتمثل في "كل ما يحيط بالإنسان من ظواهر حيّة وغير حيّة"[2]. ويتعلق هذا الكلام بمجموعة التضاريس والكائنات الحية من نباتات وحيوانات إلى جانب التربة والمناخ. وهذه العناصر تختلف في طبيعتها وخصائصها وتكوينها ونظمها من بيئة إلى أخرى، حسب خصائص مكونات كل حيز، والمعطيات المتاحة، وهذا

1 عبد المجيد عمر النجار: مرجع سابق، ص 19.

2 راتب السعود: مرجع سابق، ص 18.

النوع أي البيئة الطبيعية سوف نتكلم عنه بالتفصيل عند الكلام عن بيئة وادي سوف الموصوفة بأنها صحراوية.

فمما لاشك فيه أنه مادامت الحياة مستمرة في بيئة سوف، فإنّه يوجد هناك نظام بيئي يأخذ نوعا من التوازن نتيجة للتفاعل المستمر بين العناصر البيئية المشكلة للوسط .
فالنظام البيئي "هو عبارة عن وحدة تنظيمية في حيز معين، تحتوي عناصر حيّة وغير حيّة تتفاعل مع بعضها وتؤدي إلى التبادل للمواد بين عناصرها الحيّة وغير حيّة"[1].

فالنظام البيئي حسب هذا التعريف يعبر عن الحياة بأنّها في تنسيق متكامل في مجال جغرافي معين، وهذا المجال يتكوّن من عناصر حيّة مثل الحيوانات، وعناصر أخرى تعيش عليها هذه الكائنات أو تحتها هي العناصر غير الحيّة، تمتزج في مجموعها عن طريق ما يسمّى بالتفاعل أو التبادل أو الانتشار.

- البيئة المشيّدة

كما هو معلوم، أن كل عناصر البيئة الحيّة تعيش في وسط جغرافي متوازن، ولكلّ منطقة حيواناتها ونباتاتها ولها نوع من البكتيريا التي تتلاءم مع طبيعتها، فالكائن الحيّ الوحيد الذي يغير ويحاول أن يطوّع الطبيعة لصالحه حتّى يتكيّف معها هوّ الإنسان. فهو الكائن الذي يملك التفكير العقلي ويطمح باستمرار إلى الحياة الأكثر أريحية ورفاهية، وبالتالي بحث عن تلك الموارد الطبيعية المختلفة التي توجد على شكل خامات، واستخلص منها مجموعة من العناصر و استغلّها في حياته اليومية بقصد التغلب عن صعوبة الحياة، وبالتالي تتحقق الرفاهية، فاستغل الأرض وما تجود به من تربة التي تحوي معادن مختلفة، واستغل الماء، واستغل الشمس وغير ذلك من عناصر البيئة الطبيعية، فحوّل الفيافي إلى مزارع، وطوّرها واستخرج المحروقات ومهّد بها الطرقات، واكتشف تحويل الحديد فصنع السكك الحديدية وشيّد به البناء والأبراج، وهذه الانجازات البشرية من مباني ومصانع ومزارع وغيرها كلّها من تطويع الإنسان، وهي ما يسمّى بالبيئة المشيّدة.

1 أيمن سليمان مزاهرة وعلي فالح الشوابكة: **البيئة والمجتمع**، عمان، الأردن: دار الشروق للنشر والتوزيع، 2003، ص 41.

فتعرّف البيئة المشيّدة "كلّ ما أضافه الإنسان من عناصر ومعطيات بيئية تمثل نتاج تفاعله واستغلاله لموارد بيئته الطبيعية"[1].

يعني هذا التعريف أن البيئة المشيّدة هو المظهر المادي الناتج عن تكيّف وتفاعل الإنسان مع وسطه الطبيعي الذي يعيش فيه، وتبعا لنوع البيئة الاجتماعية السّائدة في ذلك المجتمع.

فطبيعة الإنسان من حيث البحث عن حياة أفضل، نجده يسعى مع أقرانه من بني البشر باستمرار إلى استغلال الثروات الطبيعية المتاحة وتطويعها لرفاهية المجتمع، فكلما زادت التقنيات تقدما، كلمّا كانت البيئة المشيّدة أكثر تقدما. وكلّما قلّت التقنيات، نجد هزالة البيئة المشيّدة، وبالتالي نميز بين بيئات متقدمة وبيئات نامية وأخرى متخلفة.

- البيئة الاجتماعية

الكلام عن البيئة الاجتماعية لم يكن وليد العصر الحديث، بل كان الكلام عن ذلك منذ زمن بعيد، ولكن بصورة كلية وشاملة ولم ترد بهذا المصطلح.

فعند الكلام عن المجتمع أو السكّان، يرتبط هذا بالثقافة أو الحياة الاجتماعية أو الحياة السياسية وشؤون الحكم وغير ذلك، وأخيرا دخل هذا المفهوم عندما درس الباحثون في مجال الصّحة مثلا عند ربطهم لبعض الأمراض بالوسط الجغرافي، وكذا الوسط الاجتماعي أي طبيعة التنشئة الاجتماعية، والنظم الاجتماعية السّائدة وكذا القيم والعادات وأساليب الضبط الاجتماعي، أي ربط بعض الأمراض بالثقافة.

وقد أسهم أيضا علماء الاجتماع في شأن العلاقة بين الظروف البيئية وطبيعة الأسرة وتلك الثقافة السائدة إلى جانب الفقر وطبيعة الأحياء السكنية، وتكلّم أيضا علماء التربية عن البيئة المدرسية، وهكذا كل علم وله زاوية أسهمت بشكل أو بآخر في تعزيز مصطلح البيئة الاجتماعية.

فالبيئة الاجتماعية هي: "التي يشترك الإنسان فيها مع أقرانه من بني البشر، وتعبر عن ربطه وقبوله بين أعضاء جنسه"[2].

---

1 حسن عبد الحميد أحمد رشوان: مرجع سابق، ص 13.

2 المرجع نفسه، ص 12.

وهذا ما يدل على أن البيئة الاجتماعية هي حصيلة التفاعل الذي ينشأ بين أفراد المجتمع مكونا سلوكيات معينة وعادات ورموزا مختلفة و من إشارات ولغة وغير ذلك.

2. البيئة الصحراوية

أولا وقبل كل شيْ، البيئة الصحراوية هي أحد أنواع البيئات الطبيعية مثل البيئة الجبلية أو البيئة الساحلية. فهذا الكلام يقودنا إلى التعريف بخصائص الصحراء ومتى نقول أنّ هذه الرقعة الجغرافية صحراوية ؟.

– اقترن مفهوم الصحراء بصعوبة العيش فيها نظرا لصعوبة المناخ كالحرّ الشديد وندرة المياه، فالعيش في هذا النوع من الأرض صعب جدا لقلة الغذاء وقحالة الأرض.

فالصّحراء نتيجة لندرة الأمطار و قلّة الغطاء النباتي، وبالتالي فالصّحراء عبارة على أرض قاحلة تكاد تكون الحياة فيها مستحيلة وحتّى إن كانت هناك حياة فإنّ طبيعة الثقافة تكون من نوعٍ خاص جدا.

فهناك من سكن الصّحراء ولكن بعدد قليل، فالكثافة السكّانية فيها قليلة جدا نظرا لشظف العيش فيها.

وقد قسّم الجغرافيون الكرة الأرضية إلى مجموعة من الأقاليم، والصّحراء هي ضمن ما يسمّى بالأقاليم الجافّة، حيث تتميّز بندرة الماء والجفاف، ماعدا القليل الذي يمكن أن يحصل في البعض منها، كما تعرف بقلة النباتات أو انعدامها في بعض الصّحاري، وتتميز تضاريسها بالرّمال بمختلف الألوان كالحمراء والسوداء والصفراء، وتتميز الصّحراء غير الرّملية، بقشرة صخرية مثل الصخور السّوداء كما هو في الجنوب الجزائري بمنطقة "تمنراست"، وهناك صخور بنية وأخرى حمراء وغير ذلك، وهناك صحراء جليدية مثل صحراء سيبيريا بحيث تتميز باللّون الأبيض.

ويقول الجغرافيون بأنّ الأراضي الصّحراوية هي ما يعادل ربع مساحة الكرة الأرضية باعتبارها تتشكل من مناطق جبلية، و سهلية، و غيرها من المناطق المتنوعة الترب والألوان، حيث تعتبر الصّحاري في معظمها مناطق جافة، أو شبه جافة، أو باردة.

وعلى هذا الأساس فإنّ الحياة في كلّ أنواع الصّحاري التي ذكرت تكون صعبة وليس من السّهل التأقلم والتكيّف مع طبيعتها القاسية والمجتمعات التّي تسكنها تكيّفت معها بصعوبة، وسكنتها لأسباب تكلّم عنها علماء الجغرافيا والتّاريخ في مواضع مختلفة من أبحاثهم.

ومن بين المجتمعات التّي سكنت الصّحراء، بعض المجتمعات العربية، حيث ارتبطت حياة العرب منذ تواجدهم بها، وذلك ما نعثر عليه في حكمهم المختلفة، و قصائدهم الشعرية سواء المنتظمة أو الشعبية، وقد رسمت سلوكياتهم، وثقافتهم ارتبطت بها، فتغنّى العرب بالرّمال، ونجد الرعاة يتغنّون فيها و بها، نتيجة للسّكينة التّي تختصّ بها، وبالتالي فالصّحراء مسرحا للإبداع الفنّي وكذلك العلمي.

ولعلّه من أكبر الصّحاري هي الصّحراء الكبرى، التّي تتربع في معظمها على مساحة كبيرة من شمال إفريقيا، وهي أكبر الصّحاري الحارّة في العالم بمساحة تفوق الـ 9 ملايين كلم مربع، وهي منطقة قاحلة مقفرّة تغطي جزءا كبيرا من وسط إفريقيا وشمالها، وتكاد تشكل حاجزا طبيعيا بين شمال القارة وجنوبها. وللجزائر من هذه الصّحراء جزءا معتبرا فهيّ تغطّي أغلب الأراضي الجزائرية، بداية من جبال الأطلس الصّحراوي إلى جنوب الهقار حتّى دولتا النيجر ومالي جنوبا، وتتنوّع الصّحراء الجزائرية من العرق والحمادة والرّق، وتوجد من بينها مناطق حجرية مثل ما هو الحال في منطقة "الهقار".

- أقسام الأقاليم الصحراوية الجزائرية

لقد قسّمت الصّحراء بالجزائر حسب علماء الجغرافيا إلى خمسة أقسام رئيسة [1]

- **المنخفض الشمالي الشرقي** : مثل شط" ملغيغ"*، الذي يعتبر أخفض منطقة في الجزائر.
- **الحمادات** : وهي هضاب متوسطة الارتفاع مثل هضبة شمال "عين صالح"**
- **العرق** : ويحتل أكبر مساحة من الصّحراء الجزائرية، تتمثل في كثبان رملية، مثل العرق الشرقي الكبير، والعرق الغربي الكبير.
- **الرّق** : وهي الأراضي الشّاسعة المستوية السّطح مغطاة بالرّمال الخشنة والحصباء.
- **الكتل الجبلية** : مثل جبل"الهقّار" بأقصى الجنوب من الصّحراء الجزائرية.

---

1 محمد الهادي لعروق و سمير بوريمة: **أطلس الجزائر و العالم**، عين مليلة، الجزائر: دار الهدى، 1998، ص ص 12 ، 14.

* يقع شط ملغيغ في الجهة الشمالية نت وادي سوف، وبالتحديد بين الوادي وبسكرة.

** هي منطقة تقع في وسط الصحراء الجزائرية تابعة إداريا لولاية تمنراست.

وفي مجملها تقدّر الصّحراء الجزائرية بمساحة إجمالية تقارب 2 مليون كلم مربع أي ما يعادل 84% من مساحة الجزائر.

وفي بعض المناطق من الصّحراء الجزائرية، تتشكّل الأراضي شبه الخصبة، بحيث تحتوي على بعض النباتات البرية التي يستعملها الإنسان في العديد من الأغراض، وهناك بعض الواحات المتكونة من النّخيل البعلية والمسقية لوجود عيون وخزانات من المياه الجوفية، بحيث تحتوي "وادي سوف" على نسبة هائلة جدا من المياه الجوفية، وهي قريبة من السطح في حين هناك مناطق فيها يكون الماء على السّطح، ويمكن أن تكون هذه المعطيات سببا لوجود السكّان هناك، فقد غيّر الصّحراوي بوادي سوف وجه المنطقة، بنى وشيّد المساكن، وزرع النخيل البعلية ثم المسقية، بحيث تعتبر النخلة بوادي سوف أكبر اكتشاف في تاريخ المنطقة، وتعتبر ظاهرة "الغوط"* من المعجزات، نظرا للعبقرية المعمول بها، ففيه أستخدمت العقول الذكية، والفراسة النبيهة، التي تدخل ضمن خصائص المجتمع"السوفي".

* الغوط هو مكان منخفض به واحة من النخيل المزروع على سطح المياه الجوفية.

3- صحراء وادي سوف

تقع صحراء وادي سوف بإقليم العرق الشرقي الكبير، الذي يوجد في الجزء الشمالي الشرقي من خريطة الدولة الجزائرية، وهذا الجزء من العرق له حدود من الشرق متمثل في الدولة التونسية ومن الجنوب الدولة اللّيبية .وتبلغ مساحة الصّحراء بوادي سوف "حوالي 82 ألف كلم مربع "[1] تحدّها من الشّمال منطقتي "بسكرة" و"وادي ريغ"، ومن الجنوب الحدود الليبية وجزء من أراضي ولاية ورقلة، ومن الغرب أراضي ولاية "ورقلة"، أما شرقا فهي متاخمة للحدود التونسية، كما "يبلغ أقصى انخفاض على سطح البحر 25 مترا في شط ملغيغ"[2]

وكنتيجة للتّجاور خصوصا مع الحدود التونسية، فإنّه ساعد على ربط علاقات اجتماعية مثل الزواج، ممّا عمل على انتشار الثقافة بين البيئتين، وهذا الانتشار خلق ثقافة ممتزجة، جرّاء احتكاك البيئة الداخلية والبيئة الخارجية، بحيث تأثرت العادات بين الجارين فيما يتعلق بالحياة اليومية. وكذا المناسبات الموسمية، مثل العادات الاجتماعية المتعلقة بالغذاء واللّباس والتّداوي وجميع الأفراح والمناسبات، ونجد حتّى الفن يكاد يكون مشتركا، و اللّهجة متشابهة إلى حدّ كبير خصوصا بين وادي سوف والجنوب التونسي.

وبالتحديد الأدق، تقع صحراء وادي سوف "بين خطي عرض 31°-34° من الجنوب إلى الشمال، وبين خطي طول 6°-8° وتبلغ المسافة من اسطيل في الشمال إلى غدامس(ليبيا) جنوبا حوالي 620 كلم، ومن وادي ريغ بالجهة الغربية إلى الحدود التونسية بالشرق حوالي 160 كلم .... والإقليم محاط طبيعيا بثلاثة شطوط وهي : - شط وادي ريغ بالغرب – شط مروانة وملغيغ.- شط الغرسة من الشمال. – شط الجريد من الجهة الشرقية "[3].

---

1 ثريا التجاني: **دراسة اجتماعية لغوية للقصة الشعبية في منطقة الجنوب الجزائري**، وادي سوف نموذجا، الجزائر: دار هومة، 1998، ص 6.

2 Ahmed Nadjah: **Le Souf de oasis**, Alger: Editionla maison de livres , 1971, P 10.

3 علي غنابزية : **مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن التاسع عشر**، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، 2000. 2001، ص 11، مذكرة غير منشورة.

وهذه الحدود من خلال البحث لا تأخذ بالمقاربة الإدارية، بل نعتمد مجموعة من المحددات سواء تعلّق الأمر بالتّضاريس وأصل السكّان وطبائعهم وطريقة عيشهم، بالإضافة إلى اللّهجة المنطوقة في هذه الربوع مع ما حصل لأهل المنطقة، ومن التّاريخ سواء الحروب أو المجاعة أو الأمراض في الآونة الأخيرة أو سلفا.

– أمّا ما يتعلق باسم "وادي سوف" فقد اختلفت الآراء حول أصل هذه التسمية ومعناها. فقد تناولت هذه المشكلة المقالات التي كتبت عنها من المحليين وحتّى الأجانب، "يقال أنّه في القديم كان يجري بها واد من الماء، ومع مرور الزمن جف ماء الوادي، فذهب الرّسم وبقي الاسم. ونظرا لعدم وجود الغابات والأشجار بالوادي فقد غطّته الرّمال منذ القديم، حيث أتته من جهة الجنوب ومن الصّحراء الجزائرية الكبرى، ومازالت تتزايد إلى وقتنا هذا، وتتشكل هذه الرّمال في شكل كثبان يطلق عليها الأهالي كلمة (السّيوف)"[1].

وهناك من ذهب بالقول إلى أنّ كلمة سوف نسبة للتصوّف، بحيث كانت مأوى لأصحاب التعبّد "كانت محلا لأهل الصّوفة، لأنّ كلّ عابد من أهل التّصوف ينقطع للعبادة فيها"[2]

"وأنّ أهلها الأوّلين كانوا يلبسون الصّوف من أغنامهم، لعدم وجود غيره من المنسوجات عندهم"[3].

وهناك من ذهب إلى الحكمة ومعناها، وكذا العلم، فسميّت سوف نسبة "لرجل عليم أي صاحب حكمة يسمّى ذا السّوف"[4] أي هناك كان يعيش رجلا في هذه المنطقة اسمه "ذا السّوف" حيث كان له باع كبير من العلم والحكمة، ولمّا استقر فيها وعمّرت المنطقة بالسّكان ثبّتوا لها اسم هذا الرجل.

وهناك روايات أخرى تروي جملة من الاحتمالات التّي أدّت إلى تسميتها بهذا الاسم، فهناك من قال أنّ "الأساطير القديمة تطلق الكلمة على نهر كان يجري بالمنطقة من الشمال إلى الجنوب، ويدعى (وادي أزوف) Oued Azou : أي النّهر الرقراق الذي كان يجري بالمنطقة، والذي غار في أعماق

---

1 حسان الجيلاني: **من التراث الغنائي بوادي سوف**، باتنة، الجزائر: دار الشهاب، ص 18.

2 إبراهيم بن محمد الساسي العوامر: **الصروف في تاريخ الصحراء و سوف**، تونس: الدار التونسية للنشر، 1977، ص 38.

3 المرجع نفسه، ص 38.

4 المرجع نفسه، ص 38.

الأرض ولم يبق إلاّ مكانه. فتغيّر اسمه إلى "وادي سوف" وهذه الكلمة تتطابق إلى حدّ بعيد مع اللهجة "التارقية" في Le souf Mellon وتعني النّهر الأبيض"[1].

وفي البحث المتعلّق ميدانه بالصّحراء بوادي سوف نرجح فيه التأويل الأخير بأنّ وادي سوف نسبه إلى واد كان يجري بها وغمرت مياهه وأصبحت جوفية وطغت الرّمال فيما بعد من فوق تلك المياه، وربما ذلك الخزان الضخم من المياه لدليل على ذلك.

و ما دمنا نتكلّم عن منطقة محددة جغرافيا وهيّ "وادي سوف" يجب علينا التكلم على خصائص البيئة والعناصر المشكّلة لها بنوع من التفصيل، نظرا لأن هذه البيئة بعناصرها رسمت أجزاء من الحياة البشرية لأهالي المنطقة.

1 Andre Voisan : **Le Souf Manographie**, Paris, dunemonuscrit, 1985, p 03.

4- الخصائص الجغرافية لصحراء وادي سوف

نظرا لتدخل عناصر البيئة الطبيعية في سلوك الإنسان و ثقافة المجتمعات كما تكلّمت عنه العديد من النظريات القديمة والحديثة، مثل النظرية الحتمية لابن خلدون، وكذا نظرية "مكيافيلي" في السياسة وغيرهما من الباحثين والمنظرين، فإنّه من الضروري عند البحث في مجال الثقافة سواء المادية أو المعنوية التكلّم عن عناصر و أجزاء البيئة الطبيعية التّي ستجري على المجتمع الذي يعيش فيها الدراسة الميدانية، فهذا يقودنا في البداية إلى الكلام عن خصائص الصّحراء بوادي سوف بشيء من التفصيل.

أ- العناصر غير الحيّة بصحراء وادي سوف

من المعروف أنّ البيئة الطبيعية تتكون من عناصر حيّة وأخرى غير حيّة، فالعناصر غير الحيّة تتمثل في الأرض والمناخ والأمطار والمياه.

- القشرة الأرضية

تعتبر التربة المنبت الأساسي للثروة النباتية وملجأ للحيوانات البريّة وسكنا للإنسان الذي يعيش عليها، وكذا موردا للعيش من مأكل ومأوى وغيرها من الحاجيات الحياتية اليومية لاستمرار الحياة البشرية.
فالأرض . التربة . هي العنصر البيئي الجغرافي الأوّل من حيث الاهتمام، وهي تختلف من منطقة إلى أخرى، فهناك الأراضي الصّخرية، الرّملية والأراضي الطّينية الخصبة والفقيرة.
وهناك الأراضي الجبلية وكل ذلك بمختلف الألوان والأشكال، و تختلف حتّى في التّركيبة الفيزيائية والكيميائية تبعا لكلّ نوع من الأراضي.

والقشرة الأرضية بوادي سوف عبارة على بساط من الرّمال التي فتّتها المياه بطول الزمن، وهي ناعمة سهلة التّطاير ولو بفعل رياح خفيفة، إذ عند هبوب الرّياح يرتدي السّوفي واقيا لعينيه حتّى يمنع دخول الرّمال إليها، ويغطّي شعره بعمامة أو أي لباس آخر للتقليل من تأثير الرّمال على رأسه، وكذلك لحماية الرأس من تأثير أشعة الشمس وغالبا ما يكون لونها أبيض عاكسا لأشعة الشمس.

ولون رمال وادي سوف يميل إلى الصفرة الذهبية في أغلبها، مع وجود بعض الشطوط القليلة، حيث تتخلل هذه الرمال أنواع أخرى، فهناك البيضاء والحمراء والسّوداء، و لكن في الغالب تكون تحت السّطح فالأبيض منها إذا غلب عليه البرد تتكوّم على شكل حجارة شبه هشّة مكوّنة ما يدعى بـ"التَّافْزَة"* ودخلت هذه المّادة في ثقافة المجتمع، بحيث استخدمت كمادة بناء للمساكن ومختلف المنشآت، بحيث تتلاءم تلك المساكن المبنية بمادة التافزة بعد استخراجها وتحويل البعض منها مع طبيعة المناخ السّائد في المنطقة قبل أن تظهر التكنولوجيا الحديث من وسائل كهرومنزلية مثل المكيفات الهوائية وكذا وسائل التدفئة الحديثة.

وهناك نوع آخر يأخذ اللّون البنيّ، والذي يميل إلى الاحمرار ويسمّى "اللُّوسْ"، ويتميّز بالصّلابة نوعا ما، ومنه المتفرّد وآخر متشعّب و متشابك، ويستعمل في البناء سابقا وفي أغراض أخرى حديثا كسدود للمزارع وصد الرّياح، وله أغراض تجميلية كوضعه في المتاحف وتحفا في البيوت حتّى أنّه يطلق عليه وردة الرّمال.

وتستخدم هذه الرّمال بمختلف أنواعها وأشكالها وألوانها في الحياة الاقتصادية، مثل الزراعة وخصوصا النخيل، وأخيرا الفلاحة الموسمية كزراعة البطاطا، وأنواع مختلفة من الخضروات والأشجار، واستخدمت في التّداوي وفراشا للرّاحة والنوم والسّهرات المسائية المتنوعة جراء ما توصف به هذه الرّمال بالنّقاوة والطّهارة، فعليها تقام السّهرات عليها يكون السّمر وعليها يلعب الأطفال، لا يهم الحذاء أو النعل.

صورة تبين طبيعة الرمال بوادي سوف وهي عبارة على كثيبات رمل ناعم

* **التافزة** هي عبارة على صخور هشة بيضاء اللون يصنع منها مادة الجبس المخصص للبناء، تكون متواجدة مستوية قريبا من سطح الأرض وفي أماكن يمكن أن تكون ظاهرة على السطح .

ويمكن للفرد أن يمشي عليها بالحفاء عندما يكون الجوّ معتدلا، حيث يقول الشاعر الأمير عبد القادر مادحا للرّمال:

أوطفت في الصّحراء مرتقيا بساط رمل به الحصباء كالدّرر

ولقد ساهم الرّمل بخصائصه في حياة المجتمع، بحيث انسجم وتكيّف الأفراد معه وترك بصمة مميّزة في ثقافة سكّان وادي سوف.

ـ المناخ

عند دراسة عنصر ثقافي معين يتطلب منا معرفة النسق الايكولوجي الذي يشكل المجتمع المحلي عامة، الذي له علاقة وطيدة بالظروف الطبيعية عامة "فالجانب الطبيعي للبيئة البشرية يرتبط بالجانب الاجتماعي والثقافي الذي يحدد ما يحتاج إليه الإنسان من وسائل تحقق له الطموح والإشباع الذي ينشده"[1]

ويتصف المناخ في وادي سوف بأنّه صحراوي له المميزات الآتية:

الحرارة

تلعب الحرارة دورا كبيرا في العادات الاجتماعية بوادي سوف، بحيث يتغيّر الغذاء من فصل لأخر، تبعا لطبيعة المنتوج الفصلي وتكيّفا مع الحرارة الفصلية، كما يتغيّر اللّباس من فصل لآخر مواكبة للحرارة أو البرودة، كما تكون هناك عادات اجتماعية تتعلق بالاستطباب خصوصا في فصل الصيف، وتتوافق المناسبات مع طبيعة الفصل، ويختار فصل دون آخر لإقامة الأعراس والأفراح.

وبالتالي من البديهي بمكان التعرف في البداية على مميزات الحرارة بوادي سوف، فهي تختلف من فصل لآخر "فقد ترتفع الحرارة في النّهار إلى ما يقرب الخمسين درجة وتنخفض ليلا إلى ما يقرب من درجة الصفر"[2] وهذا باختلاف الفصول، ترتفع درجة الحرارة في فصل الصيف، أي بالتحديد شهري جويلية وأوت إلى درجات عالية، حيث تهدأ الحركة بالمنطقة وتقل خصوصا عند القيلولة، وتنخفض في فصل الشتاء إلى درجة التجمد فتسكن الحركة ليلا لشدّة البرودة، وفي فصلي الخريف

1 زكرياء طاحون: **أخلاقيات البيئة وحماقات الحروب**، بدون طبعة، مصر: وكالة الأهرام والتوزيع، 2002، ص 40.

2 إبراهيم بن محمد الساسي العوامر: مرجع سابق، ص 50.

والرّبيع تعتدل درجة الحرارة إلى حدّ ما، وهذا الانخفاض والارتفاع له علاقة بالطّبيعة ونوعية الكائنات الحيّة التّي تعيش في المنطقة، فالتّمور تنضج بحرارة الصّيف لتكون رطبا في الخريف، وهكذا.

الرياح

نستطيع القول بأنّ الرّياح بصحراء وادي سوف نوعان أساسيان:

ريح الصَّبَا: هي عبارة على "نسيم سحري معتدل يتلذذ به الإنسان، ويحلو النوم في قدومه، فيجد المريض راحة عند هبوبه"[1] وتسمى هذه الرّياح لدى المجتمع بـ "البحري"، وتأتي دوما من جهة خليج "قابس"* ينتعش فيها الإنسان، وينال نعومة الجو بما تحمله من رطوبة ولها صفة الهبوب بداية اليوم أو عند نهايته وأحيانا تشتد قوّة هذا النّوع من الرّياح، فتأثر على الكائنات الحيّة، ويأخذ السّوفي في هذه الحالة مجموعة من الاحتياطات اللاّزمة لنشاطه وتحرّكه، وبعد هدوئها هناك مجموعة من السلوكيات يقوم بها مثل مراقبة مصدّات الرّياح، ومراقبة مزروعاته، ومراقبة غلّة النّخيل وهكذا.

كما تخرج بعض الحيوانات من وسط الرمال مثل الأسقنقور (الشرشمان) les poissonons de sables، والذي يصطاده أهل المنطقة أهل المنطقة ويذبحونه ويفضل أكله عندهم كغذاء أو لدواعي التداوي.

ومن فوائد رياح الصَّبَا تلقيح الأزهار، وترطيب الثمار، وخاصة التّمر، وتبعث فيه اللّيونة والطراوة وخاصة في موسم"الْمَنَقَّرْ"**، كما تبعث هذه الرّياح عادات دخلت في ثقافة المجتمع، مثلا عند فصل الصيف ويكون هناك رياح الصبا، يختار النّاس المرتفع للاستسلام إلى النوم، حتّى ينال الرّاحة خلال نومه، كما تكون هناك في البيوت غرفا مفتوحة باتجاه الشرق أي من جهة قدوم هذه الرياح وتختارها العائلة للمكوث فيها في فصل الصيف، إقتداء بالبدو حيث يوجهون باب الخيمة أو "الْزِرِيبَة" ***نحو الشرق لقدوم الرّياح وعدم دخول أشعّة الشّمس الحارقة لها بعكس فصل الشّتاء.

---

1 المرجع نفسه، ص 50.

* قابس هي منطقة بالقطر التونسي تطل على خليج بحري تتواجد على بعد 200 كلم جوا من الجهة الشرقية لوادي سوف.

** المنقر هو التمر في بداية نضجه، نهاية شهر أوت وبداية شهر سبتمبر.

*** الزريبة هي عبارة على خيمة مصنوعة من جريد النخل المجفف، ويمكن أن تلف بالدرين وهو "الحلفاء" خصوصا في فصل الصيف.

رياح الشّهيلي: هذه الرّياح تأتي من جهتين، من الغرب ومن الجنوب وأغلبها جنوبية "ريح السموم أو الشهيلي (القبلي): وهي ريح تكون في فصل الصيف، وهي محرقة في غاية الشدّة، وتهب من ناحية الجنوب، وتدوم من يوم إلى أسبوع، ويكون أكثره بالنّهار فتزيده أشعة الشمس حدّة "[1] وإذا قدمت هذه الرّياح من الغرب تكون أكثر شدّة وعنفوان ولكن لا تدوم طويلا.

وهذا النوع من الرّياح سواء من الجنوب أو من الغرب تكون جافة جدا ولها حرارة شديدة خصوصا في فصل الصيف، تضرّ بالمحاصيل الزراعية إذا طالت مدّتها، حيث تعمل عند دوامها إلى إفساد غلّة النّخيل، خاصة إذا جاءت في بداية نضج التّمور أي في نهاية شهر أوت وطوال شهر سبتمبر، كما تعمل على تجفيف التمر إذا كانت في شهر أكتوبر.

وفي فصل الصيف وعندما تكون هذه الرّياح، يغير السّوفي من غذائه و لباسه وطبيعة نومه بحيث في اللّيل يحبذ المكان المنخفض بدل المرتفع للاستسلام للنّوم، يأكل النّاس هناك أغذية خفيفة، مليئة بالمياه، ويكثرون من تناول فاكهة البطيخ الأحمر التّي تسمّى عندهم بالدّلاع، ويكثر من تناول مادة البصل التي تخفف من درجة الحرارة وكذا مادة الطّماطم الطبيعية.

وعندما يكون الجوّ خاليا من هذين النوعين من الرّياح، يكون الهواء حسنا ولطيفا، خصوصا في فصلي الرّبيع والخريف.

ورياح المناطق الرملية لها طابع خاص فالرمال فيها تتطاير وتقل الرؤيا بشكل كبير، فصحراء وادي سوف رياحها تشبه إلى حدّ كبير رياح صحراء ليبيا، حيث يصفها الرّحالة حسنين أحمد محمد كنعان علي أحمد الرياح وصعوبتها في كتابه رحلة في صحراء ليبيا سنة 1923، بقوله: "ثم ينظر الإنسان في وجه الصحراء فإذا سطح الأرض قد تغيّر تغيرا غريبا وإذ بذرات الرمال ترتفع قليلا وتتبجس وتدور كأنّا بخار يتصاعد من ثقوب لا عد لها في أنابيب مدّت تحت ذلك السطح"[2].

---

1 Ahmed Nadjah: Op,Cit, p 44

2 حسنين أحمد محمد كنعان علي أحمد: **رحلة في صحراء ليبيا**، 1923، الجزء الأوّل: مطبعة مصر: شركة مساهمة مصرية، بدون سنة، ص 66.

وهذا الوصف ينطبق على رياح صحراء وادي سوف، خصوصا عند هبوب رياح الصبا العاتية، أو رياح الشهيلي العاصفة.

الأمطار

تعتبر الأمطار بوادي سوف قليلة ونادرة لبعدها عن البحار والجبال، ونزول المطر يكون عادة نتيجة لهبوب الرّياح التي توصل بعض السّحب المحمّلة بالأمطار. أمّا موسمها هو الشّتاء، وفصل الخريف وأوائل الرّبيع، وهذا النزول الطفيف يكون ملائما لسقي بعض بذور النباتات البرية في الخريف، فتنتش بذور بعضها وتصعد إليها الحياة، وتسقى أنواعا أخرى من الأشجار، أمّا في الربيع فتسهم الأمطار إذا نزلت في إعادة بعث الحياة إلى الشجيرات الموسمية، وتروي الأشجار الدائمة، ففي السنة التّي يمطر ربيعها ينشط الرّعي، وعادة ما يكون هناك مناسبات في هذا الفصل، حيث يعود بالفائدة للكائنات الحيّة والإنسان كذلك.

ويعمد سكان وادي سوف عند نزول المطر وفي الأيام الباردة في فصل الشتاء لتناول وجبة مميّزة تدعى "الْبَرْكُوكَشْ"* الذي يعمل حسب ما يعتقدون على إضفاء الدفء للجسم، وبمرور الزمن أضحت هذه العادة من ثقافة أهل سوف.

وينحصر سقوط الأمطار تقريبا بين شهري نوفمبر وفيفري، وفي معظم الأحيان تكون بشكل زخّات شديدة مصحوبة بعواصف رعدية، وعندما تكون الأمطار غزيرة تسبب الأخطار للكائنات الحيّة والمنتجات النباتية، ويمكن أن تسبب أضرارا للمباني والمساكن "كما جرى في أفريل من سنة 1947 وماي من سنة 1967، ويصل المتوسط السنوي للتساقط في المنطقة إلى80,3 ملم"[1]، "وسجلّت أعلى مستويات التساقط 160ملم وأدناه 19ملم"[2].

وعلى العموم فإنّ مجتمع وادي سوف يعتبر المطر فأل خير عليه، فينتعش، نظرا لندرتها، ولها فوائد عديدة تعود للكائنات الحيّة، والنشاط الاقتصادي عموما، وانتعاشة السكان من جهة أخرى.

* هذه الأكلة السوفية نتعرض لها في فصل قادم من هذا البحث.

1 Ahmed Nadjah: Op,cit, P 03

2 Andre Voisin: Opcit, p 45.

ـ المياه

يقودنا الكلام عن المياه في أغلب المناطق الجغرافية إلى المطر، لأنّها مصدر المياه في جل المناطق في العالم، ولكن في بيئة وادي سوف لا تعتبر المطر مصدرا للمياه، فهي تحوي خزانا هائلا من المياه الجوفية وهو يشكل أكبر الاحتياطي العالمي في الماء. فمنه القريب من السطح، ومنه البعيد عنها ومنه الأعمق، والمياه الجوفية عبارة على مجار جوفية مشكّلة من طبقات مختلفة تفصلها مجموعة من الرّمال الخشنة والصخور، فالطبقة الأولى تستخدم لغرس النخيل وبعض المنتجات الزراعية ولكنها بنسبة قليلة، والطبقة الثانية تستعمل في ري الزراعة الحديثة، وهناك طبقة أعمق تستعمل في المياه الصّالحة للشرب بحسب نظر السلطة، و طبقة أعمق منها وهي ساخنة تستخدم بصفة قليلة للاستعمال المنزلي ومياه الشرب. وربما تكون هناك طبقات أخرى لم نصل إلى التعرف عليها في هذا الصدد.

وتشكل المياه الجوفية أهمية بالغة بحيث تعتبر أهم عنصر ساعد على استقرار الإنسان في هذه الصحراء، خاصة وأنها قريبة جدا من السطح.

ب- العناصر الحيّة في بيئة وادي سوف

تنقسم عناصر البيئة الحيّة بصفة عامّة إلى الحيوانات والنباتات، وهي "مجموعة الكائنات التي تدب فيها الحياة، وتتمتع بمظاهر الحياة من تغذية وتنفس وحركة وتكاثر"[1]

- الثروة النباتية

على غرار بعض المناطق الصّحراوية توجد بوادي سوف أنواع مختلفة من الأشجار والنباتات ولكنّها قليلة وذات ميزة خاصّة، تلائم الحرارة في فصل الصّيف وبرودة الشّتاء ورياح الرّبيع، فمن هذه النباتات ما يعتمد على الغيث، فتجدها تكثر في السنة الممطرة، وتقل في السنة الجافّة، وهذا النوع البرّي من النباتات له خاصيّة البقاء، حتّى إذا لم تنبت من عام لآخر، فهي تحافظ على بذورها لتنمو عند حلول الغيث.

1 فتحي دردار: مرجع سابق، ص 23.

وهناك نباتات وأشجار تعتمد في ريّها على المياه الجوفية، وأهمها أشجار النّخيل التّي تعتبر طابعا مميزا لوادي سوف، ولقد ارتبط السّوفي بالنّخلة لدرجة استحالة التخلّي عنها مهما كانت الظّروف وخصوصا لاعتمادها على نفسها في السقي من خلال مدّ جذورها بالمياه الجوفية، وهناك نباتات بريّة بالمنطقة تعتمد على الثّرى الموجود بالرّمال ولها خاصّية الجذور الطويلة، وصغر حجم الأوراق للتقليل من النّتح.

وهناك نباتات تسقى من طرف الإنسان، أي عن طريق مياه الآبار مثل الخضروات والفواكه، وأخيرا أصبحت حتى أشجار النخيل تسقى مثلها مثل الزراعة المسقية.

وفي كل الحالات فإنّ النباتات الصحراوية تعرّف بأنها "إمّا أن تكون جذورها طويلة حتّى تصل إلى طبقات المياه الجوفية، أو تكون أوراقها ذات قشرة سميكة لتقاوم التّبخر، أو تكون من الأنواع التي تخزن عصارتها في أوراقها"[1].

والنّبات له قسمان، واحد علوي ويتمثل في السّاق والأغصان والأوراق والثمار، والثاني تحتي مخفي يسمّى بالجذور، فالنّباتات الصّحراوية لها خاصية الأوراق الشوكية الطّويلة غير المسطّحة لمقاومة الحرّ والرّياح وأغصانها تميل إلى الحطب بتكوين قشرة سميكة تلف السّاق والأغصان حتّى تحمي نفسها من الحرارة أو البرودة ومن تأثير الرّياح أيضا، وفيما يخص جذورها فهي تمتد بعيدا عنها أفقيا وعموديا بحثا عن قطرات الماء، أو بعض الثرى الموجود في الرّمال.

وقد استخدمها المجتمع في العديد من الأغراض الحياتية مثل غذاء الحيوانات الأليفة كالأغنام والإبل، واستخدمت في مصدّات الرّياح للمزارع المنتشرة في المنطقة وغيطان النخيل البعلية، واستعملت كذلك في الطب الشعبي، وقد شجعت النخلة وبعض الأشجار الأخرى على بعض الصناعات التقليدية، وبعض الأدوات التي يستعملها الإنسان في حياته اليومية، كما استخدمت في بعض عناصر التأثيث المنزلي وبعض الأغراض الأخرى كالتدفئة ويحبذ السّوفي إلى اليوم طهي الشّاي واللّحم على الجمر بدلا من الوسائل الحديثة، بحيث أغلبية السكّان يقتنون بعض الحطب البرّي، خصوصا في عيد الأضحى وفصل الشّتاء أيضا.

1 محمد السيد غلاب: **البيئة والمجتمع**، ط7، القاهرة، مصر: مكتبة الاشعاع للطباعة والنشر والتوزيع، 1977، ص 93.

ونستطيع أن نقسّم النباتات بوادي سوف إلى زمر ونذكر منها أمثلة:

. النباتات الرعوية: مثل: الْعَضِيدْ، الْسِّعِدْ، الْحَلْفَاءْ، الْبِشْنَة، الْحَارَّة، الْقْرِيطْفَة، الْنَّمَصْ، الْقْصِيبَة، الْنَّجْمْ، الْشِّيحْ.....

. نباتات رعوية وطبية: الْبَسْبَاسْ، عْنَبْ الْذِيبْ، الْحَرْمَلْ، الْفِيجَلْ، الْحَنْضَلْ، الْفُقَّاعْ (الفطر)، الْتَرِثُوثْ، الْحِدَجَة .....

. أشجار للطّهي والتدفئة: الْأَرْطَى، الْأَزَالْ، الْعَلَنْدَى، الْزِيتَاءْ، الْبَاقِلْ، الْمَرَخْ.....

. نباتات برية و بستانية: الْرَيْحَانْ، الْرَنْدْ، الْبَسْبَاسْ، الْرِجْلَة، الْنَعْنَاعْ، الْكُرْنَبْ، الْخَرْوَعْ، الْخُرْشِفْ، الْزَّعْتَرْ، الْثُومْ الْبِرِّي، الْفِيجَلْ، شَجَرَة مريم.....

. الخضروات: الكابو(اليقطين)، القَرَعْ، الْلِّفْتْ، الجزر، الخردل، الباذنجان، الْقْنَاوية، الْفَقُوسْ، الخيار، البطيخ، الدلاع، البطاطس، البطاطا، الطماطم، السلق (السبانخ).....

وعلى العموم فإنه توجد ثروة نباتية بوادي سوف، إلاّ أن أهم ما يميز الثروة النباتية هو النخلة، وقد تعلّق بها السّوفي و تغنّى بها وضرب الأمثال بها، و أصبحت جزءا منه، وقد قال أحد الشعراء عن كرم النخلة وجودها داعيا الإنسان إلى التشبه بها:

كن كالنخيل عن الأحقاد مرتفعا يرمى بطوب فيلقي أطيب الثمر

كما توجد بوادي سوف أشجار أخرى مثمرة وغير مثمرة، مثل العنب، الرمان، الليمون، التفاح، المشمش، الخوخ، التوت، الزيتون*، ...

ـ الثروة الحيوانية

مثل ما ينقسم النبات إلى بري ومسقي، فانّ الحيوانات تنقسم أيضا إلى اثنين، واحد منهما برّي وآخر يعيش بجوار الإنسان، ففي وادي سوف توجد ثروة حيوانية لعبت دورا هاما في صنع الثقافة المادية والثقافة المعنوية، حيث ارتدى الإنسان ملابسا من أصوافها واتخذ من جلودها أحذية وأفرشة، واستخلص من ألبانها بعض غذائه، واستخدمها في العديد من أغراض الحياة.

* **الزيتون** هو إكتشاف زراعي تم غرسه واستثماره في السنوات الأخيرة بالمنطقة وأثبت جودته وصلاحيته وهو الآن يقدر بآلاف الأشجار، وحسب أحد المهتمين فإن الفرنسيين زرعوه سابقا في وسط مدينة الوادي وبعد الاستقلال قطعت هذه الأشجار.

ونجد أنّ السّوفي يرتب منازل ومراتب للحيوانات بحسب أهميتها في حياته، وما تشكله له من فوائد ومنافع، مثل ما نجده في إعطاء قيمة للنخلة، باعتبارها مصدرا هاما للغذاء، فكذلك شكل الجمل والخروف مكانة بارزة عنده، فالجمل يستعمل للحمل ويتغذى منه، ويأكل لحمه ويلبس وبره.

وهناك مجموعة من الحيوانات تعيش في وادي سوف نذكر منها:

الجمل: وهو حيوان يرمز للصّحراء، فلا يعيش في مناطق أخرى، وعرف باسم سفينة الصّحراء، له صفات متميزة جدا سوف نشرحها في الفصول اللاحقة عند الكلام عن أهمية الجمل ودوره في حياة السكّان، والمكانة التّي يحتلها هذا الحيوان في منطقة وادي سوف.

الماعز: تشكل ثروة الماعز بوادي سوف أهمية بالغة، وهي تدر الحليب لأصحابها خصوصا أنّ هذا الحيوان لا يحتاج إلى كثرة العلف، بحيث يملك أغلب السكّان هذا الحيوان، ويكاد لا يخلو بيت من الماعز خاصة في القرى و المداشر، وتستخدم صغار الماعز للذبح وتناول لحمها خصوصا في الصيف، وبداية الخريف.

الضأن: إنّ هذا الحيوان له مكانة كبيرة عند سكّان سوف، بحيث يعتبر لحمه أفضل اللّحوم على الإطلاق ، ويضرب به المثل في الأوساط الشعبية، وخاصة إذا كان ذكرا، لأنّ أهل سوف يبتعدون عن تناول لحم الأنثى من الضأن كلّما أمكنهم ذلك، على الرّغم من أن منطقة وادي سوف قليلة المراعي لندرة الأعشاب، فنجدهم يربون الضأن في الأكواخ، أي عن طريق العلف دون الرّعي.

إلى جانب هذا، يعتبر هذا الحيوان حديث العهد بالمنطقة، ففي السّابق كانوا يتناولون سوى لحم الجمل، لندرة الخرفان في المنطقة، ففي مقابلة مع المخبر (رقم 1) صرّح بانّ لحم الخروف لم يكن معروفا بهذه الصورة لمّا كنّا صغارا، فكان النّاس يتناولون لحم البعير.

وهذا الأمر صحيح إلى حدّ بعيد، ويتوافق مع سكان الصّحراء الجزائرية، بحيث في زيارة* لي إلى ولاية "تمنراست" بالجنوب الجزائري، وجدت بأنّ هذا المجتمع يتناول لحم الجمل بكثرة، وفي زيارة إلي ولاية "تندوف"** أيضا بالجنوب الغربي من الصّحراء الجزائرية، وجدت ولاحظت بأنّ لحم الضأن يكاد ينعدم عند الجزّارين، فهم يكتفون بذبح الجمل والجمل فقط.

* هذه الزيارة كانت خلال الفترة المخصصة للدكتوراه، وبالبضبط أيّام 31 مارس، 01، 02، 03 أفريل من سنة 2010.

** هذه الزيارة تمت خلال 6، 7، 8، 9، و 10 أكتوبر 2012.

ومائدة الطّعام عند سكّان تندوف لا تخلو من لحم الجمل، وهذا ما يدل على أنّ الخروف يعتبر حديث العهد بولاية تندوف، وهذا الحيوان له فوائد أخرى، مثل استخدام أصوافه في الألبسة والأفرشة وبعض الحاجيات الأخرى.

حيوانات برية: مثلها مثل أي منطقة أخرى، تعيش بوادي سوف مجموعة من الحيوانات البرية تختلف عن بعضها من حيث الصنف والطبيعة، فمنها ما هو ضار ومنها ما هو غير ذلك، وتختلف درجة الضرر من حيوان لآخر، فنجد الأفاعي السّامة والعقارب السّامة أيضا، كما توجد زواحف أخرى مثل الحنش والإسقنقور(الشرشمان)، والزرزومية والوزغة والخنافس المختلفة والاوران وغيرها.

كما تعيش في المنطقة حيوانات أخرى مثل الكلب والثعلب والفنك والقنفد والأرنب والذئب وهذا الأخير أثبت وجوده في المنطقة ويحسب له ألف حساب.

تمثل الصّورة حيوان ذكر الشرشمان ويطلق عليه "العبادي" وهو يتحرك فوق الرمال ولقد ركزنا على إبراز هذا النوع من جملة الحيوانات المذكورة في هذا العنصر نظرا لأنّه مستعمل كثيرا في العادات الغذائية لمجتمع البحث، كما أنّ صحراء وادي سوف تنفرد به دون المناطق الصحراوية الأخرى.

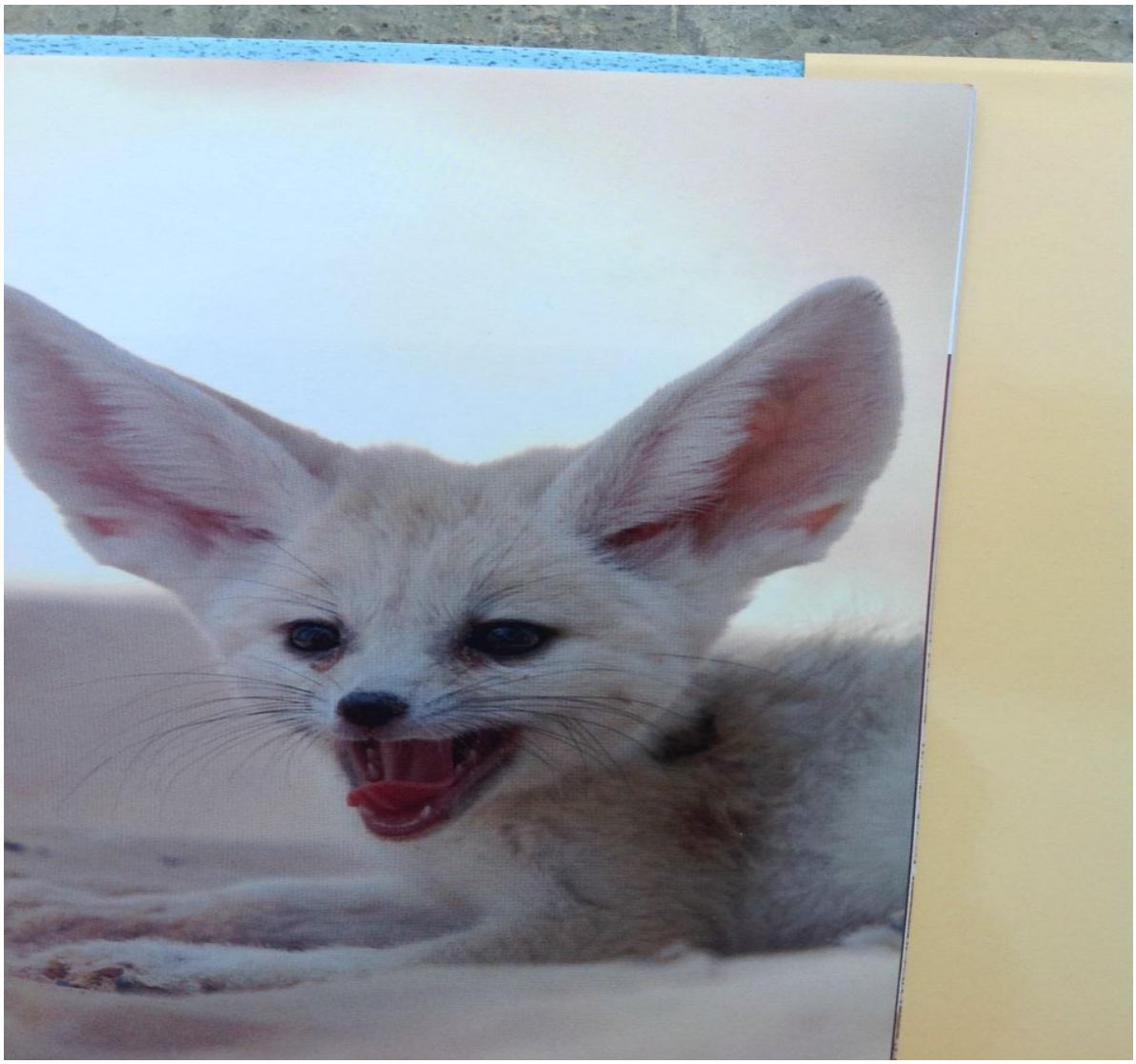

هذه الصورة لحيوان "الفنك"

وإخترناها لأنّ الفنك يوجد عذا في صحراء العرق الشرقي الكبير حسب معلومات غير مؤكدة

وهناك حيوان يسمّى الغزال، حيث يعتبر حيوان بري لا يألف الإنسان مهما رعاه، فهو يحب العيش بعيدا عن النّاس، يمتاز بخصائص متميزة جدا، بحيث يقول عنه إبراهيم العوامر "ياكل الحنضل والحدج فيستحليه ويشرب ماء البحر فيستغدبه"[1]

1 إبراهيم بن محمد الساسي العوامر: مرجع سابق، ص 68.

ويقال عنه في الأوساط الاجتماعية بأنّه حيوان يستطيع العيش بدون ماء حيث يأخذ شرابه من نسيم الفجر عن طريق أنفه.

ثانيا: الثقافة

1 – ماهية الثقافة

كلمة الثقافة نالت حيزا كبيرا في كتابات العلماء والباحثين والفلاسفة المحدثين والقدامى، ولا يمكن لأي كان أن يعطي معنى شافيا لها، لأنّه مفهوم واسع، وله زوايا متشعّبة جدا كل حسب اختصاصه، ولكن من الملاحظ أن التخصص الذي تكلّم عنها بدرجة كبيرة وكانت أحد مواضيعه هو علم الاجتماع، وكذلك علم الأنثروبولوجيا، بحيث كل باحث أو عالم في الأنثروبولوجيا يهتمّ بهذا الموضوع، وحتّى أنّه يوجد تخصص يسمّى الأنثروبولوجيا الثقافية، وهناك تخصص آخر في علم الاجتماع يسمّى بعلم الاجتماع الثقافي.

والثقافة هي من خصائص المجتمعات البشرية، فالإنسان كائن بيولوجي ثقافي، وبهذه الخاصية يرجع إلى وجود العقل دون الكائنات البيولوجية الأخرى فهناك مجتمعات حيوانية لها تنظيم مثل النمل والنحل، ولكن نجدها في حالة مستقرة دون أن تغير من سلوكها، وبعكس المجتمعات البشرية، فهي في تغير مستمر من حال إلى آخر، من أجل التكيّف مع البيئة التي تعيش فيها المجتمعات، ويعمل الإنسان غلى توريث هذا الأمر للأجيال اللاّحقة عن طريق التعلّم والتدريب.

ولقد نعثر على الكثير من المحاولات التي اعتنت بتعريف الثقافة بحسب طبيعة التوجه العلمي المدروس.

أ . الاتجاهات النظرية في دراسة الثقافة

ـ الاتجاه التطوري

ومن بين هذه المحاولات ما نجده في كتابات ادوارد تايلور، حيث يعرّف الثقافة من الجانب التطوري، أي يرى بأنّها تتطوّر من البسيط إلى المعقد، فالثقافة المعاصرة لمجتمع ما، كانت بسيطة في بدايتها، وتتميّز بأنّها معقدة الجوانب حيث يقول "الثقافة هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والعقائد

والفن والأخلاق والعرف وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في المجتمع"[1].

فمن هذا التعريف نستخلص بأنّ الثقافة "تكتسب"، وهذا الاكتساب يتم عن طريق التعلّم، من خلال عيش الفرد داخل الجماعة البشرية، وتعتبر أيضا بأنّها تحمل صفة التركيب، أي أنّ جميع عناصرها تتداخل مع بعضها دون فصل بين عنصر وآخر، فالحصول على الطعام له ارتباط بالمعتقدات الدينية، وله ارتباط بطبيعة نظام القرابة، وله ارتباط بالنظم القانونية وهكذا فكلّ عنصر له شبكة معقدة مع العناصر الأخرى المركبة للثقافة.

وإلى جانب تايلور وفي هذا الاتجاه نفسه، عرّفها "هوايت" بـ "الأشياء والأحداث التي تعتمد على القدرة العقلية للكائنات الإنسانية، والتي يطلق عليها اصطلاح الرمزية"[2]، ويشتمل هذا التعريف على جانبين أساسيين في الثقافة، وهما العناصر المادية التي أنتجها المجتمع، والعناصر غير المادية من سلوكيات وأفعال ومعتقدات، وهذا ما يتضح من التعريف، عند كلمتي: الأشياء والأحداث، وهذا ما يدخل مفهوما جديدا للثقافة، يتعلق بعنصر الرمزية، الذي يتمثل دوره في نقل الخبرات الحياتية من جيل إلى جيل جديد.

ـ مدخل الانتشار والتكامل

لقد تزعّم هذا الاتجاه الباحث "بواس" حيث يرى بأنّ الثقافة تنتشر من منطقة ثقافية إلى أخرى عن طريق الاحتكاك والتجاور، فتتأثر الثقافة لمجتمع وتتغير من ميزة إلى أخرى، وبعد هذا الاحتكاك والتأثر وتثبيت ذلك في المجتمع يحدث تكيّفا لهذا الجديد مع القديم، أي يتم تعديل العناصر ثم يرسخ بصفة تكاملية مع البيئة ككل، ويؤكد "بأنّ عملية الانتشار من جماعة إلى أخرى تتم عن طريق الاتصال التاريخي، وعملية التكامل يقصد بها تعديلا أو تكيّف العناصر الثقافية المستعارة وتثبيتها في الثقافة المحلية وفي المحتوى الاجتماعي للبيئة"[3].

---

1 محمد حسن الغامري: **مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1991، ص 30.

2 المرجع نفسه، ص 32.

3 المرجع نفسه، ص 34.

وفي هذا المحتوى أيضا أنّه عندما تتغيّر أحد العناصر الثقافية يؤدي حتما إلى تغيّير كل العناصر الأخرى، وبالتالي يجب دراسة الثقافة ككل والرجوع إليها من خلال التطوّر التاريخي الخاص بها.

وإلى جانب هذين الاتجاهين، ظهرت على خلفيتهما اتجاهات أخرى في تفسير ظاهرة الثقافة كما هو موجود لدى "مالينوفيسكي" الذي يرى بأنّ الثقافة هي وسيلة وأداة لإشباع الحاجات السيكولوجية وكذا البيولوجية للفرد، بينما يتجه "راد كليف براون" إلى الحاجات الجماعية وذلك بقصد تحقيق التكامل والثبات داخل المجتمع ككل.

ويوجد اتجاه آخر في تفسير الثقافة يدعى النسق المعرفي، ويقصد أنّ مجموعة العادات والسلوكيات ليست هي عناصر الثقافة، بل أنّ الثقافة تكمن في الجوانب التي خلف هذه العناصر. ويركز هذا الاتجاه على الوسائل التي تكشف طرق التفكير مثل اللغة والبيئة.

ـ المدخل الإيكولوجي

ركّز هذا الاتجاه على علاقة البيئة بالمجتمع، وعرف باسم الإيكولوجيا والمقصود بها "تتبع العلاقة المتبادلة بين الإنسان والبيئة عامة، وأثر العوامل البيئية في الإنسان والنظم المختلفة من اقتصادية وسياسية ودينية"[1].

فالعوامل البيئية المتمثلة في كل العناصر المشكلة لها، وكذلك كل التحولات التي تطرأ من حين لآخر، والإيكولوجيا تتمثل في التفاعل بين هذه العوامل والإنسان، وكذلك النظم التي يتميز بها البناء الاجتماعي ككل، باعتبار أنّ الإنسان يتمثل في جزء من النسق المشكل من النباتات، ومختلف الحيوانات وكل عناصر البيئة الطبيعية المختلفة، فبناء على هذا يتكوّن النسق الايكولوجي.

ومن بين الذين اهتموا بهذه النظرية هم الأنثروبولوجيون، حيث انطلقوا في دراساتهم من طرح تساؤلين أساسين هما:

". لماذا تتواجد عناصر خاصّة أو مجموعة من العناصر الثقافية في فترات زمنية معيّنة، وفي أماكن محددة؟.

. كيف تقوم هذه العناصر الخاصّة بدورها داخل بيئة ثقافية وطبيعية معينة؟."[2]

1 محمد حسن الغامري: مرجع سابق، ص 44.

2 المرجع نفسه، ص 45.

فمن خلال هذين السؤالين فإن الثقافة تعني التكيّف، أي العناصر الثقافية كيف تتكيف مع الوسط والمحيط ككل؟.

وجاء اتجاه الإيكولوجيا الثقافية كبديل ناقد لتطور مبدأ الحتمية البيئية الذي ساد الفكر الاجتماعي لفترة زمنية معتبرة، حيث ظهرت نظريات نالت صفة التراكمية، ففي البداية جاءت فكرة الاحتمالية البيئية، مفادها أنّ "العوامل البيئية قد تحد من إمكانيات التكيف في ثقافة ما، لكنها لا تحدد أنماط التكيف، أو الاختيارات التي يقوم بها المجتمع"[1]، بمعنى أنّه يمكن أن تكون البيئة ملائمة لنشاط معين، ولكن المجتمع لا يهتم بذلك، فيمارس نشاطا آخر.

فقد تختلف الظاهرة الثقافية من زمن لآخر رغم تواجدها في مكان واحد، وهذا ما وصل إليه "الفريد كروبر" عند دراسته لمجتمع هنود البيلو والتفاهو في الجنوب الغربي الأمريكي.

ولم يتوقف الباحثون عند هذا الحدّ بحثا عن إشكالية العلاقة بين البيئة والثقافة، فتوصلوا إلى ما يعرف بالإيكولوجيا الثقافية، التي جاءت معدّلة للتصورات السابقة، من الحتمية ومبدأ الاحتمالية البيئية.

فأوّل من اهتم بهذا الاتجاه هو الأنثروبولوجي "جوليان ستيوارد" سنة 1955، وانطلق في دراسته من تساؤل: ما هي العمليات التي يحدث من خلالها توافق المجتمعات مع بيئاتها؟ أي بحث في مجال توافق المجتمع مع عناصر البيئة المشكلة للوسط الذي يعيش فيه.

وقد أوضح "ستيوارد" الخطوات التي ينبغي على الباحث اتباعها عند دراسة الأيكولوجيا الثقافية تتمثل في :

" . تتمثل الخطوة الأولى في تحليل التفاعل بين البيئة والتكنولوجيا المستخدمة، لأنّ بعض عناصر البيئة يمكن أن يكون لها تأثير أكثر من عناصر أخرى، وهذا ما ينعكس على التكنولوجيا المستخدمة، بحيث أن أي مجتمع لا يستطيع استغلال كل ما تجود به بيئته حتّى عند التكنولوجيات المتقدمة.

بحيث يؤكد "ستيوارد هنا أنّ الثقافات البسيطة تتأثر مباشرة بالبيئة التي تتواجد فيها، في حين نجد هذا التأثير يقلّ في الثقافات الأكثر تطورا ، بحيث عند هذه الأخيرة تستطيع التغلّب على العديد من الصعوبات البيئية، كحرارة المناخ، ووعورة الأراضي والمرتفعات، فتستخدم أجهزة التكييف للمناخ غير الملائم، ومدّ الطرقات وبناء الجسور لوعورة التنقل.

1 محمد حسن الغامري: المرجع السّابق، ص 46.

. أمّا الخطوة الثانية فتتمثل في تحليل أنماط السلوك التي تتضمنها عملية استغلال عنصر معين بواسطة تكنولوجيات معينة، فهل هذا يتطلب التعاون؟ وهل أنّ هذا التعاون يؤدي إلى الانتفاع الأقصى للمصدر؟ ومن هنا فالأيكولوجيا الثقافية يجب أن تهتمّ بالإمكانيات المتاحة والمستغلة لوسائل تنبيه الناس إلى أماكن مصادر استغلال البيئة.

. والخطوة الأخيرة تتمثل في مدى تأثير أنماط السلوك المتضمنة في عملية استغلال البيئة على مظاهر الثقافة الأخرى. ومن بين تلك المظاهر تنظيم الجماعات القرابية، والتنظيم السياسي والاجتماعي، والكثافة السكانية"[1].

وبحسب هذه الخطوات فإن الأيكولوجيا الثقافية تبحث في كيفية توفير الحاجيات لدى المجتمع، وتلك التكنولوجيات التي تستغل بها مصادر تلك الحاجيات المختلفة، وتبحث في التنظيمات المصاحبة والناتجة عن تلك التكنولوجيات المختلفة المستخدمة في استغلال البيئة من أجل التكيف مع الوسط العام الذي يعيش فيه المجتمع.

كما يؤكد ستيوارد من خلال نظريته بأن المجتمع كلّما طوّر وغيّر من جملة التكنولوجيات المستخدمة في عملية سدّ حاجاته تزيد درجة توافقه مع البيئة التي يعيش في كنفها، فالتغير يعني كلا من البيئة والثقافة، فإذا تغيّرت عناصر البيئة تتغير تبعا لها عناصر الثقافة.

1 محمد حسن غامري: المرجع السابق، ص ص 47 48، يتصرف.

2 – لمحة تاريخية عن سكان سوف

منطقة وادي سوف لها عمق متجذر في التاريخ، فقد "دلّت الأبحاث الأثرية والشواهد التاريخية أنّ منطقة سوف عرفت الإنسان منذ عصور ما قبل التاريخ"[1].

ولعل من المؤكد أنّ الأمازيغ سكنوا المنطقة وكذا الفينيقيون والرومان في فترة القرن الأول الميلادي، وسكنوا منطقة يطلق عليها الجردانية*، وتواجدوا بما يسمى بالبليدة **ولم يكتف الرومان عند قدومهم إلى سوف بالسكن بالجردانية والبليدة بل بنوا قرى عديدة أخرى في منطقة أرض سوف، وتوجد آثار ذلك في سندروس*** التي تقع بجنوب شرق الوادي على بعد عشرين كلم، وفي قمار والرقيبة، وغرد الوصيف الذي يقع بجنوب غرب الوادي على بعد أربعين كلم.

كما سكن الوندال أرض سوف والبزنطيون إلى أن دخل العرب إلى المنطقة بقبيلتين كبيرتين هما: عدوان وطرود.

أ . قبيلة عدوان

دخلت عن طريق الفتوحات الإسلامية في عهد عقبة بن نافع الذي عيّن "حسّان بن نعمان على رأس جيش، وأمره بالتوغل في المنطقة مابين بسكرة و ورقلة بما فيها وادي سوف، وكان ضمن سرايا المسلمين النواة الأولى لوجود قبيلة عدوان بأرض سوف"[2]، أي أنّ أصل سكان سوف يعود للعنصر الذي قام بإدخال الإسلام إلى المنطقة، وقبيلة عدوان تنتسب إلى العرب، و هؤلاء "أوّل ما حلّوا بـ "الزقم" وتفرعت منهم فصائل كأولاد سعود، وتفرعت فصائل أخرى عندما اختلطوا بعرش الطرود"[3].

ويسكن أغلب أفراد هذه القبيلة الجهة الشرقية والشمالية، والشمالية الغربية من مدينة الوادي إلى جانب تواجدهم بالمدينة، أي يقطنون حاليا أوّل منطقة نزلوا بها وهي"الزقم" وتوسعوا في "غمرة" و"المقرن"

---

1 إبراهيم مياسي: **من تاريخ وادي سوف**، مجلة الثقافة (الجزائر) العدد113، 1996، ص 105.

* الجردانية هي منطقة شرق مدينة الوادي يطلق عليها حاليا اسم " المقرن".

** البليدة هي منطقة شمال الوادي تسمى حاليا "هبّة" وهي أحد القرى التابعة إداريا لبلدية الرقيبة.

*** هي منطقة تقع في جنوب مدينة سوف تبعد عنها حوالي 30 كلم تابعة حاليا لبلدية العقلة دائرة الرباح.

2 نفس المرجع السابق، ص 110.

3 إبراهيم بن محمد الساسي العوامر: مرجع سابق، ص 307.

و "الجديدة" و "تغزوت" و"كونين" و "وقمار" و"ورماس" إلى جانب تواجدهم في مناطق أخرى ولكن بصورة قليلة.

ب – قبيلة الطرود

دخلت عن طريق التوافد المستمر لبني هلال وسليم إلى شمال إفريقيا وتفرّقوا في مناطق مختلفة، ومن بين المناطق كانت وادي سوف، بحيث دخلوا المنطقة وسكنوها. واستمر التوافد فيما بعد إلى أن كثر عددهم وأصبحوا فيما بعد أصحاب المنطقة هم وبنو عدوان، وهذه القبيلة لها فصيلان: الأعشاش والمصاعبة.

ـ الأعشاش

يعتبرون عرشا من الطرود، وهم "ينحدرون من فرع بني سليم"[1]، كانوا في البداية بدوا قدموا من الصّحراء العربية واستقرّوا بسوف، ولهم عدّة فصائل بالأصل والانتساب، كأولاد أحمد وأولاد جامع، والفرجان والربايع، والقطايطة.

ـ المصاعبة

وهي فصيلة كبيرة بوادي سوف وتتواجد بالوادي مركز و"عميش" والجهة الغربية من الوادي "وهم من بني سليم"[2] و ينقسمون إلى عدّة عمائر كالعزازلة ، الشبابطة، القرافين، الشعانبة، وهذه الأخيرة "هم آخر من انتسب إليهم عند قدومهم في 1886 من ورقلة"[3].

هذا ما ورد في الكتب والمراجع التي كتبت عن المنطقة واصل سكانها، فنستطيع القول بناء عليها أنّ سكّان وادي سوف أصلهم يعود إلى بني هلال وسليم، أي قبيلتا عدوان وطرود وجاؤوا عن طريق الفتوحات الإسلامية في البداية، ثم توافدوا فيما بعد لأغراض أخرى لسنا بصدد البحث فيها في هذا المجال.

ولكن فيما بعد، وبعد التغيّرات التي حدثت في المنطقة، وكنتيجة للتزاحم بين القبيلتين، اختلطتا عن طريق النّسب وأصبحتا مجتمعا واحدا تصعب التفرقة بين عناصره، فهم يقولون نحن "سوافه" لا غير،

1 ابراهيم بن محمد الساسي العوامر: المرجع السابق، ص 307' بتصرف.

2 علي غنابزية: مرجع سابق، ص 106.

3 المرجع نفسه: ص 106. بتصرف.

وأيضا وبعد حدوث التعايش والاحتكاك مع البيئات الخارجية سكنت سوف بعض الفصائل الأخرى التي قدمت من المناطق الجنوبية كورقلة وبعض مناطق الشمال كـ "تبسة" إلى جانب منطقة "الزاب". واليوم تسكن وادي سوف فصائل مختلفة منهم من أصبح ينسب نفسه إلى سوف ومنهم مازال لم ينسب إليها، إلاّ أنّنا نستطيع القول أنّ الأغلبية العظمى هم من قبيلتي عدوان وطرود.

3 – الثقافة والبيئة الثقافية

إن البحث في القضايا الاجتماعية يتطلب معرفة وافية عن عناصر المجتمع وثقافته، فمن الصعب فهم أي ثقافة بالنظر إلى عناصرها كأجزاء معزولة فيقول وليم توماس بـ "ضرورة أخذ الحياة الكلية الشاملة في المجتمع في الاعتبار عند إجراء كافة التحليلات الاجتماعية"[1]. فمجتمع وادي سوف، مثله مثل كلّ المجتمعات البشرية يملك ثقافة معينة تتواجد في بيئة اجتماعية، وهي عبارة عن مجموعة النظم والمؤسسات التي كوّنها الإنسان داخل المجتمع، من خلال التفاعل بين أفراد المجتمع مع بعضهم البعض، وهي البيئة التي صنعها الإنسان لنفسه وينقلها كل جيل عن الآخر، ويطوّر فيها ويعدّل ويبدّل، وتسمّى البيئة الثقافية للإنسان، وهي خاصة بالإنسان دون غيره من الكائنات الحيّة الأخرى.

وتعرّف البيئة الثقافية بأنّها "مجموعة القوانين والنظم التي تحكم العلاقات الداخلية للأفراد، إلى جانب المؤسسات والهيئات السياسية والاجتماعية، والتي صنعها الإنسان من قرى ومدن ومزارع"[2].

فالبيئة الثقافية تتضمن "الأنماط الظاهرة والباطنة للسلوك المكتسب عن طريق الرموز الذي يتكون في مجتمع معين، من علوم ومعتقدات وفنون وقوانين وعادات وغير ذلك"[3].

من خلال ما سبق يتّضح أنّ البيئة الثقافية تعني منطقة ثقافية لها جوانب عديدة تنتج عن التفاعل المستمر بين أفراد المجتمع الواحد، ويكسب جوانب أخرى من البيئة الخارجية نتيجة الاحتكاك بمختلف الأغراض كالتجارة أو السياحة أو الزواج أو الهجرة وغير ذلك من شؤون الحياة المختلفة. وممّا لا شك فيه أنّ أيّة ثقافة إنسانية تتضمن عدّة عناصر مختلفة ولها خاصية الارتباط ببعضها البعض، فأيّ تغيّر في عنصر معين يؤدي إلى تغيّر في الكل ويتغيّر لون الثقافة تبعا للتغيّر الذي حدث.

---

1 نيقولا تيماشيف: **نظرية علم الاجتماع**، ترجمة: محمد عودة وآخرون، مصر: دار المعارف، 1972، ص 228.

2 http. Feedo.not/Environment/Ecology/Definition of Environment.htm. 08/12/2011. 12:21h

3 راتب السعود: مرجع سابق، ص 19.

وكما هو معلوم أنّ العناصر الثقافية كما عرفنا سابقا تتكون من مجموعة العادات واللغة وغيرها من أدوات الحياة المختلفة وما صنعته يد الإنسان. وعلى هذا الأساس فإنّ الثقافة هنا تنقسم إلى قسمين أساسيين، قسم مادي وآخر لا مادي، الأمر الذي أكدّه وأجمع عليه العلماء.

4 – الثقافة المادية

يعرّف "اوجبرن ونيمكوف" الثقافة المادية بأنّها "تشمل كلّ ما يصنعه الإنسان في حياته العامة، وكل ما ينتجه العقل البشري من أشياء ملموسة مثل الآلات والأسلحة، والأثاث والسيّارات والمجوهرات والبناء، ومصارف الري والمحاصيل الزراعية والطرق، أي ما هو مادي فيزيقي واستخدمه الإنسان"[1].

أي أنّ الثقافة المادية هي تلك الأدوات والمجسمات الملموسة التي يحتاجها المجتمع في حياته اليومية، فهو صنع المحراث مثلا من أجل تسهيل الحرث وكذا فعالية المنتج أيضا ومدّ الطرقات من أجل تسريع وتسهيل التنقل، وابتكر مجموعة الأدوات التي تسهّل عليه طهي الطعام مثلا، وكذلك أدوات طبية بقصد العلاج من الأمراض المختلفة، وصنع المساكن بطرق تقيه من الحرّ والبرد والظروف الطبيعية، وصنع الإنسان اللباس لأغراض بيئية ومعتقدات دينية، وزرع المحاصيل من أجل الغذاء له وللحيوانات التي يحتاجها.

فالثقافة المادية هي كلّ ما صنعه الإنسان من ابتكاره أو استورده من بيئة أخرى وتأقلم معها وأصبحت جزءا من ثقافته بمرور الزمن.

والمجتمع بوادي سوف مثله مثل المجتمعات الأخرى يملك ثقافة مادية معيّنة سوف نتكلم عنها لاحقا بنوع من التفصيل والتحليل الميداني أيضا.

فيما تتمثل الثقافة المادية بوادي سوف؟

أولا وقبل كل شيء سوف نذكر هذه العناصر بصفة مدمجة بين ما هو تقليدي قديم وما هو حديث حالي.

1 فتحي محمد أبو عيانة: **دراسات في الجغرافيا البشرية**، ط 2، الأزاريطة، مصر: دار المعرفة الجامعية، 2001، ص 72.

أ . ما يتعلق بالنخلة

لقد غرس السّوفي هذه الشجرة منذ أن سكن المنطقة، ولها تأثير عميق في المجتمع، ولها أيضا حضور في أغلب العناصر الثقافية المتعددة، وغرس النخلة لهدف أولي هو إنتاج التمور، وهي أحد المحاصيل الزراعية التي تدخل في الثقافة المادية، ولم يكتف السّوفي بأخذ الغذاء منها فقط، بل صنع منها العديد من الأدوات والوسائل التي استخدمها في الحياة اليومية نذكر من بينها:

"القفّة" التي تصنع من سعف النخيل، وصنع أيضا "الشارية"، وهي عبارة عن قفة كبيرة تستعمل للتمر وأغراض أخرى، وصنع من السعف المنشة وهي مروحة يدوية تستعمل في تجفيف العرق من وجه الإنسان وطرد الذباب أيضا، كما صنعت ما تسمى المظلّة وتستعمل في وقاية الرأس من أشعة الشمس وهي تستعمل منذ القديم إلى اليوم وهي تباع في الأسواق الحالية، كما استخدم السّوفي من جريد النخيل مصدّات للرياح تمنع زحف الرمال إلى غيطان النخيل أو الطرقات أو حتّى المنازل في بعض الأحيان، ولها بعض التقنيات. كما استخدم السّوفي الجريد المجفف في صناعة الزريبة التي تعتبر إمّا مكانا للرّاحة أو مخزنا في الغيطان والمزارع للأدوات والمنتجات الزراعية، وهذه العمارة موجودة عند أهل سوف منذ القديم فالرحالة العيّاشي يقول: "حين وصلنا إلى الوادي وجدنا طرودا (قبيلة) يسكنون زرائب من جريد النخل وبها يخزنون ما يحتاجون إليه"[1].

وصنع من الجريد أيضا بعد عزل السعف ما يسمى بالسدّة، وهي عبارة عن مجموعة من العصي المتلاصقة بطريقة لا تسمح بفصل أحد وتستخدم كسرير للنوم في الصيف ولها أغراض أخرى.

وقد صنع من النخيل أيضا الحبال من خلال ليف النخل، وتستخدم هذه الحبال في الأغراض المختلفة، وصنعت من عصي الجريد الكراسي والطاولات وهي تباع الآن بأثمان معتبرة، كما صنعت عدة تحف أيضا كما صنعت أواني منزلية مثل الطبق وهو عبارة عن ماعون مصنوع من "التيق" وهو السّاق الحامل للعرجون وملفوف عليه سعف النخيل، يستخدم للأكل وخصوصا الخبز المنزلي، وكذلك تقديم التمر وأيضا يستخدم في تحضير بعض الأغراض الأخرى من غذاء أو علف للحيوانات وغير ذلك.

---

1 أبو سالم العياشي: **رحلة العياشي (ماء الموائد)**، جزء 1 ، طبعة الرباط: 1977، ص 256.

وليس مجتمع البحث فقط من يستخدم أجزاء النخلة في الثقافة المادية، ففي المجتمع النوبي بمصر فقد استغلّوا ما بالنخلة في صناعة العديد من الأشياء "فصنعوا ما يعرف بالشريعة (الخيمة) من جريد النخيل، وهي أبسط أشكال العمارة الشعبية، وتصنع من الجريد الجاف، وأعمدتها تكون من جذوع النخل أو أغصان الأشجار، وتكون في البيت أو في الحقل. كما يستخدمون الجريد الأخضر في تنظيف البلاط، كما يستعمل ليف النخيل في إشعال النار، لأنّه سريع الاشتعال، كما يصنع من جريد النخل بعد نزع سعفه يد الجرّافة التي تستخدم في طهي الخبز التقليدي، كما تصنع الأقفاص والقفاف وهي عبارة على سلال لحفظ ونقل بعض المواد الزراعية أو غيرها، وصنع النوبيون من النخيل الأثاث الشعبي كالباب والضبة وهي قفل خشبي، كما يصنعون العتب سواء للأبواب أو النوافذ من أفلاق النخيل. وقد صنعوا أيضا الحبال من الليف، ومن عصي وجذوع النخيل صنعوا الأسرة والكراسي، والمكاييل والأطباق المستخدمة في تناول الفواكه والتمور وبعض المأكولات الأخرى، والمقاطف المستخدمة في تخزين أو نقل الحبوب، و الحصائر، والمصلّى، و غير ذلك من الأدوات المختلفة"[1] وهذا كلّه عبارة على صناعات بيئية من شأنها أن تستخدم في الحياة اليومية، أو تستخدم كتحفا للزينة داخل البيوت أو المتاحف، أو الفنادق السياحية، أو تباع كصناعة حرفية للسواح الأجانب عن المنطقة.

ب . ما يتعلّق بمختلف النباتات والأشجار

الملفت للانتباه بوادي سوف هو استغلال المجتمع لنبات يسمّى الحلفاء، وهو نبات بري شوكي استخدم للعديد من الأغراض، وهذا النبات يسمّى "الدرين ويمثل أهم النباتات الرعوية لكونه أكثر النباتات وفرة ولدوام وجوده خلال العام"[2]، ويستخدم هذا النبات بالإضافة إلى غذاء الحيوانات في مصدّات الرّياح، وله خاصية متميّزة جدا في صد الرّمال وكذا يتحمل البقاء لفترة طويلة، وتستخدم الحلفاء في صناعة الزريبة (الخيمة)، ويوقد بها النّار لأنّها سهلة الاشتعال.

وهنالك أشجار برية تستخدم في الطهي والتدفئة مثل شجرة الأزال والأرطي والعلندى والباقل وغيرها من الأشجار البرية، ويستعملها السّوفي إلى اليوم بحيث ترى السيّارات والإبل محمّلة بسيقان هذه

1 عاليه حبيب وآخرون: مرجع سابق، ص ص 259.246. بتصرف.

2 حليس يوسف: **الموسوعة النباتية لمنطقة سوف**، ط 1، الوادي، الجزائر: دار الوليد، 2007، ص 47.

الأشجار وتباع في المداشر والقرى بأثمان معتبرة، وما يزال السّوفي إلى اليوم يفضل الغذاء المطبوخ على الحطب أو الفحم بدل الغاز وخاصة الشاي واللحم.

وتستخدم العديد من النباتات البرية في علاج الأمراض المختلفة وكلّ واحد يستخدم بطريقة معينة.

ج . ما تعلّق بالتربة ومكوّناتها

كما عرفنا سابقا أنّ صحراء سوف لها مجموعة من أنواع الأتربة، استخدمها السّوفي لأغراض مختلفة، فقديما استخرج من الأرض حجرة التافزة وصنع منها مادة الجبس وشيّد بها المنازل والمؤسسات وحتّى اليوم لا تزال ظاهرة البناء بالجبس وحجرة اللّوس موجودة رغم دخول ثقافة جديدة هي البناء بالاسمنت المسلح.

كما تعتبر في ثقافة سوف أنّ وردة الرّمال لها مكانة خاصّة في التزيّين، وتصنع من الرّمال لوحات فنية تزيّن بها المنازل والفنادق وحتّى المتاحف، ولا ننسى أيضا بأنّ السّوفي له ثقافة متميزة مع الرّمال، فهو يحبذ الجلوس عليها وحتّى النّوم عليها خصوصا في فصل الصيف ليلا.

د . ما يتعلق بالثروة الحيوانية

ممّا لاشك فيه أنّ البيئة بعناصرها المختلفة تتدخل في ثقافة المجتمع، والحيوانات بمختلف أنواعها استخدمها الإنسان في العديد من الأغراض الحياتية، فمنها ما هو للركوب ومنها ما هو للغذاء ومنها لأغراض حياتية أخرى، وقد رأينا سابقا أنّ منطقة العرق الشرقي الكبير تعيش فيها مجموعة معتبرة من الحيوانات منها ما هو أليف ومنها ما هو بري يعيش في جيوب الصّحراء، فالمجتمع السّوفي وبمرور الزمن استخدم هذه الحيوانات في حياته اليومية، فمنها ما دخل في عناصر الثقافة الصحية حيث استعمل بعضها في التداوي سواء من أعضائها أو كما هي، أو من منتجاتها، كما اختار مجموعة لأكل لحومها وشرب ألبانها مثل الجمال والماعز. ولقد دخلت بعض أجزائها مثل أوبارها وأصوافها وجلودها في صناعة الألبسة، مثل البرنوس والقشابية والعفّان والجباب وغير ذلك، إلى جانب استخدام

جلود الماعز في تخزين وتلطيف الماء وعرف السوافة ما يدعى بالقربة وهي "مصنوعة من جلد ماعز مدبوغ ومطلية بالقار* مربوطة من كل الجهات ما عدا الفم الذي يربط بخيط وتعلّق على ثلاثة أوتاد تسمّى الحمّارة"[1]،

وتستعمل القربة لتبريد الماء، وكذا تحضير ما يعرف بـ "الوزوازة"**.

كما استعمل بعض الحيوانات لأغراض أخرى مثل استئناس الكلاب، من أجل حراسة المنازل وحراسة القطيع من الذئاب لدى الرعاة ومربي المواشي، ولا ننسى أيضا ما يزيّن بعض المنازل من الحيوانات مثل تعليق الورن في الغرفة أو تثبيت قرني الخروف فوق باب المنزل، وطبعا ليس للزينة فقط بل لها أغراض أخرى.

---

* **القار** هو سائل يدعى القطران عند أهل المنطقة، دوره يضفي رائحة زكية للماء، وكذلك يمنحه طعما مميزا، وحسب أحد المختصين في مقابلة معه في 12 جوان 2013 أوضح بأن القطران يطهر الماء، أي يعمل عمل ماء الجافيل.

وللقار منافع عديدة مثل ما كان عند العرب قديما يستعملونه في علاج الجرب للجمال، حيث ورد للنابغة الذبياني في استعطافه للملك:

فلا تتركني بالوعيد كأنني إلى الناس مطلي به القار أجرب

أي في غضبك عني أصبحت عند الناس كالناقة المصابة بالجرب ومطلية بالقار (معزولة)، وهذا دليل على أن العرب في القديم كانوا يستخدمون هذه المادة في علاج الجرب (la gale)

1 بن سالم بن الطيب بالهادف: **ســـــــــوف** ،تاريخ وثقافة، ط 1، الوادي، الجزائر: مطبعة الوليد، 2007، ص 147.

** **الوزوازة** هي عبارة على مشروب تقليدي يتكوّن من خلال تنقيع مجموعة من الأعشاب داخل كيس من القماش النظيف، في قلة أو قربة بها سائل يدعى المريسة، وهذه الأخيرة تتكون من ماء عادي ونقيع من تمر الغرس الذي يمنح حلاوة للماء وللمشروب بصفة عامة، ويترك هذه المزيج مدّة زمنية تتراوح ما بين 12و 24 ساعة بحسب كمية الأعشاب المستعملة في النقيع، فكلّما كثرت الكمية كلّما قلّت مدّة الانتظار، حتّى يختلط هذا المزيج من طعم الأعشاب والتمر والماء ، وبعد ذلك يجهز المشروب للتناول، فيشرب منه الفرد عندما يعطش أي يستبدل بالماء في أيام الحرارة الشديدة. ومن بين هذه الأعشاب المكوّنة لهذا المشروب بحسب إحدى المخبرات القنطس، الاكليل، الزعتر، الزعيترة، العرعار، القمحة، الحرمل، القريطفة، الورد، القرفة، الرند، التيزانة، الفليو، النعناع، القرفل، حبة حلاوة، كسبر، البسباس، وهناك من يضيف إليها بعض الحبوب لأضافة حموضة للمشروب مثل الفول والفرماس (المشمش المجفف) والشعير. وهناك من يقول أنّها تصل إلى أربعين عشبة.

5 – الثقافة المعنوية

وهي تعبر عن حقيقة ما يفكّر به المجتمع، وهي صورة لجملة أنماط المعيشة ورغبات وتطلعات المجتمع ككل، وتعبّر أيضا عن معاناة وأزمات مختلفة مرّ بها المجتمع، وكذا جملة الأحداث التّي وقعت للأفراد والجماعات، وتعرّف الثقافة حسب اوجبرن ونمكوف بأنّها "أنماط السلوك التي تتمثل في العادات والتقاليد، والتي تعبّر عن المثل والقيم والأفكار والمعتقدات، وكذلك الكلمات التي يستعملها الإنسان"[1] فالثقافة المعنوية من خلال هذا التعريف تتكون من:

أ . العادات

وهي أحد الظواهر الاجتماعية حيث تعرّف بأنّها "ظاهرة اجتماعية وهي قاعدة أو معيار للسلوك الجماعي، حيث تشير إلى أفعال النّاس التي تعوّدوا عليها وسلوكهم على نحو شبه آلي بفضل التكرار المستمر والتعلّم، والتدريب، فهي تشير إلى كل الأنماط السلوكية المشتركة بين جماعة أو مجتمع معين"[2]، فمن هذا التعريف نستنتج أن العادات الاجتماعية تتميز بالانتشار الواسع داخل المجتمع، حين أدرجت ضمن الظواهر الاجتماعية، كما أن التعريف يوضح بأن العادات الاجتماعية تنتج عن التكرار والتنقل من جيل إلى آخر عن طريق التنشئة الاجتماعية، ويتّضح هذا من كلمتي التعلّم والتدريب، ولها خاصية أنّ جميع أفراد المجتمع يشتركون في ممارستها.

والمجتمع بوادي سوف له مجموعة من العادات يمارسها في حياته اليومية وفي مناسبات مختلفة، من هذه العادات ما يتعلّق بالمناسبات الدينية والاجتماعية مثل عادات الأعراس والخطبة والمراسيم الدينية، ففي هذا المجتمع هناك طبوع متفق عليها في الأعراس مثل كيفية إعداد مائدة الغذاء يوم القران، وطريقة الاحتفال بالعرس، وكيفية دخول العروس لبيت الزوجية، وهناك عادات يومية تتعلّق بطريقة اللباس وكيفية تناول الوجبات الغذائية فهناك عادة عند هذا المجتمع أن أفراد العائلة يتناولون الوجبة الغذائية مع بعضهم وليس فرادى، ويتناولونها جلوسا في حلقة دائرية على الأرض أي لا يستعملون الكراسي، كما جرت العادة على أن يتناولوها في إناء واحد.

---

1 فتحي محمد أبو عيانة: مرجع سابق، ص 72.

2 نفس المرجع، ص 155.

ب . الأمثال الشعبية

ثقافة الأمثال الشعبية ليست وليدة المجتمعات المعاصرة، بل هي ظاهرة اجتماعية قديمة قدم المجتمعات الإنسانية. حيث نجد أن لكلّ مجتمع أمثالا وحكما يتداولها في مناسبات مختلفة تتميّز في أغلبها بالاختصار المفيد، وتحمل في طياتها مواقف معينة، وتهدف إلى التعبير عن سلوكيات محددة، وهذه الأمثال تحمل في دلالتها صفة الحكمة الشعبية ولها معنى ومدلول تربوي فكلمة – الشعبية – في هذا المجال ناتجة من أنّ الأمثال والحكم مصدرها عامة الناس وليس الأدباء والمثقفين والكتاب، فهي إذن تعبّر في أغلبها عن حوادث ومواقف وقعت في مكان وزمان معينين، وهذه الحوادث كانت لأفراد أو جماعات أو حتّى مجتمعات أو أمم، فتلخص بتعبير مختصر ومفيد لأخذ العبرة والاحتذاء. وصفة الشعبية هنا لتميزها بالتعبير عن حياة الناس الفعلية وليست مجموعة الأفكار التخيلية، فتبنى الأقوال بطريقة عفوية وبصفة المجهول وكذلك بصفة التعميم للأحداث والوقائع المتشابهة للموقف كما قيل في شأنه أيضا أنّه يعبّر عن ذاكرة المجتمع الذي عاش لفترات متعاقبة وبالتالي فهو أحد الأدوات التي تعبر عن المصير السابق والمعاناة والرخاء الذي عاشه المجتمع سابقا.

وقبل أن نخوض في التحليل الكمي والكيفي للأمثال والحكم الشعبية لدى سكان وادي سوف لابد أن نتعرض للمفهوم وقواعد المثل.

ـ تعريف المثل

فالمثل الشعبي هو "القول الذي أصبح سائرا شائعا وفيه تصوير لمعنى بناء على معرفة"[1].

وبالتالي وبحسب هذا التعريف فإن المثل الشعبي هو كلام شفاهي له خاصية الشيوع في الوسط الاجتماعي، وبمرور الزمن أصبح متداولا عبر الأجيال المتلاحقة، وهذا الكلام يحمل في طياته معاني عميقة مبنية من خلال واقع حدث يوما ما، وبما أن المثل والحكمة اقترنتا مع بعضهما في الكثير من الأحيان، فإنهما يعرفان بصفة مدمجة بأنهما "أقوال مأثورة توارثها الخلف عن السلف، واعتبرها الناس

1 بيزيد يوسف: **ماهية التراث الشعبي**، ملتقى الموروث الشعبي وقضايا الوطن، اصدارات الرابطة الولائية للفكر والإبداع بولاية الوادي، الوادي، الجزائر: مطبعة مزوار، 2006، ص 56.

من الأحكام والأقوال المأثورة والتي يعتز بها أفراد المجتمع الواحد ويأخذونها كمسلمات وشواهد إثبات على أقوالهم وأعمالهم في المناسبات الخاصة ويحترمونها"[1].

فمن خلال هذا المفهوم يتبين بأن الأمثال والحكم تدخل ضمن التراث الثقافي للمجتمع، وهي ضمن تقاليد أي مجتمع. ويتضح بأنها ذات أهمية بالغة من حيث الأخذ بها باعتبارها لا تناقش أي مسلّمات.

. خصائص الأمثال والحكم

من البديهي أنه ليس كل قول يحمل معنى متضمنا يعتبر مثلا أو حكمة شعبية يأخذ بها المجتمع، بل لابد من توفر شروط التراث المنتقل من جيل إلى آخر، وهذه الأقوال المنقولة عبر الأجيال لها مجموعة من الخصائص تتمثل في:

. سهولة النقل: أي أن القول يكون مختصرا من حيث الكلمات، ففي أغلب الأمثال لا يتعدى هذا الكلام جملة واحدة، أو جملتين مثل "كل قطيط في عين أمه غزال"

. له مورد: يتصف القول المأثور بالواقعية، حيث يعبر عن واقعة معنوية قيل بشأنها المثل، وبالتالي يلفظ في الحوادث المتشابهة، وبالنسبة للحكمة فهي لا تعبر عن حادثة معنية وقعت سابقا و إنما لها صفة الواقعية في الميدان، فللمثل حادثة أولى قيل فيها لأوّل مرّة وهو المورد، أمّا الحكمة فهي خلاصة تجربة في الحياة.

. له مضرب: للمثل والحكمة الشعبية أهداف، أولها أنّهما وسيلة لنقل الثقافة والمعتقدات الاجتماعية من جيل إلى آخر، ولهما هدف تربوي يلقنه الكبار للصغار كما توجد أهداف اجتماعية تتمثل في أخذ العبرة من حياة الأجداد السابقين، كما أنّ الناس لديهم ذكاء وبداهة فهم يميلون للتلميح في الكلام بدلا من التصريح، وفي المثل أو الحكمة الشعبية الكلام ملمح، وهكذا لكل مثل مورد أو مناسبة ومضرب يقال فيه.

1 ابراهيم ناصر: **علم الاجتماع التربوي**، ط 2، بيروت، لبنان: دار الجيل، مكتبة الرائد العلمية، 1996، ص 250.

. طبيعة المثل الشعبي بوادي سوف

من خلال الملاحظات الميدانية والمعايشة لمجتمع الدراسة تبين أن هذا المجتمع يحوز عددا هائلا من الأمثال والحكم خصوصا عند الكبار من النساء والرجال، ففي كل جلسة مقصودة أو عفوية كانت تلفظ فيها جملة من الأمثال تعبر عن قصد معين يتناسب مع طبيعة النقاش الذي يدور في تلك اللحظة، وبالتالي فالمثل الشعبي بواد سوف شائع جدا ولا يزال يتناقل بين الأفراد والجماعات، مهما كانت مميزاتهم ومستوياتهم، عوام أو مثقفون، نساء أو رجال، فبالإضافة إلى تلك الحكم، فإن الأمثال الشعبية بوادي سوف تعتبر كحكم يقتدى بها ولا يحق لأي فرد أن يناقشها سواء كان كبيرا في السن أو صغيرا. ومعروف عند سكان وادي سوف أن المثل هو كلام مأثور عن الأجداد أو الأوائل الذين عايشوا هذه البيئة واكتشفوها وعمروها، وفي نظرهم بأنه لا اجتهاد مع كلام الأجداد لأنّ لديهم خبرة ودراية بطبيعة المنطقة وخصوصيات العلاقات الاجتماعية السائدة، ويضرب في هذا المجال قول مفاده "لولين ما خلّوا للتواله ما يتحدّثوا"* أي أنّه لا مناقشة مع كلام الأجداد.

والمثل بواد سوف له طبيعة محلية في أغلبه من حيث اللفظ اللغوي، فهو بلهجة محلية وتذكر فيه أحيانا بعض العناصر الطبيعية التي تكون في المنطقة مثل الرمال، النخيل، الذئب، الشهيلي** وهكذا...

ونستطيع أن نلخص خصائص الأمثال الشعبية بوادي سوف في الآتي:

. بحكم أن المجتمع بوادي سوف يدين بالديانة الإسلامية، فإن هناك من الأقوال المأثورة شعبيا ذات قيم مصبوغة بصبغة إسلامية مستمدة من تعاليم هذا الدين، مثل ما يقال "إذا كان الكذب ينجي فإن الصدق أنجى وأنجى"***.

هناك مجموعة من الأقوال المأثورة تعبر عن حدث معين وقع بمنطقة وادي سوف بعينها أي محلية بحتة، وهذا سوف نورد منه لاحقا في هذا البحث مثل:

* يعني هذا المثل أن الأجداد السابقين قالوا حكما لم يتركوا لهذه الأجيال ما يقولون، أي أن كلام الأجداد لا نقاش فيه وهو صحيح لأنهم ألو خبرة بطبيعة المنطقة.

** الشهيلي هي رياح حارة وجافة تأتي من الجهة الجنوبية.

*** يعني أن الانسان ينبغي أن يتحلّى بالصدق حتى ولو كان الكذب ينقذ من موقف حرج، وهذا مستنبط من الدين الاسلامي الذي ينبذ الكذب في كل حالاته.

"الْطِوِيلَهْ مَا تَرْقَاهَا، وِالْقِصِيرَهْ فِيهَا الشُوكْ"*

. توجد أمثال وحكم قيلت على أساس رمزي وباستعارة لفظية معينة، مثل "غِيبْ يا قُطْ اَلْعَبْ يَا فَارْ"، أي إذا غاب الشخص الذي يخاف منه الأفراد أو الذي يحترمونه، يخرج الأفراد يعبثون.

. هناك أمثال وحكم شعبية بوادي سوف تتضمن مناطق في بلدان أخرى بحكم التجاور والاحتكاك والتصاهر بين المجتمعات، مثل "اِلْثُوبْ جِرِيدِي وِالْعَشَاءْ كْرِيدِي" وهذا ما يثبت بأن المجتمع بوادي سوف له اتصال ثقافي بالجنوب التونسي، وكانت هناك مبادلات قديمة بين المنطقتين.

* يقصد هذا المثل النخلة عند لفظة القصيرة والطويلة، وكلمة **نرقاها** تعني أتسلقها

الفصـل الثالث

استخدام منتجات البيئة في العادات الاجتماعية الغذائية

أوّلا: الغذاء النباتي

1 . التمر في الثقافة الغذائية للمجتمع

2 . الخضر في عادات الغذاء

3 . أشجار ونباتات مختلفة في ثقافة الغذاء

ثانيا: الغذاء الحيواني

1 . الحليب ومشتقاته

2 . اللحوم

أوّلا: الغذاء النباتي

كما ذكرنا سابقا، بأنّه تنبت العديد من الأصناف النباتية بصحراء وادي سوف. وأهمها النبات الذي يسمى "النخلة"، وقد استخدمت أجزاء النخلة في شتّى عناصر الثقافة، سواء في شقها المادي أو حتّى المعنوي، فاستُخدم جريدها وليفها وكرنافها وجمّارها وغير ذلك، ولكن أهم ما استخدم منتجها وهو التمر، فكان عنصرا مهما في مائدة الطعام اليومي، ومن المعروف أن فصل نضجه هو الخريف، فقد استخدم المجتمع بعض الطرق في تصبير هذا المنتج حتّى يتسنى تناوله طوال السنة.

و إلى جانب التمر، هناك أغذية نباتية أخرى، كالطحين والخضار وبعض الفواكه، إلى جانب التوابل وبعض النباتات البرية.

1 . التّمر في الثقافة الغذائية للمجتمع

يعتبر التّمر أهم عنصر غذائي في منطقة وادي سوف، فبإجماع كلّ المخبرين، أنّه في السّابق لا يمكن أن يستغني الفرد عن التمر أبدا، وبحسب المخبر (رقم 2)، فإنّ التّمر لا يخلو من البيوت خلال الأربعة فصول، بحيث يخصّص كل فصل لأحد الأنواع نظرا لتحمّل كل نوعية لمدة تصبير معينة.

والتّمر متوفر في المنطقة لأنّه يتصدّر المنتجات الفلاحية في الفترات السابقة، وحتّى في الآونة الأخيرة، ولا نبالغ في هذا إذا قلنا بأنّ النّخلة كانت هي أحد العوامل الأساسية التي ساهمت في استقرار المجتمع بوادي سوف، بحيث تعتبر زراعة النخيل هي أولى المزروعات في المنطقة، ممّا له من فوائد غذائية معتبرة، ويؤكل بدون تحويل، وقليله يكفي لسدّ الرّمق، ويمنح الإنسان طاقة عجيبة، فيعمل من الشروق إلى الغروب دون أي إرهاق، كما يستخدم نواه وحشفه علفا للدواب.

ومن المعروف في ثقافة المجتمع بوادي سوف أنّه ينصح بالتّمر للنفساء من النساء "لأنّه يدرّ الحليب، والدراسات الحديثة أثبتت ذلك"[1] ، وهذا السلوك يوجد أيضا عند مجتمع النوبة بمصر حيث "يحرص المجتمع على تقديم المغلى* للمرأة النّفساء عقب ولادتها مباشرة، ويستمر هذا البرنامج الغذائي طوال

---

1 موقع إلكتروني 14:22 15/03/2012 WWW.SSA.NET

* **المغلى** هو عبارة على تمر منزوع النوى ويضاف له الماء مع كمية من التوابل ويوضع على النار حتى يصبح مثل المعجون ويقدم إمّا ساخنا أو باردا حسب الرغبة وعند النوبيين يصنع هذا الغذاء في مناسبات مختلفة من بينها يوم عاشوراء الموافق لـ 10 محرم من كل سنة قمرية.

فترة النفاس"[1] ولعلّ التعرّف على التركيبة الكيميائية لهذا العنصر الغذائي تفيدنا في التعرّف على مدى أهميّته وضرورته في البيئة الصحراوية، فالمائة غرام من التمر تحتوي على:

"حوالي 20% ماء ، وحوالي 75 %كربوهيدرات ،و2.2غ بروتين ، 0.6غ دهون ، 2.4غ ألياف ، و60 وحدة دولية فيتامين أ ، 0.08ملغ فيتامين ب1 ، 0.05 ملغ فيتامين ب2 ، 2018 ملغ حمض النيكوتيك ، 0.9 ملغ صوديوم ، 790 ملغ بوتاسيوم ، 65 ملغ كاليسيوم ، 66 ملغ ماغنيزيوم ، 0.15 ملغ مغنيز ، 2.1 ملغ حديد ، 0.61 ملغ نحاس ، 72 ملغ فوسفور ، 65 ملغ كبريت ، 283 ملغ كلوريت ، كما يحوي على مادة تنبه تقلصات الرحم وتزيد من انقباضها وخاصة أثناء الولادة"[2].

ولقد تناول علماء التغذية مادة التمر وأطلق عليه البعض لقب المنجم، لأنّه غنيّ بالمعادن التي يحتاجها جسم الإنسان، فالحديد مثلا يساهم في عملية تخثّر الدّم، والتّمر له مكانة غذائية معتبرة لأنّه "غني بالمواد الضرورية للإنسان، فإنّ كيلواغرام منه يعطي ثلاثة آلاف كالوري ، أي يعادل الطاقة الحرارية التي يحتاج إليها جسم رجل متوسط النشاط في اليوم الواحد.

وبعبارة أخرى "أن الكيلو غرام الواحد من التمر يعطي نفس القيمة الحرارية التي يعطيها اللّحم، وأنّ ما يعطيه الكيلو الواحد من البلح يعادل ثلاثة أضعاف ما يعطيه كيلوا واحد من السمك"[3].

وبحسب المخبر (رقم 3)، فإنّ طبيعة النشاط الذي كان يقوم به الرجال على الخصوص ذو طبيعة متنقلة، خصوصا ما تعلّق بالرعي أو التجارة، وفي سؤال آخر عن طبيعة ومصدر التجارة والتبادل، أوضح المخبر بأنّ التجارة كانت تتم بين الأقطار المتجاورة للمنطقة خصوصا تونس وليبيا وكذلك المناطق المحاذية لوادي سوف من الجهة الشمالية كتبسة أو منطقة الزاب.

وكنتيجة لهذا فإنّ الفرد يحتاج إلى طاقة مضاعفة التي وجدت في التمر لما يحويه من سعيرات حرارية معتبرة. وله خاصية النقل عبر المسافات والأيام دون أن يتعفن أو يتغيّر، فيأخذه المسافر كعويل له أثناء سفره، مع العلم أنّ التمر يؤكل كما هو دون تحويل أو طبخ أو ما إلى ذلك.

---

1 عالية حبيب وآخرون: مرجع سابق، ص 280.

2 يحي محمودي : **الأعشاب الطبية من الحديقة النبوية** ، البليدة ، الجزائر : قصر الكتاب ، 1990، ص 109 ، بتصرف .

3 15.33 23 03 2012 Htt://naseh.net/vb/showth eod.php/§t=3199.

أمّا ما يتعلّق بنوعية التجارة الحاصلة بين البلدان المجاورة فكانت ذات طبيعة تبادلية، تصدير سلع واستيراد سلع أخرى.

. فبالنسبة للتبادل الذي كان بين وادي سوف وتونس، لم ينشأ حديثا بل له عمق في التاريخ بالخصوص مع الجنوب التونسي، وهذا نتيجة للقرب المكاني وسهولة التنقل لعدم وجود تضاريس صعبة كما هو الحال عند التنقل لمناطق الشمال الجزائري، فكانت الحركة بين سوف والجنوب التونسي متواصلة ولم تتوقف أبدا حتّى بضبطية القوانين، فكلّما كانت مراقبة قانونية شديدة كلّما لجأ السوافة لعمليات التهريب، وبين المنطقتين تاريخ عميق في تهريب السلع وعملية ضبط هذا الأمر ومراقبته صعب جدا، فحتّى الفرنسيون في حدّ ذاتهم اعترفوا في تقاريرهم "أنّ هناك عمليات تهريب واحتيال في البيع، وأنّ هذه الأعمال المحضورة توجّه بالخصوص نحو تونس، حتّى أنّهم وصفوا عمليات التهريب كونها الأكثر وقاحة، وأنّ هذا التهريب خارج القانون لا يمكن قهره أو الانتصار عليه"[1]، أمّا فيما يخص نوعية السلع المتبادلة بين وادي سوف والجنوب التونسي تتمثل "أساسا في جلب الشاي والسكر والتوابل والقهوة، وكذا الحيّاك والزرابي والأواني الطينية كالقلال مقابل في العادة التبغ والتمور"[2] فالتصدير من وادي سوف يتمثل في التبغ والتمور، باعتبارهما المنتج المميّز للمنطقة في فترة معينة.

ولقد عمل ميناء "قابس" بتونس على تشجيع المبادلات التجارية بين الوادي وتونس، وحتّى الصحراء الكبرى باتخاذ وادي سوف نقطة عبور للقوافل المحملة بالسلع، وتجارة القوافل شجّعتها السلطات الفرنسية بعد تحطيم سفنها في الحرب العالمية الثانية، فاستغل هذا الأمر عند أهل سوف فأنعشوا تجارتهم من جديد بعد ما صابها الركود قبل هذه الفترة.

. أمّا المبادلات التجارية بين وادي سوف وليبيا كانت لا تقل مكانة وأهمية على المبادلات مع تونس إلاّ أنّ بعد المسافة جعل منها أن تكون أقل نوعا ما مما هي عليه مع تونس، ومع ذلك نستطيع أن نقول بأنه كانت مبادلات تجارية تمثلت في "تصدير التمور وعسل النخيل، والملح، والحياك، والقندورة المصنوعة من الصوف، وزيت الزيتون الذي يجلب من تونس، والزبدة التي يصنعها الأهالي، والشمع القادم من بسكرة، والأغنام والجمال، والتبغ، والغزلان، أمّا السوافة فيجلبون من غدامس النباتات

---

1 عثمان زقب: **علاقات وادي سوف بتونس وليبيا**، إصدارات الجمعية الثقافية للمركز الثقافي محمد يجور بقمار، الإصدار الثاني، وادي سوف، دراسات تاريخية واقتصادية وثقافية متنوعة، الوادي، الجزائر: مطبعة مزوار، 2008، ص ص 74 75.

2 المرجع نفسه، ص 75.

العطرية المجففة، والذهب، وريش النعام، وكربونات الصودا، وحجر الشّب، وجلود الفيلالي، والقرب، وجلود الجاموس، وأحمرة التوارق، والبخور، والعسل، والأقمشة السودانية، والحرير"[1].

ومن خلال هذا يتبين أنه كان احتكاك كبير بين وادي سوف وبلدان الجيران، وكانت المنطقة وأهلها نقطة عبور السلع من تونس وبسكرة إلى ليبيا والعكس، بحيث لاحظنا بعض السلع القادمة من تونس وبسكرة، ويحوّل مسارها إلى "غدامس" الليبية، وهذا التبادل مما لا شكّ فيه أنه ساهم في نشر وامتزاج الثقافات بين هاته المناطق، ويتبين أيضا أنّ المجتمع بوادي سوف يتحرك كثيرا بفعل التجارة، وهذا ما سهل من إدخال عادات جديدة سواء في اللباس كما لاحظنا من خلال جلب الجباب السودانية، أو عادات اجتماعية غذائية وغير ذلك من العناصر الثقافية المختلفة.

وعند الدراسة الميدانية وبحسب المخبر (رقم 2) فإنّ الفرد بوادي سوف لا يمكن أن يتنازل عن تناول التمر مهما تكن الظروف، وبالتالي فالتمر دخل ثقافة المجتمع بوادي سوف، ونجد في الكلام العامي أو بالأحرى في الثقافة الشفهية بأنّ الغرس وهو أحد أنواع التمور، يطلق عليه "مسمار الركبة" وهذا لما له من مكانة خاصة جدا في ثقافة هذا المجتمع.

وبحسب المخبر (رقم 4) فإنّ التمر في السّابق يعتبر أحد الوجبات الغذائية اليومية، فمن العادة يؤكل التمر في الغذاء، ويؤكل كوجبة أثناء فترة الضحى، وفي حالة وجود وجبة أخرى فإنه يتناول قبل تلك الوجبة وليس بعدها.

ومن خلال التحليل الإحصائي لمجموعة من الأمثال والحكم الشعبية الخاصة بالمنطقة، فإننا وجدنا من بين 1500 مثلا وحكمة، أحصينا 263 مثلا وحكمة ذكرت ألفاظا بيئية، أي بنسبة 17.53% وهذه النسبة لها دلالة إحصائية، مما يعني أن البيئة الطبيعية كانت على علاقة وطيدة بالحياة الاجتماعية بالمنطقة.

ومن خلال التحليل الإحصائي لتواجد النباتات في هذه الأمثال والحكم تبين لنا الجدول الآتي.

1 عثمان زقب: المرجع السّابق، ص 79.

جدول رقم1 يوضح نسبة توزيع النباتات في الأمثال والحكم

نوع النبات	التكرارات	النسبة
النخلة	30	%75.0
الخضر	05	%12.5
أشجار مختلفة و برية	05	%12.5
المجموع	40	%100

فالعدد 40 يشكل نسبة 15,21% من مجموع الأمثال والحكم محل الدراسة، والتي عددها 263 التي ذكرت فيها ألفاظ بيئية، ويتبيّن من الجدول السّابق ملاحظة بالغة الأهمية، بحيث قد شكلت نسبة تكرارات النباتات المزروعة من طرف الإنسان السّهم الأكبر، فلو جمعنا النخلة مع الخضر تصبح نسبتهما مع بعض 87,5% من مجموع الأمثال والحكم الشعبية.

فنبات النخلة هنا كأحد العناصر البيئية الهامة التي دخلت في الثقافة بصفة عامة، وكما تبين من الجدول السّابق بأن النّخلة كان تواجدها في هذه الثقافة بنسبة الثلاثة أرباع 75% من مجموع النباتات التي ذكرت في الأمثال و الحكم محلّ الدراسة، وهذا الأمر يستدعي التحليل والمناقشة من خلال طرح تساؤل: لماذا شكلّت النخلة أهمية في هذه الثقافة؟.

أ . النخلة ومنتجاتها

النخلة هي شجرة معمرة، تنمو في المناطق الحارّة، أي في الصحاري، وهي التي عملت على استقرار البدو وتوطينهم في مناطق معينة من الصحراء.

وتعتبر النخلة في وادي سوف ذات أهمية بالغة لدى السكان، فهي مصدر غذائي لهم خاصة في الزمن السّابق، وتعتبر موردا اقتصاديا هاما للسكان، ولقد ارتبط بها المجتمع بدرجة كبيرة، بحيث كان منذ زمن قريب بحسب المخبر (رقم 5) بأنّ مقياس الثراء عندنا هو الذي يملك أكبر قدر ممكن من النخيل، والذي لا يملك النخيل يعتبر فقيرا.

فعند ملاحظتنا للجدول السّابق نجد أن نسبة تكرار النخلة وما يتعلق بها بلغ ثلاثة أرباع مجموع الأمثال والحكم المدروسة، أي بنسبة 75%، وهذه النسبة عالية جدا تستدعي التحليل والبحث عن

السبب الذي أدى بدخول النخلة في تكوين الثقافة الشعبية وخاصة الشفهية منها التي نحن بصدد بحثها.

ب . زراعة النخيل بوادي سوف

تعتبر زراعة النخيل من أهم المزروعات في منطقة وادي سوف "وقد غرس أهل سوف النخيل منذ خمسة قرون، في عهد "سيدي مسطور" الذي أمرهم بزراعتها في حدود 1540م، وقد جلبوا الكثير من أنواعها من "فزان" بليبيا، ومن الجريد التونسي، ومن الزاب ..."[1]، إلاّ أنّ المجتمع السّوفي في ذلك الوقت كان يتكوّن من رحل، لا يعرفون الاستقرار، فهم يتتبعون الماء والكلا... لذلك ظلّوا في ترحالهم عبر الصحراء إلاّ أنّهم لمّا بدؤوا بغراسة النخيل وعرفوا أنّ طبيعة المنطقة تلائمها من حيث التربة والمناخ، بدأ الكثير منهم في الاستقرار، حيث لجأ البدو إلى مجاورة غيطان النخيل، وأخذوا يشيّدون زرائبا من السّعف، وبيوتا من الخشب والطين، وهي المواد المعروفة محليا في ذلك الوقت.

إذن، فالنّخلة هي السبب في توطين البدو واستقرارهم، وبالتالي تشييد وعمارة المدن.

ولكن منطقة وادي سوف تتميّز بخاصية فريدة، وهي أنّ غراسة النخيل بها تقع في منخفضات، حيث أنّ الرياح عملت على انخفاض أراض، وهي الغيطان، وارتفاع أخرى وهي ما يعرف بالكثبان الرملية، "فأغواط النخيل بالوادي مميزة، ولا تشبه بساتين النخيل في توقرت، أو ذلك الخط الأخضر بالجريد التونسي، حتّى أنّ "موتيلانسكي" أثناء زيارته إلى الوادي قادما إليها من توقرت، فوجىء بهذا النمط المتميّز من أغواط النخيل، فيتساءل في قوله: (... ويبحث المرء في الأفق بلا جدوى عن بساتين النخيل المتلاصقة، التي يلاحظها في كل مكان، حول المراكز الصحراوية، ولكن في واحة من هذا النوع لا وجود لها، فالنخيل الذي يوجد هنا في مجموعات منفصلة عن بعضها، قد غرس في الرمل بعد الحفر* له ثلاثين وأحيانا أربعين مترا عمقا بالقرب من طبقة المياه الجوفية، وهكذا لا يرى الإنسان عن بعد سوى الرؤوس الخضراء الداكنة من النخيل، وهي تظهر مبعثرة وسط كثبان الرمال الصفراء

---

1 حسان الجيلاني: **قصّة العودة**، الجزء الأوّل، بوزريعة، الجزائر: دار هومة، 2011، ص 190.

* في الواقع أنّ السّوفي لم يقم بحفر الغيطان، ولكن في البداية كانت محفورة بفعل الرياح، ربما يكون ذلك المنخفض بعيدا نوعا ما عن المياه الجوفية فيزيد من حفرها قليلا حتى يغرس النخلة على سطح المياه الجوفية، فربما هذا الزائر لا يعرف هذه الفكرة، فاعتقد بأن الغيطان حفرت من طرف الإنسان، وحتّى لا تعمل الرياح على دفن النخيل المغروسة في هذه المنخفضات فإنّ السّوفي إستخدم تقنية "الزرب" التي هي عبارة على صد الرمال من المرور إلى الغيطان، كما يعمل الزرب أيضا على حفر الرمال لإضافة غرس نخيل آخر، وهذا بتقنيات يعرفها فلاحو المنطقة، والزرب عبارة على سياج قصير لا يعدّى المتر إرتفاعا من جريد النخيل وأحيانا من نبات الدرين المعروف بالحلفاء عند أهل المنطقة، كما أنّ الدرين يساهم في صد الرمال أكثر من الجريد، وعمر صلاحيته أطول منه أيضا.

الضخمة"[1] ، فغيطان النخيل هي عبارة على منخفضات تتوسط كثبان الرمال المشكلة عن طريق فعل الرياح لفترات طويلة، لأنّ مظاهر السطح تتشكل من رمال ناعمة تسهل على الرياح تحريكها.
ومن ذلك الحين ظل السّوفي يغرس النخيل باستمرار، وتعلّق بها لدرجة كبيرة جدا، فالفرد منهم أطلب منه أي شيء يمكن أن يمنحه لك، ولكن إذا تعلّق الأمر بالنخلة فإنّه يكرهك، حيث يتداول عندهم قول "وِلْدِي وِنْعِزِكْ، وِالْغُوطْ لَا لَا" والمقصود هنا هو درجة الارتباط بغوط النخيل، فيمكن أن يبعد الأب إبنه رغم معزّته عنده، حينما يتعلّق الأمر بالنخلة.

ويعتبر أهل المنطقة أنّ النخلة هي أساس التعمير والبقاء، فقد ورد مثل شعبي يقول "بْلَادْ الْنَّخْلَهْ وِالْرَخْلَهْ مَا تَخْلَى"* مما يدل على أنّ النخلة لها دور كبير في البقاء، فحلول الأزمات المختلفة لا يمكن أن تخلي هذه البلاد، ولا يرحل عنها سكانها نهائيا، لأن النخلة تبقى تمد بالحياة، من خلال ثمارها وحطبها وظلها وغير ذلك من أجزائها المختلفة، كالجريد، والليف، والكرناف، والجمّار....

ج . إنتاجها من الثمار

إنّ ثمار النخلة هو التمر، ومن المعروف عنه أنّه غذاء أساسي عند سكان المنطقة، بحيث وحسب الملاحظة الميدانية لا يخلو بيت بوادي سوف من وجود التمر، وأنّه في ثقافة الغذاء عند أهل المنطقة يعتنون بتخزين التمر إلى غاية الموسم الموالي.

---

1 حسان الجيلاني: **قصّة العودة**، مرجع سابق، ص 154.

* **الرخلة** تعني النعجة، **ما تخلى** وتعني لا يمكن أن يهجر منها كل الناس. ويعني هذا المثل أن بلاد سوف لا يمكن أن يأتي يوما وتصاب بالهجرة الكاملة وتصبح قفار، لأنّ وجود النخلة تساهم في استمرار الحياة فيها.

شجرة نخلة دقلة نور في بداية إثمارها

أمّا فيما يتعلّق بإثمار النّخلة، فحسب أحد المهتمين وأصحاب الدراية بها فإنّها تثمر بعد مدة تتراوح بين 4 إلى 5 سنوات، ويشتد قوامها بعد مدة أيضا. وبالتالي فهي من الأشجار البطيئة المردود، ولا تثمر إلاّ بعد تسميدها بواسطة فضلات البعير أو الأغنام، ويحبذ فضلات البعير لأنّها بطيئة التحلل في التربة وثمار التمر يكون ألذ وأحسن جودة من غيره، وعملية التسميد ليست بسهلة فهي تحتاج إلى طاقة عضلية معتبرة، وحتّى تكون النخلة سليمة المقام يجب العناية بها باستمرار، فحسب نفس المخبر فإنّه يجب تنظيفها في كل عام على الأقل مرّة، وإذا كان فيها فسائل كثيرة فيجب استئصالها وترك واحدة أو اثنتين فقط، لأنّ الفسائل التي بها تعيق نمو النخلة الأم، ولا يمكنها الإثمار إلّا بعد مدّة طويلة.

والاعتناء بالنخلة موجود في جل البيئات التي تنمو بها، ففي أسوان "تستمر رعاية الأفراخ (الشتول)، حتّى تصل في النمو إلى مرحلة الإنتاج، وهذا يكون غالبا بعد ثلاث سنوات من تاريخ غرس الأفراخ. وعموما حتّى تصل الشتول إلى مرحلة إنتاج الثمار، يتطلب هذا من القائمين على زراعة النخيل القيام ببعض العمليات لرعايتها، وهي كما يلي:

. تقليم النخلة: يطلق عليها مصطلح تليف النخيل، وذلك لأن القيام بهذه العملية يتمثل في إزالة الليف والجريد، وهذه العملية بحسب الدراسة الميدانية يقوم بها أصحاب النخيل أو مجموعة محترفة من أهل المنطقة.

. تذكير النخيل (تجريحه): وتتم هذه العملية بأخذ قطعة من طلع النخيل الذكر بعد فكه، فتؤخذ البذرة ثم توضع في أعلى قمّة النخلة الأنثى بربط الذكر مع الأنثى.

. تنظيف النخلة: تتم هذه العملية عند النوبيين بصورة تلقائية بواسطة رياح أبريل، وذلك بتحريك جسم النخلة ونفضها من العسل الذي يسبب تعفنا في أجزاء النخلة من جراء تساقط العسل والندى المتواصل.

. جني الثمار: تجنى ثمار نخيل النوبين في شهري جوان وجويلة، والبلح الجاف يتم جمعه في سبتمبر، وذلك بتسلق النخلة بطريقة تقليدية، وتستغرق مدة الجني حوالي ساعة، وتتم هذه العملية بطريقة التويزة سواء من نساء أو رجال أو أطفال"[1].

فكنتيجة لهذا الاهتمام المتزايد والمتواصل بالنخلة، ونتيجة لطول مدّة بداية إثمارها عند مجتمع البحث جعل صاحبها يتعلّق بها تعلقا شديدا، فطول المدّة معها وانتظارها من حيث الإثمار جعل درجة دخول النّخلة في الثقافة الشفهية له اعتبار مهم.

د . أجزاء النخلة

تعلّقت الحياة بوادي سوف كما هو موجود في الثقافة المّادية للمنطقة بالأجزاء المختلفة للنخلة، بحسب الملاحظة الميدانية، فكلّ جزء منها يستعمل في جانب معين، فهي تستخدم في البيوت والأسقف وأماكن التخزين وغير ذلك، إلى غاية أن الجزء الذي يبقى يستعمله السكان في الطهي والتدفئة. فهي إذن الغذاء والإناء والموقد والكرسي والسقف والسرير وغير ذلك. وبالتالي هذا ما عمل على تواجد النخلة ومنتجاتها في الأمثال والحكم الشعبية بدرجة ملفته للانتباه مقارنة بباقي أنواع الثروة النباتية الأخرى، فمثلا نعثر على بعض الأمثال والحكم الشعبية في التراث الشفهي بوادي سوف تدخل النخلة

[1] عاليه حبيب وآخرون: **علم الاجتماع الريفي**، مرجع سابق، ص ص 241-243. بتصرف.

في ألفاظها، مثلا: " ـ الْطَلَعْ مَارْسِي وِالْذُكَارْ إِبْرِيرِي* ـ اِلْطِوِيلَهْ مَا نَرْقَاهَا وِالْقِصِيرَهْ فِيهَا الْشُوكْ** ـ"[1]، كما هو موجود بالتمام في الثقافة الشفهية في منطقة الجريد التونسي، حيث نعثر على بعض الأمثال والحكم، وبعض الأشعار الشعبية، في ثقافتهم الشفهية مثل: " ـ مُولَى الْنَخْلَهْ مَايْجُوعِشْ*** ـ صْبَاحَكْ دِقْلَهْ وْحَلِيبْ**** ـ وِلَدْ الْنَخْلَهْ يَحْلَى***** ـ ويقال في الشعر:

تَمَرْ وْمَاءْ وْظُلْ ... ذَاكْ الْنَعِيمْ الْأَجَلْ

وْذْرَاعْهَا سِيفْ مَسْلُولْ مِنْ يُصُدْفَهْ ... رَاحْ مَفْصُولْ الْأَصْبَاعْ بِسِرْ الْنَخَايِلْ******"[2]

هـ ـ فوائد أخرى للنخلة

تعتبر النخلة مصدرا اقتصاديا هاما لأهل المنطقة، وهي العملة الصعبة عندهم، ففي السابق وحسب المخبر (رقم 5) فإنّه يتم بالتمر تبادل السلع بين الشمال الجزائري وأهل منطقة سوف، فيقايضون التّمر بالقمح وبعض المنتجات الأخرى، كما لاحظنا المبادلات التجارية التي كانت تحدث مع بلدان الجيران للمنطقة، وكما هو عند بدو الأرباع بالجنوب الجزائري بحيث عند ترحالهم "تعبر قوافل الأرباع، بإنسانها ومخيماتها وحيواناتها، مخيمات قبائل أخرى قد تكون هي بدورها في حالة ترحال

---

* المقصود بالطلع هو بداية إزهار النخلة، مارسي أي شهر مارس، الذكّار يقصد به عملية التلقيح، إبريري يعني أفريل. أي أنّ النخلة تبدأ في إخراج طلعها في شهر مارس أمّا عملية تلقيحها تكون بداية من شهر أفريل بعد عملية تشقق الطلع، وذلك يتم بوضع اللقاح ويسمّى الذكار في وسط العرجون.

** الطويلة تعني النخلة العالية، نرقاها أي أتسلقها، القصيرة يقصد بها النخلة الجبارة أي الصغيرة، والمعنى أنّ الذي يقال عليه هذا المثل هو صاحب الحجج الواهية غير المقنعة، فيقال في شأنه هذا الكلام، فهو لا يتسلّق لا النخلة العالية ولا حتّى القصيرة، والمعروف أنّ النخلة القصيرة يكون شوكها كثيف والنخلة العالية يقل شوكها حدّة.

1 بن علي محمد الصالح: **الموسوعة السّوفية للأمثال والحكم الشعبية**، ط 1،الوادي، الجزائر: مطبعة سخري، 2012، ص 91.

*** **مولى** يقصد بها المالك، **مايجوعش** أي لا يصاب بالجوع أبدا، أي الذي يملك النخلة لا يحصل له الجوع أبدا، لأن التمر غذاء كامل يستطيع الانسان أن يتغذّى منه مدّة طويلة من الزمن، وحتّى أنّ التمر يباع ويقتنى به مواد غذائية أخرى، ولا ننسى أن أجزاءها تستعمل في العديد من مظاهر الحياة المختلفة، فهي النار للطهي والتدفئة، وهي أدوات الزراعة، وهي التي يصنع منها البيت وهكذا.

**** **صباحك** يقصد به الصباح الباكر، **دقلة** وهي أحد أنواع التمور المفضلة عالميا لحلاوتها ومذاقها اللذيذ، ويقال هذا المثل في تونس كتحية صباحية جميلة، فعندما يلتقي شخص بشخص آخر ويبادر الواحد منهما بالتحية فيقول: صباح الخير يرد عليه الآخر "صباحك دقلة وحليب".

***** **ولد** يقصد بها ابن، **يحلى** بمعنى حلو، ويعني المثل أنّه كل ما تنتجه النخلة فهو حلو، بداية من البلح في جوان، ثمّ المزقون، وبعد ذلك البسر، وأخيرا التمر، فكل ثمارها بمختلف مراحل تكوينه حلو المذاق، وأبعد من ذلك أن كل ما يتعلّق بالنخلة فهو جميل ومرحب به.

****** وهذا البيت الشعري يصف فتاة بأجزاء من النخلة وهو ثمارها، ويقصد براح هو المعصم المظفر كأنّه عرجون البسر، فهو غاية في البهاء والجمال، والبسر سوف نتعرض إليه لاحقا في هذا البحث.

2 محيي الدين خريف: مرجع سابق، ص ص 31، 32.

محدود، وهنا يحدث تبادل اقتصادي، فالأرباع يبتاعون التمر والصوف والأغنام والإبل، ومنتجاتها، ويشترون الحبوب والملابس والأدوات المصنعة"[1]

كما أنّ التائه في الصحراء إذا وجد نخلة تسكن في قلبه الطمأنينة. أي يعني وجود الماء بدرجة أولى، والظل بدرجة ثانية، والغذاء بدرجة ثالثة، وقرب الأنس بدرجة رابعة. فالنّخلة إذن تعتبر رمزا للحياة.

ونتيجة لهذه الأسباب وغيرها جعل من رفع مكانة النّخلة في الثقافة والعادات الخاصة بالمنطقة، بحيث كلّ الأشجار الأخرى والمزروعات لا يمكن أن تقارن بهذه الشجرة.

1 محمد السويدي: **مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1990، ص 168.

2 . الخضر في عادات الغذاء

من البديهي أنّ جل المجتمعات البشرية لها جانب حيواني وآخر نباتي في الوجبات الغذائية المعتادة، والمجتمع بوادي سوف وبحسب المخبر (رقم 6) أنّه في السّابق كان لا يتناول سوى الخضر التي تنبت في المنطقة، وعند البحث عن تلك الأنواع من الخضار تبيّن أنّها كثيرة ومتنوعة، ولكن في مقابلة أخرى مع نفس المخبر عن الأنواع التي كانت أكثر استهلاكا في العادات الاجتماعية الغذائية للمنطقة يقول: كنا نتناول سوى القليل من الخضر، فلا يعدو تقريبا الكابو والبصل والثوم.

وبحسب تحليلنا لو رجعنا إلى الخصائص التكوينية لهذه المواد فكلّها تتحمل التصبير لمدة معتبرة، فالكابو وهو المعروف باليقطين يخزن بمكان به الظل من بداية فصل الخريف إلى غاية بداية الصيف الموالي، وكذلك البصل له قدرة تحمل للتخزين تتعدى الشهور، ولا يفوتنا أيضا مادة الثوم، فهو يتحمّل المحافظة على خصائصه لمدّة طويلة أيضا.

وكنتيجة لهذه المواصفات، وأيضا لطبيعة النشاط الاقتصادي الذي يتميز به السّكان لفترة قريبة وهو الرعي والتجارة المتنقلة على طول المسافات البعيدة، وهناك جزء هام من المجتمع يتميز بصفة الترحال، فالخضر المستعملة في الطبخ يجب أن تكون قابلة للتصبير وللنقل أيضا.

أمّا باقي الخضر، مثل الجزر واللّفت وغيرهما فكان استهلاكها على نطاق ضيّق بحسب المخبرة (رقم 7). وكانت بعض العائلات التي تمارس الزراعة الموسمية في غيطان النخيل تعمد إلى زراعة بعض الأنواع مثل: البرطلاق و البسباس ونبات يسمّى الكرم، وهناك خضار أخرى مثل: الفلفل الحار والفول وغير ذلك.

وأغلب هذه الخضر ينحصر استخدامها في أنواع بسيطة من الأطعمة، كالكسكسي أو بعض الأنواع المحضرة من الخبز، كالمحاجب التي تسمى "المطابيق "وكذلك "كسرة الشّحمة" وما إلى ذلك. فالكسكسي لوحده يحضّر بطرق مختلفة ومتعددة، فهناك كسكسي محضر بالكابو الذي ينتج محليا وله نوعان أساسيان: المزابي والبلدي، وهذا النوع من الكسكسي يطلق عليه إمّا "المفوّر" أو "المسقى" بحسب الرغبة.

والكابو من حيث التكوين "غني بالفيتامين أ . ب وحامض اللوسيد"[1]. ولا يتوقف تحضير وجبة الكسكسي على هذا النوع من الخضر فقط، بل هناك خضار موسمية سبق وأن ذكرناها فهناك الكسكسي بالبرطلاق، ومثله أيضا السبانخ والبْلَيْدَة، وهناك أيضا كسكسي بالْكُرْمْ* ويكثر استهلاك هذا النوع في الشتاء والربيع ولكن بشرط ألّا يكون عشاء بحسب نفس المخبرة.

. أما البصل، فهو خضار أساسي وهو أحد الأنواع النباتية التي تُزرع في المنطقة، فهذا الخضار وقرينه الثوم يكونان في كل قدر، فالمرأة تستعملهما في كل الوجبات الغذائية تقريبا، وهناك نوع يسمّى "المطابيق" التي تسمى "المحاجب" في مناطق أخرى يعتبر البصل مادة أساسية في تكوينها، فتحشى العجينة بخليط من بعض الخضار ويكون البصل هو الغالب عادة.

والبصل خضار مهم منذ القديم، ويستعمل في أغلب الوجبات لدى مختلف المجتمعات الإنسانية، وله فوائد غذائية، وطبية عديدة لاحتوائه على العديد من المواد القاتلة للجراثيم، كما أنّه يليّن الريق، فيقلل من شرب الماء، خصوصا إذا تناوله الإنسان نيئا، كما انه يقي من ضربات الشمس، وبعض الدراسات تشير إلى أنّ من بنوا الأهرامات المصرية كان غذاؤهم الأساسي البصل باعتباره مقوياّ.

وعند رجوعنا للتحليل الإحصائي السّابق، يتبين أن ثقافة الأمثال والحكم الشعبية التي تمت دراستها كانت نسبة الخضار فيها ضعيفة مقارنة بالنخيل والتمر والتي احتلت 75% من مجموع الأمثال التي ذُكرت فيها الثروة النباتية التي تنمو بالمنطقة، فمن خلال هذا يتبيّن أنّ الخضار لا يشكل أهمية بالغة في الحياة اليومية للسكان، ولا يعتبر ضروري في البيوت مقارنة بالتمر والدسم الذي سنتعرض له لاحقا، وفي مقابلة مع المخبر (رقم 4) يقول: "كل حاجة يمكن نتنازلوا عليها في البيت ماعدا التمر هذا محال خْلَاصْ" ويضيف "احنا نركزوا على التمر والسميد والزيت"، ونسبة 12,5% التي ذكرت فيها الخضار كان السّهم الأكبر منها للبصل، ممّا يتبيّن أنّه أهم خضار في الغذاء، حيث ورد في الثقافة الشفهية مثلا مفاده "بُرْمَة بْلاَ بصلة كِي لِمْرَا بْلاَ خَصْلَة"** فهو يستعمل عندهم في كل الوجبات، ويؤكل نيّئا خصوصا في فصل الصيف.

---

1 يحيى محمودي، مرجع سابق، ص 418.

* وهو من النباتات المسقية يستعمل في تحضير وجبة الكسكسي في فصل الربيع عندما تكون أوراقه زاهية وليّنة، ويعتبر من الخضروات المحلية.

** ويعني هذا المثل أن قدر الطهي إذا كان ينقصه البصل فهو مثل المرأة التي تكون بلا خصال حميدة.

3 . أشجار ونباتات مختلفة في ثقافة الغذاء

عند قيامنا بالزيارات الميدانية لمجتمع البحث، وعند النزول إلى الغيطان البعلية، فإننا لاحظنا بعض الأشجار المثمرة تتخلل النخيل، وهذه الأشجار أهمها هي الرّمان، حيث تمتاز بطول عمرها، فسألنا المخبر (رقم 8) عن سبب زراعة الرّمان بين النخيل والابتعاد عن الأنواع الأخرى مثل التفاح والعنب وغير ذلك، فأجاب "إنّ الرّمان يعيش مدّة طويلة من الزمن، والأشجار الأخرى لا، والرّمان نستخدمه في السّابق كأحد المواد في الطبخ خصوصا المطابيق، والرّمان يتحمّل التصبير لمدة طويلة، خصوصا الحامض منه".

وبحسب المخبرة (رقم 9) عن استخدام الرّمان الحامض في الوجبات الغذائية تقول: نضيف الرمان الحامض للمأكولات من أجل إضافة طابع الحموضة للوجبة. فكنّا نطبخ الدشيشة بالرّمان والحساء ومأكولات أخرى.

وبحسب نفس المخبرة فإنّه في السّابق كانت المرأة تحضّر وجبة غذائية متكونة مادتها الأولية من نباتات برية تتمثل في الترثوث أو الذنون*، خصوصا في سنوات نقص الأطعمة عندما كان الاستعمار الفرنسي في الجزائر، وهما نباتان طفيليان ينبتان عندما تنزل المطر بالتحديد، وهذا كما هو موجود في مجتمعات الحضارات القديمة مثل الحضارة المصرية حيث "كان نبات البردي ينمو بكثرة في مستنقعات دلتا النيل، فصنع منه قدماء المصريين الأقمشة والأكاليل واستخدموا ساقه كطعام".[1]
وليس عند المجتمع السّوفي فقط من يستعمل بعض النباتات البرية في الغذاء، فمجتمعات الالتقاط كانت تأكل من الأرض فقط، لعدم وجود الزراعة، وكذلك لعدم وجود تبادل تجاري مع مجتمعات أخرى، ولكن بوادي سوف الذي جعلهم يتناولون هذه النباتات الطفيلية هو الجوع لا غير.

* **الترثوث والذنون** هما نباتان طفيليان ينبتان في صحراء سوف خصوصا في العام الممطر، يلتقطه مجتمع البحث من أجل تناوله في الوجبات الغذائية في أيام الجوع، خصوصا في الأزمات التي حلّت بالمنطقة أثناء تواجد الاحتلال الفرنسي بالجزائر.

1 محمد نزار خوازم وآخرون: **تاريخ العلاج والدواء،الرياض**، المملكة العربية السعودية: دار المريخ، 1990، ص 24.

ثانيا: الغذاء الحيواني

هو غذاء مصدره الحيوانات سواء الحيوانات البرية، أو البحرية أو الطيور، والغذاء الحيواني يعتبر مصدرا أساسيا للبروتينات وهو "يعمل على تجديد ما يهدم من خلايا الجسم وأنسجته، وبناء أنسجة إضافية عند النمو، ... فالبروتينات دائما ضرورية في تركيب وبناء جميع الكائنات الحية، وهي تنقسم إلى بروتينات حيوانية، ومن البروتينات الحيوانية اللحوم، الأسماك، الجبن واللبن والبيض، وبروتينات نباتية ومصادرها الفول، والعدس والبقول"[1]، وبحسب ما لاحظنا في العناصر السابقة، وبحسب المقابلات مع المخبرين يمكن القول بأنّ أفراد مجتمع البحث يركزون في السابق على البروتينات الحيوانية أكثر من النباتية، فالأغذية اليومية كانت تتكون عندهم من النشويات وبعض الخضروات، دون الحبوب بعكس ما يوجد عند قرية "برك الخيام" بمحافظة الجيزة بمصر، حيث يتناولون البروتينات النباتية ويبتعدون عن البروتينات الحيوانية، فنجدهم يتناولون "الفول وهو من أكثر الأطعمة المصرية على الإطلاق، حيث يجعله الفقراء في مقام اللحم، ويتفنن المجتمع المصري في صنعه على أشكال مختلفة، أشهرها الفول المدمس وهو عبارة على فول ناضج بالماء مع قليل من الملح ويمكن إضافة بعض التوابل إن أمكن ذلك، وتوجد "الطعمية" التي هي عابرة على عجينة مكونة من البقدونس والنعناع والبصل والثوم والفول أيضا، وتوجد أكلة "البصارة" ومادتها الأساسية الفول، وتؤكل مع الخبز والبصل الأخضر، ويتناولون أيضا الفول النابت وهو الفول غير المجفف، كما نجدهم يتناولون العدس والبقول الجافة"[2]، ونستنتج من هذا أنّ الفول يعتبر عندهم أشهر أكلة شعبية، بخلاف ما يوجد عند مجتمع البحث، حيث يعتبر الكسكسي والتمر هما أشهر الأكلات اليومية في السابق، وحتّى اليوم لهما أهمية كبيرة.

ولكن في مجتمع البحث يتناولون بروتينات اللحوم بدل بروتينات النبات بخلاف المجتمع المصري، وعلى العموم فالغذاء الحيواني ينقسم إلى قسمين:

. اللّحوم: وتؤكل ناضجة أو نيئة بحسب طبيعة الثقافة، والعادات الاجتماعية لكل مجتمع، وكذا المعتقد الديني.

. الحليب ومشتقاته: وهي تلك السّوائل التي تنتجها الحيوانات، وجملة المواد المستخرجة من الحليب، مثل الجبن والسمن.

---

1 محمد الجوهري وآخرون: **علم إجتماع البيئة**، مرجع سابق، ص 381.

2 المرجع نفسه، ص ص 381.384.

وعلى العموم فإنّ الأغذية ذات المصدر الحيواني تمتاز بغناها بالبروتينات والدهون والفيتامينات المتعددة.

وكما رأينا سابقا أنواع الحيوانات التي تعيش في وادي سوف، فإنّه من الطبيعي أنّ الإنسان يستخدمها في حياته اليومية، كاستخدامها واستعمالها في العادات الاجتماعية المختلفة، ومنها العادات الاجتماعية الغذائية.

ومن خلال المقابلات التي أجريناها مع المخبرين أفادونا بأنّ الحليب يتصدّر الغذاء الحيواني لدى المجتمع بوادي سوف، ثم يأتي في درجة موالية اللّحم سواء لحم الحيوانات البرية أو الأليفة.

1 . الحليب ومشتقاته

اقترن الحليب بالتمر في العادات الاجتماعية الغذائية، ولكن الحليب الذي يُتناول مع التمر هو المنزوع الزبدة الذي يُعرف باللّبن، وأكثر أنواع الحليب رغبة في الاستهلاك سواء في السّابق أو الوقت الحالي هو حليب الماعز، فهو المفضّل لدى الفئات الاجتماعية والعمرية المختلفة، بالإضافة لوجود حليب النوق بدرجة كبيرة خصوصا في البراري وعند البدو الرّحل، أمّا حليب البقر فهو ينعدم بالمنطقة لعدم تربيته الأبقار من طرف السكان، خصوصا في المراحل الزمنية السّابقة، فالسّوفي استأنس الجمل والماعز بدرجة كبيرة.

ولكن كيف يُتناول الحليب؟. فمن العادات الاجتماعية في تناول الحليب سابقا بحسب المخبرة (رقم 10) أنّه يتناول في الصّباح خصوصا في فصل البرد، ويتناول مع التّمر عند الضحى أو عند الزوال، ويمكن أن يشرب في أي وقت آخر.

فالحليب وشربه يمكن أن نقول عنه كان من العادات الشعبية التي تعوّد عليها المجتمع في المنطقة، بحيث كانوا كلّهم يشربونه يوميا، إلّا في حالة عدم توفره، وتربية الماعز دليل قاطع على تشبثهم بهذه المادة، مع العلم بأنّ الماعز يعتبر قليل المردودية من الناحية المالية، ويُفضل عليه الضأن والإبل من هذا الجانب.

ويعتبر الحليب غذاء كاملا بحسب علماء التغذية، لما يحويه من مواد مختلفة، بروتينات، وغلوسيدات وغيرها من المواد المفيدة لجسم الإنسان، فمنذ القدم وبحسب ثقافة كل مجتمع هناك من المستخلصات المختلفة والمستخرجة من هذه المادة، وطبيعة هذه المشتقات تختلف من مصدر إلى آخر، فأنواع المصادر للحليب منها ما هو من الماعز ومنها من الإبل، وآخر من البقر، ففي مجتمع البحث هناك

مصدران أساسيان، هما الماعز والإبل بحكم تكيّف هذين الحيوانين في صحراء وادي سوف، ففي العقود الماضية حاول المجتمع أن يستخرج من الحليب المتوفر والمتاح مجموعة من المشتقات تُستخلص في مجملها كالآتي:

أ . اللّبن

يطلق عليه في ثقافة المنطقة الحليب، ولكن في الواقع أن اللّبن هو الحليب المنزوع الزبدة بعد خضه، ويكون ذا طعم يميل إلى الحموضة نوعا ما نتيجة لترويبه بطرق خاصة، وحسب المخبرة (رقم 10) فإنّ اللّبن يُتناول مع التّمر، ويحبّذ في فصلي الرّبيع والصيف، ففي ذلك يستلذ طعمه بحسب نفس المخبرة، أمّا من حيث النوع تضيف المخبرة فإنّه من العادات الاجتماعية في السّابق كان يُفضل لبن الماعز.

وتناول اللبن في السّابق يكاد يكون يوميا، بخلاف ما وصلت إليه الدراسة في محافظة الجيزة بمصر فإنّ "المجتمع لا يتناول اللبن بدرجة كبيرة، فقد تصل عند العائلات الفقيرة إلى حدّ شرب كوب واحد فقط في الأسبوع رغم أنّ هناك العدد الكبير من يدرك أهمية تناول اللبن لفوائده الغذائية"[1].

ب . الزبدة

بعد ترويب الحليب والانتهاء من مخضه تُستخرج كمّية من الزبدة التي تطفو إلى الأعلى، حيث تأخذ اللّون الأبيض الناصع، أمّا عن جودتها بحسب المخبرة (رقم 10) فإنّ الزبدة الأفضل هي زبدة البرد على غرار زبدة فصل الحر، وهذا حسبها راجع إلى نسبة الماء الموجود فيها، ففي الفصل البارد تكون نسبة الماء في الزبدة أقل من الصيف، لأنّ الماعز في الحر يكثر من شرب الماء.

ومن العادات الاجتماعية في مجتمع البحث بحسب نفس المخبرة أكل الزبدة مع التمر، بحيث تعمد المرأة إلى شق حبّة التّمر وتضع فيها القليل من هذه المادة وتقدّم مع اللّبن أو الماء، وهذه العادة الاجتماعية موجودة عند قبائل نجران بالمملكة السعودية، بحيث "تقوم الأم بوضع التّمر والزبدة المصنوعة من لبن الغنم"[2]، وهذه الأكلة هي من العادات الاجتماعية لدى تلك القبائل وهي أيضا عادة اجتماعية غذائية في وادي سوف خلال العقود الماضية، ويمكن أن نفسّر هذا التشابه بالتماثل في البيئة الطبيعية بين المنطقتين.

---

1 محمد الجوهري وآخرون: **علم إجتماع البيئة**، مرجع سابق، ص ص 388.389. بتصرف.

2 أحمد علي سليمان: **سلوك المستهلك بين النظرية والتطبيق**، الرياض ،المملكة العربية السعودية: مركز البحوث ،2000، ص 190.

وتعمد المرأة بوادي سوف إلى فصل الزّبدة المستخلصة في فصل البرد عن الأخرى المستخلصة في الفصل الحار، لأنّهما يختلفان من حيث الجودة، وهذه العملية تكون في بداية شهر مارس، وعند ذلك الحين تحوّل المرأة بوادي سوف تلك الزبدة المجمعة قبل شهر مارس إلى ما يسمّى بالدّهان أو السّمن وتحضّر وجبة غذائية عبارة عن خبز تقليدي مفتت ومسقّي بالدهان تدعى "المرفوسة" والتي سنتعرض لشرحها لاحقا.

ج . الدّهان

من العادات الاجتماعية الغذائية بحسب المخبرة (رقم 10) هو استخلاص الدّهان أو السّمن، وحسبها تتم عملية استخلاصه بواسطة طبخ الزبدة مع قليل من البصل والثوم مع إضافة الفلفل الحار المجفف مع قليل من القمح أو الشعير المدشش، وهذا الأخير بهدف امتصاص كمية الماء المتواجدة في الزبدة، في حين بحسب نفس المخبرة أنّه يمكن أن يستغنى عن بعض المواد المذكورة بحسب طبيعة الذوق المحبّذ، وبعد مدّة زمنية من الطبخ لهذا الخليط، تذوب الزبدة البيضاء اللّون، وتتحوّل إلى سائل أصفر، وبعد هنيهة تطفأ النّار الهادئة، ثمّ يوضع السّائل العلوي في حافظة، أمّا الذي يبقى في الأسفل يستعمل في تحضير أكلة الرّفيس* وتكون وجبة الغذاء لذلك اليوم.

أمّا عن العادات المتعلقة بتناول واستخدام الدهان، فمن العادة تناوله يكون بوضع ملعقة أو أكثر في الكسكسي، أو يتناول أحيانا لوحده كما هو، خصوصا عند الإحساس بالأمراض الصدرية.
كما أنّ الدهان يخلط مع تمر الغرس ويسخّن على نار هادئة ويعجن الخليط جيدا ويؤكل في شكل "عبابيد" وهي عبارة عن أصابع صغيرة من تمر الغرس يبلع دون مضغ، وعادة ما ينصح بتناوله لدى الفتيات النحيفات فيعمل على تسمينهن بحسب اعتقاد مجتمع البحث.

* **الرفيس** هو أكلة تقليدية عند المجتمع السّوفي، وهو عبارة على تمر من نوع الغرس منزوع النوى ومعجون، يمزج بالدهان ويقدم للأكل مع الحليب، وتحبذ هذه الأكلة في فصلي الربيع والصيف، عند توفر الدهان بكميات معتبرة، وكذلك عندما ينال تمر الغرس حقه من التصبير.

تبين الصورة أكلة الرفيس ويظهر عليها من أعلى أثر أصابع اليد وبلاحظ بريق الدهان الملبس بالتمر

كما أنّه من العادة تناول الدّهان مع قليل من العسل لبعث القوّة في الجسم، فمن العادات الاجتماعية في المنطقة يحضّر كمية من الخليط السّابق ويتناوله الشّاب المقبل على الزّواج، كما يقدّم أيضا ذلك المزيج للشّاب أو الشّابة عند بداية أحقية صيام شهر رمضان*.

وهذا النوع ليس بالضرورة يتم تناوله غذاء في كل المجتمعات، حيث عند الكثير من البدو الأفارقة "لا يستخدمون الزبدة في الطّعام، ويتفقون معهم في استعمالها لدهن الجسم والشعر"[1] ،أي أن دهن الجسم

* **شهر رمضان** هو أحد الشهور القمرية يفرض فيه الصيام على كل شاب بالغ، بحسب تعاليم الدين الإسلامي الذي يدين به مجتمع البحث.

والشعر متواجد لدى المجتمعات الإفريقية ومجتمع البحث، وحسب هذا فإننا نجد الكثير من المجتمعات البدوية في القارّة الإفريقية لا يتناولون السمن أو الدّهان، بل يستخدمونه في دهن الجسم لجعله ليّنا، ودهن الشعر لإعطائه بريقا ولمعانا، كما أنّ الدّهان يمنح ليونة للشعر الأجعد، فيقلل من انكساراته، وهذا الأمر يستعمل في مجتمع البحث أيضا بحسب المخبرة (رقم 10)، زيادة على استعماله كمادّة تجميلية فإنّ مجتمع البحث يستخدمونه في غذائهم باعتقاد منهم بأنّ فيه من الفوائد الغذائية ما ينفع الجسم، حيث يمنحه الطاقة باعتباره مادّة دسمة، والدّسم غذاء مهم بحسب اعتقاد المجتمع، فمن خلال الملاحظة الميدانية فإنّ الدّهان الطّبيعي يكون في وجبة الكسكسي حتّى وقت الدراسة الميدانية، ولكن إذا كان هناك ضيوف فيكون استعماله في هذه الوجبة ضروريا، إلاّ إذا لم يكن موجودا، فالكسكسي بالدهان يفرح الضيف، ويعتبر مقياس مفخرة لصاحب البيت، لما له من قيمة عن أصحاب المنطقة، فعند المصريين "أنّه كلما زادت كمية السمن في الطعام، كلما دل ذلك على مهارة المرأة، وعلى اهتمامها بالطعام وإعطائه المذاق الطيّب، كما أنّه يعطي تميزا للأسرة من حيث المستوى المادي الذي تعيش فيه"[2]، ومن خلال الملاحظة أيضا فإنّ مجتمع البحث يحرص على تناول وجبة "المسفوف"* في شهر رمضان عند "السّحور"** وهذه الوجبة تحضر بالدّهان البلدي إن وجد، وإذا لم يوجد يعوّض بسمن آخر أو زبدة صناعية.

والمسفوف ليس وليد الفترة المعاصرة فحسب، بل كان يتناول في هذه المناسبة منذ العقود الماضية بحسب نفس المخبرة.

د . الجبن

يعتبر الجبن من أهم المواد المشتقة من الحليب، وله عدّة أصناف مختلفة بحسب طريقة التصنيع والعادات الاجتماعية لكل مجتمع، ففي مقابلة مع المخبرة (رقم 10) تبيّن أنّه في السّابق كانت المرأة بوادي سوف تصنع الجبن بطريقة تقليدية بحته، أمّا عن طريقة صنعه تفيدنا المخبرة بأنّ النّساء كنّ يعمدن لوضع جزء مع أمعاء أحد الحيوانات المذبوحة في كمّية من الحليب، وهذا الجزء يطلق عليه أهل المنطقة . المنفاح . فيربط هذا المنفاح مع القليل من الملح ويعلّق في الهواء الطلق، ويترك إلى

---

1 عاطف وصفي : مرجع سابق ، ص 228 ، بتصرف .

2 محمد الجوهري وآخرون: علم إجتماع البيئة، ص 395.

* هو عبارة على كسكسي مفور على قدر به ماء، وبعد نضجه يمسّح هذا الكسكسي بالدّهان مع القليل من السّكر، ويمكن إضافة حبات زبيب وهو نوع من العنب المجفف

** **السحور** هو وجبة غذائية تتناول قبل طلوع الفجر في شهر رمضان، وبعدها يمسك الصائم عن تناول أي غذاء أو شراب.....

غاية أن يجف تماما، ثمّ بعد ذلك يسحق ويخبأ، وفي كلّ مرّة تؤخذ منه كمّية وتوضع في إناء فيه قدرا من الحليب، ثمّ يعلّك بواسطة الأصابع حتى يتجمد المزيج ويصبح جبنا صالحا للاستهلاك، ومن خصائصه هناك طريقة ثانية لتحضيره، بأن تعمد المرأة لوضع كمية من ذلك المسحوق في كمية صغيرة من الصوف وتنقع في الحليب حتى يتخثّر ويجمد فيصبح جبنا صالحا للاستهلاك.

2 . اللّحوم

كما ذكرنا سابقا بأنّه يعيش في صحراء وادي سوف عدد من أنواع الحيوانات، فمنها ما يندرج ضمن الحيوانات ذات اللّحوم الحمراء والأخرى ذات اللّحوم البيضاء.

وفي مجتمع البحث تعطى أهمية كبيرة لهذا الصنف من الغذاء اعتقادا منهم أنّ له فوائد كبيرة للجسم ويبعث القوّة له، وهذا ما ينصح به علماء التغذية، بحيث "تشير التوصيات الغذائية إلى أنّه يجب على الفرد أن يتناول قطعة متوسطة من اللحم لا تقل عن مائة غرام"[1] هذا في اليوم الواحد، وعلى العموم وما إستخلصناه من خلال المقابلات التي أجريناها مع أغلب المخبرين بأنّهم كانوا يتناولون نوعين من لحوم الحيوانات، لحوم الحيوانات المستأنسة ولحوم الحيوانات البرية، أمّا الأسماك فلم تكن موجودة في السّابق بحكم بعد المنطقة عن الشواطئ والسواحل البحرية، بل ما عدا الأسماك المصبّرة في العلب إلا أنّها كانت نادرة، وهناك الأسماك المجففة وتسمّى "وزف" وتوضع في بعض الأكلات الشعبية كـ "البركوكش" و"الدشيشة".

أ . لحوم الحيوانات المستأنسة

لقد استأنس السّوفي عددا من الحيوانات، إلّا أنّها ليست صالحة للأكل كلّها، فقد استأنس الحمار والبغل وغير ذلك إلا أنّه يبتعد عن أكل لحومها حسب اعتقاد ديني حسب أهالي المنطقة.

ففي أحد المقابلات مع المخبر (رقم 1) تبيّن أنّ المجتمع يتناول لحم ما استأنس من الحيوانات، لحم الجمل والضأن والماعز والدجاج، ففي سؤال لهذا المخبر طرحناه عليه مفاده: حدثنا عن أكلكم للحوم هذه الحيوانات؟ فأفادنا بأنّهم كانوا يحبذون لكل فصل من الفصول نوعا معينا، ففي الخريف يركزون على لحم الجمل بحيث يرون بأنّ لحمه مفيد لهذه الفترة، لأنّ الإبل تكون في الخريف في أحسن قوامها، لذلك تفضّل عن باقي اللّحوم، أمّا لحم الماعز فيحبذ تناوله في الصيف نظرا لأنّ الماعز في هذا الفصل يكون بدينا خصوصا صغارها التي تدعى "الجديان" في اللهجة المحلية للمنطقة، ويكون سنّها صغيرا بحيث من العادة تولد في نهاية الشّتاء أو في الرّبيع، فعند فطامها وتركها ترعى بنفسها فلا يبلغ سنّها الحول إلاّ وتذبح، لأنّ لحمها بعد ذلك لا يكون ليّنا، وبالتّالي يفضل أكلها في الصيف عندما يكون سنّها خمسة أو حتى ثمانية أشهر، ويضيف المخبر نفسه بانّ لحم الماعز له فوائد طبية

1 محمد الجوهري وآخرون: **علم إجتماع البيئة**، مرجع سابق، ص 385.

لجسم الإنسان، وهذا يتوافق تماما مع مجتمعات الحضارات القديمة بحيث "استعمل الماعز كعلاج في الحضارة المصرية القديمة اعتقادا منهم بأنّه يمنحهم الصحة والشفاء"[1].

أمّا عن لحم الضأن، فيستحسن أكله في الرّبيع عندما يأخذ كفايته من الأعشاب فيكون سمينا وطريا، أمّا في الشّتاء فتؤكل كل الأنواع ما عدا الماعز لأنّه بحسب المخبر نفسه أنّ هذا النوع يشحبه البرد كثيرا ولا يكون بدينا.

أمّا ما يتعلق بلحم الدّجاج فنادرا ما يستعمل، لأنّه قديما وفي البوادي يكون الدّجاج إمّا نادرا أو معدوما أصلا.

وقد طرحنا سؤالا على المخبر مفاده: ولكن هل كنتم تأكلون لحومها أم لا ؟ . فأفادنا بأنّه بالنسبة للعائلات غير الرحل، كانت المرأة تحضن البيض الملّقح، وعندما يكون عمرها حوالي أربعين يوما يميّزون منها الذكر الديك ويدعى عند أهل المنطقة "السردوك" فيذبح، ويؤكل، وتحدث هذه العملية في فصل الصيف عادة، أمّا الأنثى فتربى لإنتاج البيض، ولكن المجتمع لا يعتبره لحما ذا أهمية، فكان يطبخ عند تحضير الكسكسي فقط.

وأفادنا المخبر (رقم 11) بأنّه في السّابق كان اللّحم الأكثر تناولا هو لحم الإبل، والمعروف أنّ أهل المنطقة كانوا يولونه أهمية كبيرة جدا، فلماذا هذا الأمر؟ هنا يجب علينا توضيح مكانة الإبل عند المجتمع.

في بادئ الأمر نعرج إلى التحليل الإحصائي لثقافة الأمثال والحكم الشعبية السائدة في المنطقة ومن بين 1500 مثلا وحكمة شعبية مدروسة وجدنا منها 200 تكررت فيها أسماء الحيوانات التي تعيش في هذه البيئة الصحراوية، أي بنسبة 13.33% من مجموع الأمثال ككل، وهي عبارة على 76.04% بالنسبة لجملة الأمثال التي تكررت فيها ألفاظ بيئية، وعند تفصيلنا لهذا الأمر تبيّن لنا أنّ الحيوانات الأليفة تكررت 94 مرة، وهذا العدد يشكل نسبة 47.00% من جملة الحيوانات التي تكررت وعددها 200 مثلا وحكمة، كما يوضحها الجدول الآتي:

1 محمد نزار خوازم وآخرون: **تاريخ العلاج والدواء**، الرياض، المملكة العربية السعودية: دار المريخ، 1990،ص 30، بتصرف.

جدول 2 يوضح توزيع الحيوانات الأليفة في الأمثال والحكم الشعبية

نوع الحيوان	التكرار	النسبة
الجمل	33	%35.10
الماشية	29	%30.85
الحمار	11	%11.70
القط	11	%11.70
البغل	10	%10.63
المجموع	94	%100

ونلاحظ من خلال الجدول (رقم 2) بأنّ الجمل هو الذي تصدّر تلك الأنواع من الحيوانات، بحيث وصلت نسبته إلى 35.10% وتليها نسبة الماشية 30.85% ونجد أنّ النسبتين شكلتا الثلثين من جملة الحيوانات الأليفة التي تكررت، فما تفسير ذلك؟ وذلك ما سنعرفه في الآتي:

❖ **صورة الجمل في الثقافة الشفهية**

بلغة الإحصاء نستطيع أن نقول بانّ التكرارات المتعلقة بالجمل تمثل المنوال، وهو التكرار الأكثر شيوعا، فقد شكل نسبة 35,10%، هذا من جملة الحيوانات الأليفة التي وردت في البيانات الإحصائية، وذلك ما يستدعي الوقوف عند هذا النوع بشيء من التفسير والوصف والتحليل.

ـ ما هو الجمل؟

الجمل حيوان كبير الحجم، له أربعة قوائم ذات السيقان الطويلة، ويملك أقدام مسطحة لتسهل له الحركة والمشي فوق الرمال بسهولة، ويملك قوّة تحمّل كبيرة تتأقلم مع طبيعة المناخ الصحراوي الجاف.

وينقسم الجمل إلى أنواع، تعيش في الصّحراء العربية جميعها بما فيها صحراء العرق الشرقي الكبير بالدولة الجزائرية، وهذا النّوع الذي يعيش بوادي سوف له ألوان أشهرها الأحمر والبني والأبيض والأسود والرمادي.

استئناس الجمل

لقد اقترن حيوان الجمل بحياة البداوة، ويطلق على البدو بلقب رعاة الإبل، وهم الذين يعيشون حياة الحل والترحال، ويتوغلون في أعماق القفار الصّحراوية، ويرى الأنثروبولوجيون وعلماء الحيوان أنّ استئناس البعير كان منذ القديم، ويقدرون ذلك بأربعين قرنا مضت، أي جاء بعد استئناس النّخلة التي يعود اكتشافها إلى ثمانين قرنا مضت.

وفيما يتعلّق باستئناسه، نستطيع القول بأنّه "لم يكن استئناسا تلقائيا، بل مر بعدة مراحل متدرجة، ففي البداية بدأ الإنسان بصيده لأكل لحمه ثم رعايته من أجل حليبه، ووبره من أجل اللباس والغطاء، ثم بعد ذلك استخدم في الركوب، وبعدئذ لحمل الأثقال، واستخدم بعد ذلك لأغراض الحروب، أمّا اليوم فهو يستخدم لأغراض السلم دون الحرب نظرا للتقدم التكنولوجي"[1].

فمن خلال هذا فإنّ الجمل له أهمية كبيرة في حياة المجتمع، فهو مصدر غذائي ويستخدم منه اللباس كما يشكل وسيلة نقل بامتياز خصوصا في الصحاري وحياة البدو، كما لعب دورا هاما في الحروب القديمة وغير ذلك من حاجيات المجتمع اليومية.

وبالنسبة لطبيعة الحياة في وادي سوف فهي عبارة عن حياة بدوية لفترة طويلة من الزمن، فمثله مثل كل المجتمعات البدوية استأنس الجمل، ورغم التقدّم الذي عرفته المنطقة والحياة الثقافية لهذا المجتمع، إلا أنّ الجمل لازال يحتل مكانة عالية في الوسط الاجتماعي، وهذا بحسب الملاحظة الميدانية، بحيث هناك رعاة للإبل في مختلف الجهات من الصّحراء بوادي سوف، كما أنّ وبره يصنع منه أجود أنواع القشابية، ولا يزال إلى اليوم يذبح ويؤكل لحمه خصوصا الصغير في السّن، الذي يسمّى في المنطقة بـ "الحاشي"، كما أنّ حليب النّوق يبحث عنه السكّان من مكان إلى آخر، إعتقادا منهم أنّه يشفي العديد من الأمراض خصوصا المزمنة منها.

والسّؤال المطروح هنا بحسب الأرقام الإحصائية الموجودة في الجدول السّابق هو: لماذا شكّل الجمل من بين الحيوانات الأخرى التي تعيش في المنطقة هذه النسبة المرتفعة في الثقافة الشعبية؟ وحتى نجيب على هذا التساؤل تجدر الإشارة إلى الحديث عن الوظائف التّي يقدّمها الجمل لهذا المجتمع، وما هي المميزات التي أدّت إلى تفضيله عن الحيوانات الأخرى؟

---

1 سعد الصويان: **البداوة و البدائية**، مجلة إضافات، العدد الخامس، شتاء 2009، ص 85، بتصرف،

صفات الجمل وأهميته

إنّ صحراء وادي سوف تتميّز بصعوبة مناخها وقسواته، ووعورة تضاريسها الرّملية، فهذه المنطقة جافة في أغلب أشهر السنة، ورمال هذه الصّحراء رقيقة لها ميزة التحرّك المستمر، وبالتّالي فإنّ أثر السير يختفي جراء عوامل الرّياح، وفي حالة اختفاء أثر الأقدام فإنّ الصحراوي يصعب عليه معرفة الطريق الذي يعتاده رغم الفراسة التّي يتميّز بها أهل البدو، ولكن حيوان الجمل يغطي هذا العجز، فهو يمتاز بمعرفة السّبل التّي مرّ عليها سلفا ولو بعد حين، حتّى ولو غطّت الرّمال الطريق التي مرّ عليها.

تمثل الصورة جمل بني اللون وأمامه مالكه، أرجله مربوطة بحبل لتقليل سرعة المشي

وبحسب هذه المعطيات، فإنّ البدوي عندما يتيه في الصّحراء وتختلط عليه السبل يتّخذ الجمل دليله، فيوصله للمقصد، وأهم مقصد هو البئر أو المكان الذي يعتاده الجمل من قبل، وهذا راجع لدراية الجمل بالصّحراء أكثر من غيره، وبحسب هذه الصفة المميزة فإنّ البدوي ضرب لذلك مثلا شعبيا مفاده "سُوقْ الْبِلْ تِعْرِفْ اَشْوَارْهَا"*.

* يعني هذا المثل بأنّك إذا قدت الإبل فإنّها تعرف السبل التي مرّت عليها سابقا، ومن بين تلك السبل هي المؤدية إلى أماكن المياه.

وكنتيجة لهذا، فإنّ البدو يصفون الإبل بالذكاء الحاد، لأنّها "تتمتع بذاكرة قوية تستطيع معرفة الأماكن التي تربّت بها، والبدو إذا تاهوا في الصحراء فإنّهم يتركون الإبل تمشي لوحدها وتقوم بتوصيلهم إلى المكان الذي يريدون من خلال إدراكهم إلى أين هي ذاهبة في ذلك الوقت حتّى لو كان الضباب"[1] وانعدام الرؤية، ممّا يساهم في إنقاذ حياة الرّاعي في حالة إحساسه بالعطش الشديد وفقدانه للماء.

ومن صفات الجمل أيضا الصّبر والتحمل الشديدين، بحيث يمتلك قدرة تحمل العطش لمدة معتبرة خصوصا في فصل الشّتاء، وهذا ما يدل على أنّه يملك قدرة تخزين عالية للماء، نظرا لمواصفات بيولوجية يختص بها، كما أنّه "معروف عن الجمل قدرته على تحمّل الجوع كونه يتغذّى أثناء فترات الترحال الطويلة على كمية الدّهون المخزّنة داخل سنامه، أمّا تحمله وصبره عن العطش فيعود إلى أكياس صغيرة على حافة المعدة تسمح باختزان كميات إضافية من الماء، وفي حالات العطش تفرغ هذه الأكياس ما بها من ماء بالمعدة ذاتيا أو طبيعيا، وبالتدرج أثناء استدراره الدّهن من السنام"[2] .

كما أنّ الجمل يستخدم عند سكّان الصّحراء لحمل الأثقال والتّنقل بها في جيوب الصّحراء الرّملية، فلا تحول دونه وعورة الطّريق أو صعوباته، خصوصا أنّ الرّمال المتراكمة لها صفة الهشاشة، نظرا لأنّ الجمل له أقدام مفلطحة من الأسفل، وبالتالي لا تغوص في عمق الرّمال، حيث وصف في الشعر الشعبي بأنّه يتحمّل صعوبة التنقل ببيت شعري مفاده:

فِي أَرْضْ خَالْيَهْ يُعْقُبْ اِفُوتْ فِي لَوْعَارْ وْاشْبَاكْ الْرَمْلْ*

ومن هنا يتضح أنّ الحياة الاجتماعية في هذه المنطقة تحتاج إلى مثل هذا الحيوان حتّى يتسنّى للإنسان الترحال والتنقل بسهولة كلّما تطلّب الأمر ذلك، مثل الترحال من مرعى إلى أخر أو عند النزول إلى المناطق السكنية خصوصا عند قدوم فصل الصيف.

ومن المعروف أنّ الإبل يتحكّم فيها جمل واحد يدعى "الفحل" والباقي نوق، فهو الذي يحرسها ويمارس معها التزاوج مهما كان عدد النوق التي برعايته، ففي موسم التزاوج وفي حالة الهيجان الجنسي لا يقبل هذا الفحل بأي حال من الأحوال دخول فحل آخر إلى قافلته ويتزاوج مع نوقه، فإذا

---

1 www.mbahrain.net/vd/showthred.php?t 228182. 15/11/2011.14h

2 صلاح مصطفى الفوال: **علم الاجتماع البدوي**، الموسوعة العربية للعلوم والتنمية، القهرة، مصر: دار غريب، 2002، ص 390.

* يعقب ويقصد بها يمر ، لوعار يقصد بها الطرق الصعبة المسالك.يقصد هنا الجمل، فهو يستطيع المرور حتى في الأراضي الرملية الوعرة

حصل ذلك فتكون الكارثة لانّ "الجمل غيور على الإناث، فلو قدم جمل آخر إلى القطيع في موسم الشّتاء، فإنّ هذان الجملان يتقاتلان حتّى يصلا أحيانا إلى الموت إذا لم يقم الرّاعي بتفرقتهم"[1].
فالجمل إذن له ميزة الغيرة الشديدة على إناثه، فهو أكثر الحيوانات ميزة في هذا الأمر.

يعتبر الجمل رأسمال مهم جدا عند أهل سوف، فهو حيوان مقدّس جدا فإذا باع شخص جمله فانّه لا محالة قد وقع في مشكل عويص، والمثل الشعبي يقول "لا بايع عنها لا ناقة ولا جمل" أي أن بيع الجمل مستبعد جدا حتّى في حالة الكربة العويصة.

فالجمل في ثقافة هذا المجتمع لا يهان بأي حال من الأحوال لأنّه يشكّل حيزا مهما في القيم الاقتصادية والاجتماعية المحلية، بحيث أنّ كثرة الجمال وملكيتها من طرف شخص معين يعني ذلك الثراء والبحبوحة، ويرسم هذا الشخص لنفسه مكانة اجتماعية مرموقة في الوسط الاجتماعي.

ومن المعروف عند أهل المنطقة أنّ موت الجمل يصاحبه حزن مالكه سواء لفقدان جزء من رأس المال أو شماتة الغيورين منه، فيقول المثل الشعبي "ما بِيَاشْ مُوتْ بِعِيرِي بِيَّا شْفَايِةْ الْعِدْيَانْ"*.
وهذا ما يدل على أن للجمل مكانة محترمة في الأوساط الاجتماعية.

مكانة الجمل

بحسب التحليل السّابق يتبيّن بأنّ الجمل له أهمية كبيرة في الحياة الاجتماعية لسكّان وادي سوف، فهو يعمل على تكيّف المجتمع مع الوسط الطبيعي الصّحراوي، وعلى استقراره، بحيث كان له دور فعّال في تسهيل العيش والحياة، حيث يعرّفهم بالمسالك المعتادة، كما يملك صبرا كبيرا في التحمّل.

فالجمل هو المركب الأول منذ فترة ليست ببعيدة، وبحسب الملاحظة فهو حتّى اليوم يستخدم لهذا الغرض، فلا تهمّه الظروف الطبيعية ولا المناخية، فلا يتأثر بهبوب الرّياح مهما كانت قوّتها ولا المطر الهاطلة، ولا حتّى الحرارة الشديدة، فبدون منازع يعتبر أفضل مركب في القفار الصّحراوية.
والناقة أمدّت المجتمع بأفضل أنواع الألبان، وإلى اليوم لا يزال لبن الناقة هو المفضل، فسعره يساوي خمسة أو ستة أضعاف حليب الأكياس الموجودة بالأسواق، باعتقاد منهم أنّه نافع لجسم الإنسان ويعالج عدّة أمراض مستعصية، ويفيد في صلابة العظام نسبة لصلابة عظام الجمل.

---

1 الموقع الالكتروني السابق، في نفس التاريخ ونفس الوقت.

* **ما بياش موت بعيري** وتعني هذه الجملة أنني لست متحسرا على أن جملي قد مات. ولكن "**بيا شفاية العديان**" أي شماتة الأعداء.

والفائدة الأخرى التّي جعلت من الجمل له مكانة محترمة في المجتمع هو أنّه يمدّ بالكساء، فقد استخدم وبره في صناعة الملبوسات خصوصا الشتوية منها، كما تصنع من وبره الخيام، ويستعمل جلده في صناعة الأحذية، كما أنّ الوبر يصنع منه الفراش والغطاء.

مما يعني أن حياة المجتمع مرتبطة ارتباطا كبيرا بالجمل نتيجة للفوائد والمنافع التي يقدّمها هذا الحيوان.

وبالتّالي، فالجمل دخل في مركبات الثقافة الشعبية بوادي سوف، وتغلغل في أجزائها المختلفة سواء المادية أو اللاّمادية، وكنتيجة لهذا فقد تصدّر قائمة الحيوانات المذكورة في الأمثال والحكم الشعبية الخاصة بالمنطقة، ومقارنة بالمجتمع النوبي بمصر، فالجمل يأتي بعد البقر في المكانة "حيث يأتي الجمل بعد البقر مباشرة من حيث الأهمية .....وتقوم الجمال بدورها المألوف في نقل الأحمال "[1].

أمّا بالنسبة لمجتمع وادي سوف فإنّ الجمل يأتي في المرتبة الأولى من حيث أهميته، لأنّ المجتمع السّوفي البدوي لا يقوم بتربية الأبقار، ولكنّه يعتمد على تربية الإبل بالدرجة الأولى.

❖ صورة الماشية في الثقافة الشفهية

تطلق في منطقة وادي سوف كلمة الماشية على الضأن والماعز معا، بل أن العديد من النّاس لا يطلقون الماشية في كلامهم اليومي سوى على الضأن دون الماعز، وقد استأنس المجتمع هذا النوع من الحيوان في العقود الأخيرة لأنّه في القديم لم تكن سوى الجمال، ففي مقابلة مع المخبر (رقم 11) أوضح أنّ الجمل له عمق في ماضي المنطقة ويستدل بحسبه أن السكّان يذبحون جملا في عيد الخريف ليس لأنّه يناسب المناخ، بل لأنّ الغنم لم تكن موجودة في السّابق.

وربما يرجع هذا التأخر في استئناس الغنم حسب تحليلنا الخاص هو أنّ الحياة في المنطقة كانت بدوية تعتمد على الترحال، فمن الصّعب بمكان الاعتناء بهذا النوع من الحيوان لصعوبة هذه الصحراء والظروف المناخية القاسية لأنّه لا يتحمّل المطر الشديد، ولا درجة الحرارة العالية، مع العلم أنّ حياة الترحال والتنقل ليس من السهل توفير الظروف الملائمة، كما أنّ هذا النوع لا يتحمّل العطش فإنّه يحتاج لشرب الماء يوميا وأكثر من مرّة خصوصا في فصل الصيف.

ولكن ليس من أن الماشية لم تكن موجودة بتاتا عند السكان، لكن كانت قليلة جدا، فقد وجد الماعز وهذا للإستنفاع بحليبه ومشتقاته، لأنّ الماعز بإمكانه العيش بقليل من الأعشاب وقشور الخضر المستعملة أو الغذاء المتبقي من طعام العائلة، وهذا بخلاف الوقت الحالي فإن الضأن أكثر عددا من

1 محمد الجوهري: مرجع سابق، ص 456.

الماعز، وتربية هذا الأخير أصبحت تقريبا بحسب الملاحظة الميدانية داخل البيوت، فأغلب الأسر في المنطقة تملك عددا من الماعز وهذا من أجل الحليب بدرجة كبيرة.

ولكن من خلال الأرقام المذكورة في الجدول السابق يتبين أن الماشية احتلت مرتبة بارزة في الثقافة الشفاهية لثقافة المنطقة، واحتلت المرتبة الثانية بعد الجمل مباشرة.
فالماشية شكلت نسبة تكرارات قدرت بـ 30,85 % في ثقافة الأمثال والحكم الشعبية. وهذا ما يدل على أن هذا النوع من الحيوان يستدعي التحليل نظرا للدلالة الإحصائية التي شكلها في الثقافة الشعبية.

. أنواع الماشية في وادي سوف

امتلك المجتمع بوادي سوف نوعين من الماشية، فمن خلال الملاحظة تبيّن أنّ الماعز والضأن هما اللّذان يعيشان في المنطقة ولا توجد أنواع أخرى، ومن حيث تربية هذا النوع نجد بأنّ الضأن هو الذي يتصدّر الترتيب، وهذا راجع لثقافة الغذاء عند أهل المنطقة فهي تركز على لحم الضأن بدل الماعز، ولكن في السّابق كان امتلاك الماعز هو المتميز بحسب الأرقام الإحصائية التي بينها التوزيع في الثقافة الشفهية للمنطقة.

جدول 3 يبين أنواع الماشية وتكراراتها في الأمثال والحكم

نوع الماشية	التكرارات	النسبة المئوية
الماعز	25	%86.20
الضأن	04	%13.80
المجموع	29	%100

من خلال الجدول رقم 3، يتبيّن بأنّ الماعز شكل نسبة 86.20% فقد دخل ثقافة المجتمع بدرجة أكبر من الضأن التي كانت نسبة تكراراته 13.80%، وهذا دليل على أنّ الماعز يشكّل أهمية بالغة في الحياة الاجتماعية عامة، فما هو السبب في ذلك؟
هذا ما سنكشف عنه من خلال التحليل الآتي.

. دور الماعز في الحياة الاجتماعية

شكلت النسبة 86.20% لتكرارات الماعز بحسب الجدول السّابق مجالا يستدعي التحليل والتفسير.

. بالنسبة لاستئناس الماعز من الناحية التاريخية كان سابقا للضأن بحسب المقابلات التي أجريت مع المخبرين، حيث يقول نفس المخبر السابق عندما طرحنا عليه السؤال: لماذا في أمثالكم يتكرر الماعز أكثر من الضأن؟ فأجاب بأنّه في السّابق كانت المعزة بجانب الجمل نظرا لسهولة تغذيتها ومقاومتها للظروف المناخية.

أما المخبر رقم (12) يقول بأنّ المعزة في السّابق أهم من النعجة والخروف نظرا لأنها حلوب ونحن نحتاج للحليب خصوصا عند تناوله مع التّمر.
ومن خلال الملاحظة الميدانية تبيّن حتّى اليوم بأنّ السكّان يحبذون امتلاك الماعز في البيت، فلا يكاد يخلو بيت منه، خاصّة في القرى والمداشر، بل وحتّى في المناطق الحضرية يلاحظ أنّ عددا هاما من السكّان يمتلكون الماعز، ويخصّص في أغلب المنازل مكانا خاصا للماعز يسمى "الكوري". وبحكم هذا التواجد للماعز ومشاركته حياة السكّان دخل في ثقافة المنطقة منذ زمن بعيد.

فالماعز إذن على احتكاك مستمر مع السكّان، فضربت به بعض الأمثال الشعبية، أمّا الضأن فحتّى إن وجد فإنّه يكون بعيدا عن البيوت، والعناية به من اختصاص الرّجال دون النّساء، أمّا الماعز فهو من اهتمامات النّساء، فالمرأة هيّ التّي ترعى المعزاة، وتحلبها، وتعتني بها لأنّها تحتاج لعناية مستمرة ويومية.

ب . لحوم الحيوانات البرية

لم يكتف السّوفي بتناول لحوم الحيوانات التّي يستأنسها في السّابق، بل تعدّى إلى تناول لحوم بعض الحيوانات البرية، ففي مقابلة مع المخبر (رقم 1). موضوعها عدد المرات التّي يتناول فيها السّوفي اللّحم تبيّن أنّه في السّابق لا يتناولون اللّحم بكثرة، فربّما تصل المدّة إلى الشّهر عند الرّحل خصوصا، ولكن عند طرحنا له سؤالا آخر، هل تتناولون لحوم حيوانات برية أخرى؟ أوضح بأنّهم كانوا يتناولون ذلك. مثل الجرد والجراد والاسقنقور وغير ذلك.

وهذا لا ينطبق على المجتمع السّوفي فحسب، بل بيّنت بعض الدّراسات أنّه حتّى قبائل الشوشون فإنّهم " يتناولون الجندب*... إذ كانوا يشوونها ويأكلونها "[1] .

* الجندب هو الجراد الكبير الحجم.

1 عاطف وصفي: مرجع سابق، ص 190.

وفيما يخص الجنادب فهي تأتي في أوقات متفرقة ومتباعدة، وعند قدومها فهي تقضي على النباتات بصفة تضر بها، ولكن في مجتمع الدراسة كانوا يعمدون لاصطيادها وذلك يكون ليلا، أمّا عن طريقة أكلها وتحضيرها فيورد الدكتور "حسان الجيلاني" وصفا لذلك قائلا "أمّا في الصباح فإنّ الوالدة تقوم باكرا وتشرع في التحضير لتلك الوجبة الشهية من الجراد الْمُقَمَّحْ* في زمن الجوع، والفقر، فتنصب تلك "الْبُرْمَةْ"** الكبيرة وتعبئ نصفها بالماء وتضعها على نار حامية وتضع فيها قليلا من الملح، ثم تحضر ذلك الكيس المليء بالجراد وتفتحه على عجل، لتعبىء يدها منه وترميه في البرمة بسرعة، وهكذا تكرر العملية عدّة مرّات حتّى تمتلىء البرمة بالجراد الذي يتطاير بعضه، والبعض الآخر يكون مصيره الطهي ...، فيستوي الجراد ويصبح جاهزا للأكل، ويكون طعمه شهيا، وأحيانا يتم نشره في الشمس وتجفيفه، فيحفظ ويتم تقسيطه على أيام عدّة"[1] فهم يقومون بطبخ الجراد كما هو في قدر من الماء به الملح، ثم ينشرونه ليجفّ، وبعد ذلك يقومون بتناوله، وهناك من يشويها مباشرة ويتناولها كما هو الحال عند قبائل الشوشون الذين يشوونها على النار.

وعند قدوم فصل الرّبيع تخرج زواحف الإسقنقور فيصطادونها ويقومون بذبحها وشويها، كما يتناول في مجتمع البحث مجموعة من الحيوانات البرية الأخرى سواء للتغذية أو لأغراض أخرى تتعلق بالتّداوي وغير ذلك، وفي السّابق أيضا وبحسب المخبر (رقم 11) وبالخصوص عند البدو كانوا يتناولون لحم الكلاب وكذلك الذئب.

وفيما يخص هذا الحيوان الأخير فإنّه أثّر في ثقافة المنطقة بشكل واضح بحيث عند تحليلنا للأمثال والحكم الشعبية لاحظنا أنه تكرر بشكل بارز في هذه الثقافة الشفهية.

❖ الحيوانات البرية و علاقتها بالحياة الاجتماعية

تعيش في صحراء العرق الشرقي الكبير من الصحراء الجزائرية جملة من الحيوانات البرية منها ما شكل خطرا على الحياة الاجتماعية، ومنها ما كان مسالما ونافعا في أحيان كثيرة، ومن الجدول الآتي يتضح أن هذا الصنف من الحيوانات دخل الثقافة وشكّل جزءا هاما في الأمثال والحكم الشعبية المتداولة في الوسط الاجتماعي العام، وكانت نسبة هذه الحيوانات 27.50% من مجموع الحيوانات التي تكررت في هذه الثقافة، وهذه النسبة معتبرة إلى حد بعيد.

---

* **المقّمح** نسبة للقمح، وهذه الصفة تطلق على الجراد المليء الذي نال سهما وافيا من الأعشاب.

** **البرمة** تعني القدر

1 حسّان الجيلاني: **قصة العودة**، مرجع سابق، ص ص 49 ، 50.

جدول (رقم 4) يبين وحدة الموضوع في صنف الحيوانات البرية للأمثال والحكم الشعبية

نوع الحيوان	التكرارات	النسبة
الذئب	23	%41.81
الكلب	16	%29.09
الفأر	12	%21.81
الغزال	04	%07.27
المجمـوع	55	%100

من الجدول رقم 4 يتضح أنّ النسبة العالية شكّلها الذئب، وتلاها الكلب، ثمّ الفأر، وأخيرا الغزال، فالذئب يبدو أنّه على علاقة وطيدة بحياة السّكان، وشكّل جزءا هاما في ثقافة المجتمع، فما هو السبب في هذا الأمر؟ هذا ما سنجيب عليه لاحقا.

. علاقة الذئب بالحياة الاجتماعية

الذئب هو حيوان بري، لا يألف الإنسان أبدا، يعيش في صحراء وادي سوف، وهو في صراع دائم مع الرعاة ومربي المواشي، ونحن نعرف بأنّ الحياة الاقتصادية لبدو سوف تعتمد على الرعي وتربية المواشي، والرعي في أغلبه يكون في جيوب الصحراء الشمالية من وادي سوف التي تنبت فيها بعض الأعشاب الرعوية، أو عند المربين القارّين تكون أكواخهم بعيدة نوعا ما عن المناطق السكنية، فعند الرّحل في غالب الأحيان لا يكون لهم أكواخ محمية تبيت فيها المواشي، فهي معرضة لأخطار متعددة، وبحكم وجود الذئب في هذه الصحراء فقد شكّل خطرا على الأغنام وحتى الراعي في حد ذاته ففي أحيان كثيرة يقدم الذئب ويقضي على العديد من المواشي إذا لم يتفطن الراعي لذلك.

والذئب يملك مواصفات من بينها الغدر والخبث، فهو يستعمل حيلا كبيرة لافتراس المواشي، وكلّما تفطّن الرّاعي لحيله يعيد إنتاج حيلا أخرى هذا بحسب المخبر (رقم 13)، وبالتالي فهو يشكل صراعا دائما مع الرعاة، وهذا ما جعله يتكرر في ثقافة الأمثال والحكم بشكل كبير، وأصبح يضرب به المثل في الدهاء والخبث والغدر.

فمن خلال الملاحظة في مجتمع البحث يصفون الشخص الذي يستخدم دهاء في أمور شريرة أو أحيانا خيرية بلفظ أنّه "ذئب" وبالأخص في نوايا الشر.

. الكلب في الثقافة الشعبية

نسبة تكرارات هذا الحيوان كانت بحسب الجدول السابق 29.09% من جملة الحيوانات البرية، وورد نظرا لأهميته عند الرعاة بالخصوص، فهم يستعملونه كحارس للمواشي من خطر قدوم الذئب، فالذئب عدوه الكلب بحيث عندما يكون هذا الأخير فلا مجال للذئب في هذا القطيع.

والكلب في الواقع إذا لم يستأنس من طرف الإنسان فيتحول إلى مفسد، وهذا ما يطلق عليه اسم الكلاب الضّالة، ويمتاز الكلب بالفساد حتّى لو كان أليفا، فإذا كان في موضع معين فإنّه يفسد ويبعثر ذلك المكان والمثل الشعبي يقول" تْخَلَّطَتْ بِكْرَاعْ كَلِبْ"*

. الفئران

في كل المواضع تعتبر الفئران مفسدة عند ثقافة المجتمع بوادي سوف، سواء في البراري أو داخل المساكن الحضرية، فهي تعمل دائبة في البحث عن الغذاء من المخزون المنزلي أو مخزون علف الحيوانات، ويفسد البذور المزروعة حديثا فيأكلها قبل مرحلة إنتاشها.

وكنتيجة لهذا الأمر فإن المجتمع خلق مجموعة من الوسائل لمكافحة هذا الحيوان، ففي السّابق حينما لم تكن المبيدات كان المزارع إذا زرع البذور فإنّه يضع فوقها كمية من فضلات الحمار أو الماشية مع قليل من رماد الحطب، أمّا في البيوت فإنّهم يستعملون ما يسمى بالفخاخ من أجل إنقاص عددها، كما يربون القطط كما رأينا سابقا حتّى تصطاد الفئران وتبعدها عن المنزل بموائها.

وهذا الأمر ما أدّى بدخول هذا الحيوان في الثقافة الشفهية للمجتمع وكانت نسبة تكرارات الفئران في الأمثال والحكم الشعبية 21.81% من جملة الحيوانات البرية المذكورة، وهذه النسبة معتبرة نظرا لعلاقة الصراع الموجودة بين أهل المنطقة وهذا النوع من الحيوان.

. الغزال

الغزال يعيش بصحراء وادي سوف، وهو حيوان بري لا يألف الإنسان، ويعيش بعيدا عن المناطق السكنية، ويمتاز بسرعة العدو وقلّة شرب الماء، فمن الصّعب جدا أن يصطاد هذا الحيوان الذي يؤكل لحمه، ويستعمل في أغراض أخرى مثل جلده ورجله في أمور معينة.

* **تخلّطت** تعني إختلطت، **كراع** تعني رجل، يعني هذا المثل بأنّ الكلب إذا أخلط شيء معين بأرجله فإنّه يفسده ويبعثره بدون رحمة.

ولم يدخل الغزال بصفة معتبرة في الثقافة الشعبية للمنطقة في الأمثال حيث كانت النسبة 02.00% مجموع الحيوانات المذكورة ككل في ثقافة الأمثال.

وهذه النسب تعتبر صغيرة نوعا ما مقارنة بغيرها، وربما هذا الضعف يرجع لعدم ألفة هذا الحيوان للإنسان نظرا لعيشه بعيدا عن السكان وعدم إمكانية تربيته بالقرب من المساكن، وكذلك لم يشكل هذا الحيوان عملية صراع أيضا لأنه حيوان لا يؤذي البشر أبدا.

والمجتمع يعتبر الغزال حيوانا مسالما ووديعا، وهو حيوان يوصف بالخفة والرشاقة وسرور النظر، فكل شيء فيه جميل حسبهم، سواء شكله أو حركاته.

ونظرا لهذه المواصفات فإنّ هناك من يختار لأولاده أسماء غزال وغزالة إذا كانت أنثى، وتوصف البنت الرشيقة بأنها كالغزالة، وهناك عادة اجتماعية لدى البدو سابقا مفادها أن مواد زينة العروس تخبأ في "العكّة" وهي جلد الغزال بعد عملية دبغه وتحضيره، حيث يطلق مثلا شعبيا في هذا المجال "كُونَهْ الْزِيتْ فِي عُكُّتْهَا رَاهُو بَايِنْ عَنْ قُصِّتْهَا"*، وهذا دليل على أنّ الغزال حيوان عزيز عند المجتمع بوادي سوف.

ج . استخدام الطيور في الثقافة الشفاهية

تعيش في وادي سوف أنواع مختلفة من الطيور كما أسلفنا الذكر، وفي مجملها تنقسم إلى نوعين أساسين هما برية وأخرى تعيش بجانب الإنسان، وهذه الأخيرة أهمها الدجاج.

ومن خلال الملاحظة الميدانية يتّضح بأنّ السكّان في مجتمع البحث يربون إلى جانب الدجاج أنواعا أخرى من الطيور مثل الإوز والبط والديك الرومي، ولكن يعتبر الدّجاج هو الأكثر شيوعا.

وحسب الجدول الآتي الذي يتبين أن النسبة 14.50% التي شكلتها تكرارات الطيور في ثقافة الأمثال والحكم الشعبية لها دلالة إحصائية معتبرة.

وبقصد معرفة أي الأنواع من الطيور كان له التأثير أكثر من غيره ارتأينا أن نفصل الطيور عن بعضها من حيث التكرارات حسب الجدول الآتي.

---

* **كونه** يقصد بها لو كان، الزيت في السابق كان يستخدم في الزينة والتجميل، **عكّتها** هي حافظة مواد التجميل للمرأة وهي جلد الغزال، أي علبة مواد التجميل، **راهو** معناها إنّه، **باين** تعني ظاهر، **قصّتها** هي الشعر الأمامي من الرأس الذي يتدلّى على الجبين، بحيث كانت المرأة في السّابق تترك شعرها الأمامي يتدلى لكي يظهر للناظرين، وتدهنها بالزيت حتّى يزيدها لمعانا وبريقا خصوصا إذا كان شعرها أسود قاتما، وبحسب الملاحظة الميدانية فإنّ هناك من العجائز من النساء لايزلن يتجملن بهذه الصورة.

جدول 5 يوضح وحدة الموضوع للطيور في الأمثال والحكم

الفئات	التكرارات	النسبة
الدجاج	09	%31.03
الغربان	03	%10.34
البوم	02	%06.89
طيور مختلفة	15	%51.72
المجموع	29	%100

إّن أكبر نسبة احتلتها فئة الطيور المختلفة وهي أكبر من النصف بقليل، ولكن أثناء التفريغ تبيّن أنّ في هذه الفئة كل نوع لم يتكرر أكثر من مرّة، أمّا الطيور الأخرى فتكررت أكثر من ذلك، واحتل الدجاج نسبة معتبرة قدرت بـ 31.03% من مجموع الطيور التي وردت في جملة الأمثال والحكم الشعبية، وهذا راجع لكثرة تربيته داخل البيوت ليس في الفترة الحالية فحسب بل كان لهذا الأمر تاريخ معتبر، وهذا من أجل الاستنفاع بالبيض الذي يضعه، وكذلك ذبحه وأكل لحمه عند الحاجة، حيث أن من عادات أهل سوف نجد أنّ النساء يعمدن لحضن البيض الملقح من أجل زيادة هذه الثروة، وتبدأ هذه العملية عادة في فصل الربيع عندما يتدرج المناخ نحو الدفء، وعندما تتم عملية الحضن وتظهر الكتاكيت وتبدأ في النمو وبعد شهرين تقريبا يذبح الذكر ويأكل لحمه، أما الأنثى تربى لتصبح دجاجة، وبالتالي فالدجاج لعب دورا هاما في ثقافة المنطقة باعتباره حيوانا محتكا بالإنسان وهذا ما لاحظناه ميدانيا في مجتمع الدراسة.

أما فيما يخص النسبتين المتبقيتين فكانتا من نصيب الغراب والبوم، فلماذا هذين الفصيلين بالذات؟
بالنسبة للغراب والبوم هما نوعان غير محبذين عند مجتمع البحث، بحيث أنهما لا يؤكل لحمهما بحسب المقابلات التي أجريت مع المخبرين، وبحسب سؤال للمخبر (رقم 13) تبين أن البوم صوته فأل شؤم، ولو رجعنا إلى الأساطير المتداولة في الثقافة الاجتماعية للمنطقة تفيد بأنّ صوت البوم يعني التشاؤم، حتى أنهم يحاولون قدر الإمكان ألّا يسمع الرضيع صوت البوم حتى لا يصاب بالذعر والرعب.

د . الحشرات والزواحف

شكّلت نسبة الحشرات والزواحف في الأمثال الشعبية 11%، وهي معتبرة بمقابل جملة الحيوانات الأخرى، وهذا الصنف يتشكل من صنفين: واحد منهما يشكل خطرا كبيرا على الإنسان، والصنف الثاني مضر ولكن أقل خطرا.

أما الحشرات والزواحف الأكثر خطورة فتتمثل في العقارب والأفاعي، وهي حيوانات سامة يمكن أن تؤذي وتؤدّي للموت، فالأفاعي من العادة لا تعيش بالقرب من المساكن إلا في النّادر وفي أطراف العمران، ومن خصائصها أنّها تنذر البشر عند الاقتراب منها بإحداث صوت عن طريق احتكاك حراشيفها الخارجية عن بعضها، أمّا العقارب فلا تنذر بشيء من هذا القبيل، وتعيش في منطقة سوف أنواع ليست بالخطيرة جدا ولكن تنتشر بصفة مطلقة سواء في البراري أو داخل العمران، وفترة خروجها بحسب أهل المنطقة فإنّها تكثر في بداية فصل الخريف أي وقت التلقيح، هذا فيما يخص المناطق الرّملية البحتة، أمّا المناطق التي بحوزتها الحجارة في القشرة الأرضية فإنّ تواجدها يكون مع بداية الصيف مباشرة، ونجد أهل هذه المناطق ينامون من العادة على السّدة حتّى تقلل أخطار لسع العقارب كما ذكرنا سابقا في الجزء الخاص بالثقافة المادية.

وأما ما تعلق بالحشرات والزواحف الأخرى الأقل ضررا مثل النمل والخنافس والعناكب وغير ذلك فهي مسببة لبعض الأضرار إلاّ أنّها غير مؤثرة كثيرا.

والعموم فإنّ الحشرات والزواحف التي تعيش في منطقة وادي سوف عملت بدرجة كبيرة في الدخول في تشكيل ثقافة المجتمع من حيث ما تسببه للمجتمع من أضرار، ورغم وجود أضرارها إلا أن المجتمع حول البعض منها إلى منافع تتعلق بالطب الشعبي حسب ما يعتقدون مثل اعتقادهم بأن أكل لحم الأفعى يبطل مفعول السحر، وأكل العقرب يفيد في عدم تأثير لسعها مستقبلا، ويعتقد المجتمع بأن تناول الخنفساء يزيل مرض الصدر عند الأطفال.

الفصل الرابـع

علاقة البيئة بالممارسات السابقة المتعلقة بالعادات الاجتماعية الغذائية

أولا: الوجبات الغذائية المعتادة

1 . فطور الصّباح " لكروط "

2 . وجبة الغداء المعتادة . الفطور .

3 . وجبة العشاء

4 . وجبات ثانوية

ثانيا: عادات تصبير المواد الغذائية

1 ـ عادات تصبير المواد الغذائية النباتية

2 ـ العادات الاجتماعية المتعلقة بتصبير المواد الحيوانية .

ثالثا: عادات تناول الوجبات

1 ـ مكان تناول الوجبة

2 ـ الكلام عند الأكل

3 ـ طريقة الجلوس

4 ـ الفئات التي تتناول مع بعضها الوجبة الغذائية

رابعا: العادات الغذائية في الأفراح والمناسبات

1 . العادات الغذائية في مناسبة الختان

2 . الأغذية في المناسبات الدينية

3 . الغذاء في شهر رمضان

4 . الأعياد العرفية

أولا: الوجبات الغذائية المعتادة

تختلف عدد الوجبات الغذائية وتتباين من مجتمع إلى آخر، وذلك من حيث الكمية والنوعية كذلك، تبعا لثقافة وعادات كل مجتمع.

وفي مجتمع البحث اتفق جميع المخبرين على أنّهم كانوا يتناولون ثلاث وجبات غذائية أساسية، فطور الصّباح، ويدعى عند اللّهجة المحلية "لِكْرُوطْ". والوجبة الثانية عند الزوال، وهي الغذاء، ويطلق عليها اسم "لَفْطُورْ"، وفي نهاية اليوم تكون الوجبة الثالثة تتمثل في العشاء، وتتخلّل هذه الوجبات في بعض الثقافات الفرعية وجبات خفيفة وثانوية.

1 . فطور الصّباح " لكروط "

إنّ أغلب المجتمعات الإنسانية اعتادت على وجبة فطور الصباح، ولكن تختلف من مجتمع إلى آخر من حيث المواد أو حتى الكمية.

ففي مجتمع الدراسة بحسب المخبرة (رقم 14) أنّ هذه الوجبة تتكوّن عادة من الشّاي والحليب إن وجد، وأحيانا قليلا من الكسكسي المتبقي من العشاء، وتضيف المخبرة نفسها بأنّ هذه الوجبة تتناول قبل شروق الشمس، أمّا عن الحليب فهو يكون من الماعز في العادة ويحلب في تلك الصبيحة ويغلّى، وفي القديم كانوا يمتهنون مهنة الرّعي التّي غالبا ما تكون رعي الإبل، فقد كانوا يشربون حليبها مغلّى أيضا، ولكن حليب الماعز في نظرهم هو الأفضل.

وعند السّكان الذين كانوا قارّين . غير رحل . يمكن أن يتناولوا في الصّباح بعضا من البيض إن وجد لأنّه ليس متوفرا بكثرة، وليس عند كل العائلات موجود، لعدم اهتمامهم بتربية الدّجاج.

وفيما يتعلّق بالدّوافع التّي تركتهم يختارون هذه المواد في فطور الصّباح، فإنّنا نجد بأنّ الحليب الطبيعي والطازج يحوي على مجموعة من المواد الضرورية للجسم، خاصّة إذا كان دون شوائب أو مواد حافظة، مع العلم أنّ أهالي المنطقة ينتجون حليبهم محليا وأنّ هذه الحيوانات في السّابق كان غذائها محليا، وهو عبارة عن مجموعة من الأعشاب التي تنبت في المنطقة وبعض العلف المستخرج من بقايا تمور النخيل المحلي.

فالحليب هو غذاء محلّي بالدرجة الأولى، ونافع للجسم بالأخص إذا تناوله الفرد بعد أن يغلّى، لأنّ ذلك يقضي على الجراثيم والميكروبات العالقة جرّاء مجموعة الفضلات الحيوانية، وهذا الأمر يتوافق مع ما ينصح به علماء التغذية.

وبحكم أنّ الفرد في السّابق . سواء الرجل أو المرأة . كان يقوم خلال اليوم بجهد كبير، فيعتقد الأهالي بأنّ شرب الشّاي يمنحهم ذلك النشاط، فهم يشربونه في الصّباح خصوصا أنّ النشاط كان يتمثّل عند الرجل في الرعي في جيوب البراري أو النشاط الفلاحي في غيطان النّخيل الذي كان فيه العمل شاقا جدا، خصوصا عند نقل الرّمال من أسفل الغوط إلى الأعلى عن طريق الحمل في قفاف مصنوعة من سعف النخيل فوق الكتف، وفي الفترات الموالية والتّي تطوّرت فيها هذه العملية، استعملت الحمير والبغال لهذا الغرض، وبالتّالي فهم يحتاجون إلى مادة غذائية لتنشطهم لذلك العمل الشاق.

أمّا فيما يتعلّق بالمزايا العامة لشرب الشّاي، فإنّ المجتمع يعتقد بحسب نفس المخبرة أنه يمنع حدوث العطش خاصة إذا كان شحيحا من مادة السكر.

أمّا من ناحية فوائد الشّاي، فإنّه "يسهّل الهضم وينشّط الفكر ويقوّي الجهاز العصبي وينعش الذاكرة ويحارب الوهن العصبي"[1]، وهذه الحقيقة العلمية تتوافق في أجزاء منها مع ما يعتقده مجتمع الدراسة من خلال تناولهم لهذه المادة.

وإذا رجعنا لما نشره "بكل" Buckle في كتابه "تاريخ المدنية في إنجلترا" History of avilization نجده ينظر إلى أنّ "المناخ يؤثر في قيمة العمل والإنتاج، فالحرارة الشديدة تصيب العامل بالكلل والملل، بينما الحرارة المنخفضة تثير النشاط والحيوية"[2].

ومن المعروف أن مناخ المنطقة التي يسكنها مجتمع البحث فيه من الحرارة بقدر معتبر خلال السنة وبالتالي فالشّاي يبعث فيهم النشاط ويبعد الخمول، فقد اختار السّوفي مادة الشّاي كأمر أتيح له حتّى يتكيّف مع الوسط الذي يعيش فيه، وبالتالي فهو أدرج عادة شرب الشّاي باعتباره أحد الإمكانيات

---

1 دليس لامبولاي : **200 وصفة طبيعية** ، ترجمة فادية عيدوش ، بيروت ، لبنان : دار الفراشة للطباعة والنشر ، 2001 ، ص 51 .

2 محمد سيد غلاب: مرجع سابق، ص27 .

المتاحة، وهذا تماما ما وصل إليه "لوسيان فيفر" "الذي ينفي أن تكون هناك ضرورات في البيئة الجغرافية بل أنّه يقول: إنّه توجد سوى إمكانيات، والإنسان سيّد الإمكانيات، هو الحكم في اختيارها"[1]

وهذا الرأي يتوافق مع الاتجاه الإمكاني في التنظير البيئي ويختلف عن الاتجاه الحتمي، ففي أحد المقابلات المخبر (رقم 15) أوضح بأنّ النّاس لا يتنازلون عن شرب الشّاي صباحا، بل أنّهم يشربونه مرّة ثانية عند الضّحى خصوصا إذا كانوا يعملون في غيطان النخيل.

2 . وجبة الغداء المعتادة (الفطور)

تكون هذه الوجبة عند الزّوال بعد الانتهاء من العمل أو قبل ذلك، ولكن بحسب مجتمع الدراسة، لم يكن المجتمع يولي لها أهمية كبرى من حيث الكم والنوعية، فهم يكتفون بالقليل إذ لم يكن القدر مشبعا، ولا تكون الأطباق متعددة أو حتّى متنوعة، ومن خلال المقابلات التي أجريناها مع المخبرين اكتشفنا مجموعة من الأصناف الغذائية التي تحضّر لهذه الوجبة تتلخص في:

أ . حبّات من التمر وبعض الحليب.

يتناول التمر مع الحليب قبل كل غداء، وهي عادة اجتماعية لدى كل العائلات بحكم وفرة التّمر في المنطقة، ففي السّابق حسب المخبرة (رقم 16) لا توجد عائلة بدون نخيل، وإن وجدت، فإنّ التّمر لا يخلو من البيت.

أمّا الحليب. فهو ليس متوفرا طوال السنة، وبالتّالي من العادة أن يتناولوا التّمر حتّى بدون حليب قبل وجبة الغذاء، وتناول التّمر ضروري خاصة في فصل الحرارة، وعند تناول هذه المادة تتشبع المعدة ويزول الجوع نوعا ما، لأنّ التّمر والحليب من الأغذية السّهلة الهضم في المعدة وتشبع بسرعة، من جراء هذا الأمر، فالنّاس لا يعمدون إلى الوجبة الغذائية المحضّرة، ويعتبرونها أكلة تنقص حرارة التّمر ليس إلاّ، فيقول المثل الشعبي "تْمِيرَه وْحْلَيْبَه وِدْشِيشَه تِبْرِيدَه"* ويدل هذا على أنه إذا تناول الفرد التمر

---

1 محمد السيد غلاب: مرجع سابق، صفحة 41.

* **تميره** تعني قليل من التمر، **حليبه** ويقصد بها القليل من الحليب، **دشيشه** وهي أكلة شعبية خفيفة وسوف نتكلم عنها لاحقا في هذا البحث.

والحليب فإن ما بعده من مأكولات غير مهم، وإذا لم يتناول أي أكلة أخرى فذلك غير مهم، لأن التمر والحليب يكفي البطن من غذاء، وكل ما يؤكل من بعد ذلك فهو لإنقاص حرارة سكر التمر ليس إلاّ.

أمّا عن أنواع التّمر المتناولة بحسب كل فصل، أفادنا المخبر (رقم 4) بأنّهم كانوا يفضلون لكل فصل نوعا من أنواع التمور، وتنحصر هذه الأنواع في:

. الغرس

ويفضله الكثير في فصل الصّيف، ويحوي كمية هائلة من السّكريات، لأنّنا عند الزيارات الميدانية لاحظنا بأنّ هذه النوعية فيها من سيلان هذه السّكريات خارج الكيس الحافظ بقدر كبير، والغرس عند أهل المنطقة هو أفضل أنواع التمور على الإطلاق من ناحية القيمة الغذائية.

. دقلة نور

تنضج ثمار دقلة نور عادة في فصل الخريف، ويكتمل نضجها تماما في فصل الشّتاء، ولكن يتناولها مجتمع البحث بكميات قليلة، لأنّ باعتقاد أهل المنطقة وبحسب المخبر (رقم 4) أنّها ليست مفيدة، وتستعمل للتسويق والبيع، لأنّها تصدّر للبيئات الخارجية، حتّى أنّ أصحاب النخيل يطلقون على هذا النوع بحسب نفس المخبر- تمر الرومي - والرومي المقصود عندهم هو الأوربي أو الفرنسي، وحسب اعتقاد أهل المنطقة أن هذه النوعية لا تصبر طويلا من حيث المدّة التي تحافظ فيها على خصائصها.

وهذا النوع عندهم سابقا موجها للسوق فقط، فالفلاح يقدس نخلة دقلة نور لأنّها تباع في السوق ومرغوبة بكثرة، وأثمانها باهظة مقارنة بالأنواع الأخرى، فإذا تقرّب أحد الأطفال من العرجون فإنهم ينهونه عن تناول تمرها، وقد ابتكروا طريقة لنهيهم تتمثل في أنّ تمر دقلة نور يسبب الحمّى، وهذا الأمر نجده مغروس في نفوس الأطفال في قرى مصر كـ "برك الخيام" فيما يتعلّق بتناول الفاكهة فمثلا "الموز: تناوله يؤدي إلى الهبوط وتعب في المعدة، المانجو: بها أملاح كثيرة تؤدي إلى تعب في

الكلى،العنب: إسهال، الجوافة: إمساك"[1] وهذا الأمر راجع لتدني المستوى المعيشي لحظة إجراء الدراسة الميدانية بالمنطقة.

ـ حبات تمر من نوع دقلة نور في كامل نضجهاـ

1 محمد الجوهري وآخرون: **علم إجتماع البيئة**، مرجع سابق، ص 404.

. المنقر

وهو التّمر عند بداية نضجه في نهاية فصل الصّيف، ويتواصل إلى فصل الخريف، وهو عبارة على حبّة تمر ناضج جزء منها فقط، وهذا النوع لا يتحمل البقاء، فيؤكل أثناء نضجه وإلاّ فسد

ـ صورة حبات المنقر من نوع الغرس ـ

فهم يجنون القدر الذي تحتاجه العائلة يوميا ويترك الباقي في عراجينه ليكمل نضجه ويصبح تمرا فيما بعد، وعادة ما يتناول أفراد المجتمع هذا النوع بداية من نهاية فصل الصّيف إلى غاية الخريف، بحيث عند حلول الخريف ينضج المنقر ويصبح تمرا.

أمّا منقر الغرس فهو الذي يظهر أوّلا، وعندما يحلّ الأسبوع الثاني من سبتمبر ينضج بالكامل ويصبح تمرا، وفي هذه الفترة تبدأ الأنواع الأخرى في إظهار لِمْنَقَّرْ، وتتمثل: في الْتِكِرْمِيسْتْ، الْتَفِزْوِينْ، والْمَسُّوحِي، والْتِنِسِينْ وغيرها من الأنواع الثانوية، وبالتّالي يواصل النّاس تناول لمنقر إلى غاية نضج كل هذه الأنواع التّي يطلق عليها اسم"النهوش".

ويسمّى المنقر عند النوبيين إسم العجاوي وهو "بلح رطب يؤكل أخضر ويسمّى (الدفيك) عندما يصل إلى مرحلة نصف النضج، أي تأخذ البلحة لونين، النصف العلوي يكون غامق اللون (العجوة)، والنصف السفلي يظل بلونه الأصفر أو الأحمر"[1]

1 عاليه حبيب وآخرون: مرجع سابق، ص 245.

وعموما فإنّ كل أنواع ثمار النخيل تبدأ في نضجها في بداية فصل الخريف، فيستطيع الانسان أن يأكل من كلّ نوع من النخيل، سواء الغرس، أو النهوش، أو حتى دقلة نور، حيث نعثر في الثقافة الشفهية للمنطقة بعض الأمثال والحكم الشعبية التي تتكلم عن هذا الغرض، فمثلا يقال عند حلول الخريف: " إذا بَانْ خَطْ سِلِيمَه فُوقْ الْقِيمَه يْعُودْ الْفَمْ يَمْضَغْ دِيمَه"*، و"خط سليمة" هو عبارة على "خط أبيض كأنّه سحاب، يقسم السماء أوائل الخريف، وبظهوره تنضج معظم أنواع التمور"[1].

وهذا يدل على أنّ الغذاء من التمور مهم جدا بالنسبة لمجتمع البحث، ودليل على أنّ النخلة تشكل معنى عميقا أيضا عندهم، ومن المعرف في جغرافية المنطقة ومناخها أنّ فصل الصيف موسوم بالقحط والجفاف، فبعد مرور الصيف يفرغ مخزون التمر وغيرها من المواد الغذائية الأخرى، وحتّى الأموال المدخرة تنفد، وبالتالي عند حلول الخريف يستبشر الناس خيرا، ويفرحون بحلوله، وأكبر دليل على ذلك جعلهم مناسبة شعبية تسمّى "عيد الخريف" التي سنتكلم عليها لاحقا في هذا الفصل.

ويقال مثل آخر في هذا الإطار "عَطَشْ الْشْتَاءْ وْجُوعْ الخريف إِطَمَّحْ الْمْرَا وْيْهَرِبْ الْوصِيفْ"**، فعند حلول الخريف ولا يوجد عند صاحب البيت التمر فإن هذا الأمر غير معقول، ويدل على أنّ هذا البيت سكّانه جيّاع.

. الْنْهُوشْ

تبدأ هذه الأنواع في النضج بداية فصل الخريف، فيظهر المنقر في التكرميست، والتفزوين، وغيرهما من النهوش، فيتناول السوفي من منقرها، إلى غاية نضجها تماما يجنيها من النخيل ويعود إلى تخزينها، وتصبير هذه الأنواع التي ذكرناها وغيرها من النهوش، لا يتحمل البقاء طويلا، فالسّوفي يرجع إليها في فصل الرّبيع، باعتبار أنّها لا تتحمّل البقاء مخزّنة حتّى فصل الصّيف.

---

* **بان:** تعني ظهرللعيان، **خط سليمة:** هو خط أبيض في السماء، **فوق القيمة:** فوق المعتاد به في السماء، ي**ولّي** معناها يصبح، **ديما:** دائما. ويعني هذا المثل بأنّه إذا ظهر هذا الخط الأبيض في السماء، فإن كل أنواع النخيل تبدأ في النضج.

1 بن علي محمد الصالح: مرجع سابق، ص 28.

** **إطّمح** وتعني هذه الكلمة عند أهل المنطقة أن المرأة إذا كرهت زوجها يقال عنها "**طامح**" وتطلب الطلاق منه، **المرا** وتعني المرأة، **الوصيف** وهو الخادم أو العبيد.فإذا لم يكن التمر والغذاء موجود في فصل الخريف فهذا الأمر غير مقبول تماما، لأنّ كل الخيرات تكون في هذا الفصل.

ب . الخبز

تناول الخبز من عادات مجتمع البحث، إمّا أن يكون مكمّلا لأحد أصناف الأطعمة، أو يكون في حدّ ذاته وجبة غذائية.

ففي منطقة وادي سوف كانوا في السّابق يستوردون مادّة السّميد والفرينة من المناطق الشمالية. باعتبار أنّهما لا ينبتان في المنطقة، والخبز المادة الأولية المكوّنة له هو السّميد أو الفرينة، وفي مجتمع البحث أفادتنا المخبرة (رقم 9) بأنّهن كنّ يصنعن الخبز تقريبا يوميا وبأشكال وكيفيات مختلفة أغلبها تتمثل في:

. خبزة المَلَّة

وهي عبارة عن خبزة كبيرة الحجم يتم نضجها بعد عجن الطّحين وغمسها في الرّمال السّاخنة بفعل نار الحطب، وهي نوعان: أولهما تكون عبارة على خبزة محشوّة ببعض الخضار، مثل البصل والثوم والطماطم والجزر إن وجد، وهذه الخضار كلّها تنتج محليا في البيئة الداخلية، بإضافة قدر معتبر من شحوم الحيوانات المصبّرة بطريقة تقليدية، وهذا النوع يعتبر وجبة غذائية، أمّا النوع الثاني فتكون الخبزة غير محشوّة بأي شيء، ومن العادة تعوّض الخبز الحالي في مائدة الغذاء.

ـ توضح الصورة خبزة الملّة وهي كاملة النضج قبل أن تنزع من موقدها ـ

. خبز الْمَطَابِيقْ . "الْمْحَاجِبْ"

تشتهر منطقة وادي سوف بهذه الأكلة الشعبية، وهي إحدى العادات الاجتماعية الغذائية للمجتمع، والمطابيق عبارة عن عجينة من الدقيق تحضّر ثمّ تسوّى ويكون وسطها محشوا بخليط من الخضار والدسوم مثل الخليط المحضّر لخبزة الملّة، أمّا عن طريقة طهيها، فبعد وضع الحشوة في وسط الخبزة المستديرة الشكل أو المربعة، توضع فوق طاوة* تكون موضوعة فوق النّار من قبل وساخنة جدا، وبعد نضجها تؤكل مباشرة، ومن المعروف عن أهل المنطقة أن هذه الأكلة محبذة جدا ومستلذة عندهم، وأهم ما يميّز خضارها هو البصل والفلفل الحار.

ـ توضح الصورة خبزة مطابيق بعد نضجها ـ

ـ الْرُقَاقْ

وهو عبارة عن خبز المطابيق ولكن غير محشو بأي شيء. فهو يؤكل مع أحد الأغذية، أي معوضا الخبز الحالي في الوجبة، وهناك نوع آخر يؤكل كلمجة أحيانا أو في فطور الصباح وهو رقاق محشو بالسكر مع الإكثار من الزيت، وهذه الأخيرة ليست موجودة عند أهل المنطقة فحسب بل تحضّر في

* **الطاوة** هي عبارة على صفيحة معدنية عادة ما تكون من الحديد توضع فوق النار لطهي الخبز التقليدي، وعادة ما تكون غير سميكة وتوصف بدائرية الشكل.

أغلب المناطق في الصحراء الجزائرية بحسب الملاحظة الشخصية، فقد لاحظتها في بشار وتندوف وأدرار والأغواط والبيض والنعامة وورقلة وهذه كلّها ولايات جزائرية تقع كلّها بالمناطق الصحراوية أو شبه الصحراوية.

صورة تبين خبز الرقاق بعد نضجه جاهز للأكل

. الخميرة

وهي نوع من الخبز المحلّي يصنع من السّميد أو الفرينة، تتم عملية تحضيره بواسطة عجن الطحين بالماء مع إضافة قليل من الخميرة الكيميائية، ويترك لمدة معينة في مكان دافئ ثمّ يسوّى العجين باليد، ويصبح على شكل دائري ويوضع فوق "الطاجين" وهو مصنوع من الطين.

و هذا الخبز له نوعان، إمّا أن يكون عاديا بحيث يؤكل مع الوجبة المحضّرة، ويعوض الخبز المصنوع بالمخابز، أو يكون هو في حد ذاته وجبة غذائية، ولكن في هذه الحالة الأخيرة يكون محشوا بخليط بعض الخضار، مثل المعد للمطابيق، أو يكون محشوا بالشّحم والطماطم مع قليل من الفلفل الحار، وهذا النوع الأخير يدعى بمنطقة الساورة بالجنوب الجزائري اسم "الْمْخَلَّعْ" ولكن يختلف عليه قليلا في كمية المواد المحشو بها، بحيث في السّابق عندهم كانوا يحشون هذا الخبز بلحم القديد، الذي

يطلق عليه المجتمع البشّاري لفظة "المخلّع" أمّا في مجتمع البحث فيطلقون على هذه الأكلة "خميرة الشّحمة".

وهناك ما يدعى باسم كسرة الشحمة، ويستبدل فيها الخميرة بالرقاق، وتدعى أيضا بالمخلّخ عند المجتمع السّاوري.

خبزة كسرة الشحمة نلاحظ في وسطها الطماطم والفلفل الحار مع بعض الشحم

ج ـ العصيدة

بحسب المخبرة (رقم 9). فإنّ هذه الأكلة كانت تستهلك بكثرة لدى مجتمع البحث، وهي تحضّر بواسطة طبخ الدّقيق في الماء حتّى يتخثّر وينشف ماؤه، وبالموازاة يحضّر له مرق بسيط التكوين، ثمّ يسقّى ذلك العجين بالمرق ويقدم للأكل، وبحسب المخبرين فهذه الأكلة تعمل على التخفيف من العطش خصوصا في فصل الصيف.

صورة لأكلة العصيدة مسقاة بالمرق جاهزة للأكل

وهذه الأكلة موجودة عند بعض القبائل العربية التي تعيش في الصحراء العربية، فهي موجودة سابقا وحاليا في قبائل نجران بالمملكة العربية السعودية "ومازالت الأسر هناك تحافظ على عاداتها الغذائية الأصلية المرتبطة بهذه الوجبة فغالبا ما تحتوي الوجبة على العصيدة، وهي مصنوعة من البرّ المطبوخ بعد أن يتم تشكيله، بحيث يسكب داخل مرق اللّحم دون أن تتسرب إلى الخارج "[1].

وبحسب المخبرة نفسها فإنّ القبائل العربية في ليبيا تعتبر العصيدة عندهم أكلة شعبية بامتياز، كما أشارت الدراسة التي قامت بها الدكتورة عليا شكري بقرى تتواجد في المملكة العربية السعودية التي عرفنا بها في الفصل الأول من هذا البحث، أشارت لوجود هذه الأكلة في هذه المجتمعات حيث تقول "أمّا بالنسبة للأكلات الشعبية (التقليدية) وعلى رأسها . العصيدة . أو كما يسميها أهالي سبت العلاية بأم كلثوم، فقد شهدت هي الأخرى تراجعا واضحا وملموسا"[2].

1 أحمد علي سليمان: **مرجع سابق**، ص 190.

2 محمد الجوهري: **الأنثروبولوجيا** ، مرجع سابق، ص 578.

د ـ المــرق

وهو يحضّر بعدّة كيفيات منها:

ـ الحساء

ويحضّر بوضع قليل من الدقيق في كمية من الماء ويغلّى الجميع مع بعض القطع من الشّحم وبعض التوابل وقليل من الخضر حتّى يتخثّر المزيج ويقدم للأكل ساخنا.

ـ الجاري

ويطلق عليه في أماكن أخرى الشربة أو الحريرة أو الدشيشة، ومادتها الأساسية هو القمح المدشش.

ـ الدْشِيشَه

وهي نفس كيفية تحضير الجاري، ولكنه يعد بحبات القمح المدشش تكون خشنة عادة، ويمكن أن يضاف لها عند طبخها قطعا من اللحم، أو الشرشمان، أو لحم الدجاج المحلي، أو القليل من أحشاء الشاة، وهي أكلة محبذة كثيرا لدى مجتمع البحث، وقد ورد مدح في المأثور الشعبي يتمثل في: "مَلاَّ ضِيفَة بِالتِّكْلِيفَة وغَنَاجِي بِالصَّقْلْ نْظِيفَة فِيهَا وُطْوُطِ وَتِفِيتِيفَة يَا لِخْوَانْ دْشِيشَة وفيها الْشِرِشْمَانْ"*، وهناك مثل يقال عنها "جَعَّانْ وْطَاحْ في دْشيشة"[1]، ويقصد به أنّ الدشيشة سهلة البلع، فإذا كان الشخص مصاب بالجوع ووجد هذه الأكلة فإنه يلتهمها لأنها لا تحتاج لعملية المضغ ولها ذوق محبذ.

* **غناجي** تعني ملاعق، **وطوط** هو لحم الطيوير، **تفيتيفة:** قطعة من اللحم، **الشرشمان:** قد تعرفنا عليه سابقا وهو معروف عند أهالي المنطقة بأنّه يناسب أكلة دشيشة، ويعني هذا المثل أن هذه الدشيشة كاملة الأوصاف. ويقال عندما تكون الضيافة فيها كل ما طاب من المأكولات.

1 بن علي محمد الصالح: مرجع سابق، ص 52.

صورة الدْشِيشَة وتظهر في الأعلى قطع من أحشاء الشاة

هـ ـ الْمَرْسَة

وهذه الأكلة تتكوّن من خضار الطماطم مقطعة قطعا صغيرة، ويضاف إليها القليل من الفلفل الحار، بالإضافة إلى الزيت النباتي، مع رشة من الملح، وهذه الكيفية تحبّذ في فصل الصيف في وجبة الغداء، خصوصا إذا تناول الفرد الرفيس أو التمر بكمية معتبرة، وذلك لأنها باردة وخفيفة على البطن.

3 . وجبة العشاء

هي آخر الوجبات اليومية عند مجتمع البحث، ويولونه أهمية كبيرة، لما له دور في التغذية بحسب اعتقاد جميع أفراد المجتمع، وتتمثل هذه الوجبة بحسب كل المخبرين في الكسكسي على طول السنة، عدا في الصّيف يمكن لبعض العائلات استبداله بخبز الملّة.

وبحسب الخبرة الميدانية لمجتمع البحث فإنّ هذا النوع من الطعام له عدّة أصناف، أهمّها "الْمْسَقَّى" و"لِمْفَوَّرْ"، فالمسقّى يتمثل في تفوير حبات الكسكسي فوق قدر، وفي هذا القدر يطهى المرق الخاص بالوجبة، حيث يتكون المرق من بعض الخضروات كالبصل والكابو كمادتين أساسيتين إلى جانب إضافة الثوم وخضار أخرى إن وجدت كالجزر واللفت، مع وجود الزيت والطماطم والشحوم أو اللحوم، وأهم ما يميّز هذا الطبيخ هو وجود عنصر التّمر، بحيث تضاف إليه بعض التمرات من نوع الغرس في ماء المرق فيميل طعمه إلى الحلاوة، وبعد طهيه جيدا يسكب المرق الحلو فوق الكسكسي ويضاف إليه كمية من الدّهان تضفي عليه طعما مميزا، ويمد الجسم بقيمة غذائية مفيدة بحيث يمده بالدفء خصوصا في الشتاء البارد.

ومن خلال ما ورد في الثقافة الشفهية لأصحاب المنطقة، فإنّ "المسقّى" هي نوع محبذ جدا ومغذ للجسم أكثر من غيره من جميع الأكلات الأخرى، وله قيمة اجتماعية معتبرة، حيث يقال عنه "عَرِّي عَنْ ذْرَاعَكْ تَاكِلْ لِمْسَقَى"*، مما يدل على أن هذا النوع من الطعام يتطلّب تكاليف عالية مقارنة بغيره.

* بن علي محمد الصالح: **الموسوعة السوفية للأمثال والحكم الشعبية**، مرجع سابق، ص 98. أمّا كلمات هذا المثل فمعناها يتمثل في: **عرّي** وتعني نزع اللباس، **المسقّى** وهو أحد أنواع الكسكسي في وادي سوف، ويفيد هذا المثل أن الشخص إذا أراد أن يتناول المسقّى فيجب عليه أن يجتهد في العمل.

توضح الصورة كسكسي نوع المسقى والمرق من فوق حبات الكسكسي وفقه قطعة لحم

أمّا "لمفوّر" فهو يحضّر بطريقة مخالفة، بحيث خضاره تكون مفوّرة أيضا مع حبات الكسكسي بدون مرق، حيث يوضع المزيج فوق قدر يغلّى بالماء من أجل انبعاث الرطوبة السّاخنة للمزيج الموضوع في كسكاس.

تبين الصورة أكلة كسكسي من نوع المفور

وهناك أنواع أخرى مثل المقلّى، وتكون خضاره السبانخ أو البرطلاق، وهناك المفيّض ويكون به الحليب، ويوجد أيضا "المسفوف" و"سفّة الحلبة" وغير ذلك من الأنواع الأخرى.

وبحسب المخبر (رقم 17) فإنّ الكسكسي له أهمية كبيرة عند أفراد مجتمع البحث، فهو يعتقد بأنّ تغييره في العشاء يعني عنده لم يتناول هذه الوجبة، فهو الوحيد الذي يشبع البطن ويمنح القوّة البدنية للعمل في اليوم الموالي، وهنا نرجع للوراء قليلا، فقد سبق وأن رأينا بأنّ وجبة فطور الصّباح لا يعطيها أفراد مجتمع البحث أهمية كبيرة، بحيث يكتفي الفرد بتناول كوب من الشّاي فقط في معظم الأحيان، وهذا يرجع لوجبة العشاء التي كانت ثقيلة على البطن، ففي الصّباح لا يشعر البطن بالجوع وبالتالي لا يكثر من الطعام، مع العلم أن وجبة العشاء عادة لا تكون مبكرة، فهي عادة ما يتم تناولها بعد صلاة العشاء التي تكون بعد حلول الظلام بمدّة معتبرة، ومن العادة عندهم أن الفرد خصوصا العامل الذي يستيقظ باكرا ينام مباشرة بعد العشاء، فنظرا لهذه الأسباب فإن فطور الصّباح لا يكون له أهمية معتبرة عند أفراد مجتمع البحث.

وبالتالي فإنّ أهم أكلة شعبية في المنطقة هي الكسكسي، وقد دخل في ثقافة المجتمع بل نستطيع أن نقول بأنّه أصبح من الهوية المحلية للمجتمع، بحيث تتعرض الكثير من الأمثال والحكم الشعبية لهذا النوع من الطعام.

ويعتبر "الكسكسي، أشهر الأطباق في المجتمعات المغاربية، هو مثال حيّ لهذا المفهوم المركّب للطعام، إذ أنّه يكون بنية مطبخية، بتعبير (دوغلاس)، بل وفوق هذا، هوية غذائية ليست هي في حقيقة الأمر سوى جزء من هوية المجتمع عينها"[1]، فحسب هذا الكلام وما عايشناه في الميدان، فإن الكسكسي له مكانة عالية عند المجتمع خصوصا كبار السّن، ليس لأنه مفيد للجسم فقط، وإنّما شكّل لهم رمزا في حياتهم الثقافية، فحتّى عملية إعداده من زراعة القمح وطحنه إلى عملية تفويره وتناوله، تشير إلى جملة من الرموز التي تعبر عن هوية ثقافية تميز مجتمع البحث والمجتمعات المغاربية عامة[2].

وبمرور الوقت دخل العشاء حتّى في الكلام اليومي، بحيث إذا قلت لرجل مثلا لماذا تعمل؟ لأجابك حتما "رَانِي بَاشْ نْجِيبْ الْعَشِي . العشاء . للأولاد"، أي العشاء هو المهم عندهم لا غير، وهذا ما يرمزه العشاء في ثقافة المجتمع المحلي، ووصلت الدرجة في بعض الثقافات الفرعية بوادي سوف إلى أنّه حتّى إذا كانت وجبة الغداء عبارة على كسكسي، فإنّ الأطفال يقولون هذا عشاء أي اقترن الكسكسي في الذهن بوجبة العشاء وأصبح مرادفا له.

---

1 عماد صولة: **هوية الطعام وطعام الهوية**، مجلّة علوم الانسان والمجتمع، العدد 2، دورية دولية محكمة تصدرها كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة بسكرة، الجزائر: جوان 2012، ص 254.

2 للإطلاع على هذه الفكرة أنظر عماد صولة: المرجع السابق.

4 . وجبات ثانوية

تعوّدت أغلب المجتمعات البشرية على أنظمة غذائية معينة، ففي مجتمع البحث كما سبق وأن ذكرنا بأنّهم تعوّدوا على تناول ثلاث وجبات أساسية دائمة، ولكن في الواقع توجد بعض الأكلات التي تتخلل كل وجبتين، وتعتبر ثانوية غير دائمة، فإذا حضرت فلا مانع منها وإن غابت فلا يسأل عنها، وتمثل البعض منها في:

أ . شرب الشاي

عرف مجتمع الدراسة عادة شرب الشّاي منذ زمن بعيد، وهذه العادة "تعود إلى قرون خلت، وربما جاء به العرب الفاتحون، من شبه الجزيرة العربية، أثناء الهجرات الهلالية إلى الصحراء الجزائرية، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي"[1] فقد التصقت به هذه العادة ودخلت في ثقافته ككل، فشرب الشّاي نجده في أوقات مختلفة على غرار فطور الصّباح، فيشرب في الضّحى، ويشرب عند المساء، ويتناول في السّهرية، وإذا حضر شخص ما فيقدم له الشاي دون أن يستشار كأوّل شيء.

فحسب الملاحظة الميدانية فإنّ أغلب العائلات حتّى اليوم تتناول الشّاي بعد الظهر في كل فصول السّنة، وعادة ما ينضج على نار الحطب المحلّي، ويرفض إذا كان على نار الغاز، وذلك نظرا للجودة من حيث المذاق، وهذه العادة عملت على اجتماع أفراد العائلة حول صينية الشّاي سواء الرّجال أو النّساء كبارا وصغارا، بحيث يلتف الجميع حول نار الحطب، ويكلّف فرد بتحضير الشّاي، ومن العادة يكون رجلا دون امرأة باعتقاد أفراد المجتمع بأنّ النسوة لا يحسنّ ذلك، والملاحظ بأنّ الجميع في هذه الجلسة يقعدون على بساط الرّمل خصوصا إذا كان الجو دافئا.

وشرب الشّاي لا يكون بعد الظهر فقط، ولكن يكون حتّى في الضّحى لدى الرجال خصوصا أثناء العمل في غيطان النخيل، مع العلم أن كل الغيطان توجد فيها أواني الشاي دون استثناء، بحسب ما لاحظناه في الغيطان التي يكثر فيها العمل الفلاحي، أمّا اليوم فإنّ العديد منها أهملت، وتركز الوضع

1 حسان الجيلاني: **قصة العودة**، مرجع سابق، ص 227.

على إنتاج التمور فقط، ولكن بحسب المخبرين أنّه في السّابق كانت كلّها تشتغل ويوجد فيها أواني الشاي.

ويشرب الشّاي في السّهرة بعد تناول العشاء خصوصا إذا كان العشاء باللحم المشوي، بحسب المخبر (رقم 15)، فإنّ العائلات إمّا أن تسهر بمفردها، أو أن يجتمع مجموعة من الجيران في بيت معين نساء ورجال ويجلسون في "الزريبة" إذا كان الفصل باردا، مع العلم أن سهرات الشّاي تكثر في الشّتاء نظرا لطول فترة الليل، ويوقدون نار الحطب لهدفين: يتمثل الهدف الأوّل في التدفئة، أمّا الثاني فهو لطهو الشّاي فوقه، وعند نضجه عادة ما يتم تناوله مرفوقا بالفول السوداني "الكاوكاو" الذي عادة ما يتبرع به أحد الحاضرين، أو تستخرجه عجوز البيت من غرفتها وتوزعه على الحاضرين بالتساوي.

وعلى العموم فإنّ قعدة الشّاي عند مجتمع البحث لها مدلول اجتماعي متميّز، بحيث يساهم في ربط أواصر الأخوّة والقرابة والعلاقات الودية، فلا تخلو جلسة واحدة من الضّحك والهزل والمرح سواء في الليل أو في النهار، ويمكن أن تكون مساحة لمناقشة بعض الأمور الهامّة سواء داخل العائلة الواحدة أو بين جماعة معيّنة.

وبحسب المخبر نفسه فإنّ الشّاي من العادة يتناول بمفرده إلاّ في النّادر يكون معه الكاوكاو أو خبز الرّقاق أو بعض المكسّرات الأخرى التي كانت نادرة سابقا.

ب . أكلة الضحى . الضحوي .

تختلف هذه الأكلة من يوم إلى آخر، ومن مناسبة إلى أخرى بحسب الوفرة أو طبيعة الشغل، فمن العادة بحسب المخبرة (رقم 9) أن تحضر المرأة حساء، أو دشيشة أو الرقاق مع الشّاي أو عصيدة، وهذه الأكلات ليست بالدائمة واليومية فإذا اجتمعت العائلة يمكن أن تحضّر وإذا لم تجتمع فيكون غير ذلك.

أمّا إذا كان هناك نشاط في الغوط أو في البيت فتكون إجبارية لا محالة، وإذا لم تقدم إحدى هذه الأنواع فإن التّمر والحليب يأخذ مكانها.

ثانيا: عادات تصبير المواد الغذائية

ليس بالضرورة أن تبقى كلّ المواد الغذائية محافظة على بقاء خصائصها مدّة معتبرة من الزمن، وليس بالضرورة أن نجد كل المواد الغذائية طوال السّنة، فإن لم نقل كلّها فهو جلّها، حيث لكلّ موسم خضاره وحبوبه وفواكهه.

فمنذ القدم حاولت المجتمعات الإنسانية ابتكار طرق لتصبير المواد الغذائية وغيرها من الأمور التي تساهم في استمرار العيش كالأدوية والبذور وغير ذلك.

وقد عرفنا سابقا من خلال هذا البحث أنّ مجتمع وادي سوف يضع بعض المواد الغذائية التي تعوّد عليها، وهي من إنتاج بيئته الصّحراوية قدرا هائلا من القيمة، كما رأينا مكانة التّمر في الحياة اليومية، فالسّوفي يتناوله على مدار السّنة على غرار بعض المواد الأخرى، وبالتّالي فما عليه إلاّ أن يخترع طرقا معيّنة لتصبير هذه المواد التي دخلت في العادات الاجتماعية لهذا المجتمع، ومن خلال المقابلات والملاحظات الميدانية في مجتمع البحث استطعنا أن نقسّم المواد الغذائية المصبّرة إلى صنفين أساسيين، أولها المواد الغذائية ذات الأصل النباتي والأخرى ذات المصدر الحيواني.

1 ـ عادات تصبير المواد الغذائية النباتية

رأينا . سابقا . الأصناف والأنواع الغذائية النباتية المختلفة لدى مجتمع البحث، ورأينا بأنّ أهمّها هو التّمر وبعض الخضار. والتمر وتلك الخضروات وكل المواد الغذائية تحتاج إلى تصبير تختلف مدّته من مادة لأخرى، وقد عمدت المجتمعات الإنسانية منذ القديم إلى ابتكار طرق لتصبير المواد الغذائية لتناولها عند الحاجة، فعند النوبيين . مثلا . "يترك البلح على النخلة حتّى يجفّ دون أن يفقد شيئا من مميزاته وجودته، ثمّ يتم جمع ثماره في شهر سبتمبر، بعدها يقوم النوبيون باستكمال تمام جفافه في منازلهم، وذلك من خلال غمره أو وضعه في تراب الفرن (الزعفران)، ثمّ فرده على الأرض. كما يوضع البلح نصف الجاف معه لاستكمال نضجه، ثمّ يترك في الشمس على أسطح المنازل لفترات طويلة، لإتمام نضجه وحمايته من التسوس"[1].

1 عاليه حبيب وآخرون: مرجع سابق، ص 244.

ونجد عند التونسيين طريقة بسيطة في تصبير الطماطم بحكم أنّ هذا المجتمع يستهلكها بكثرة، على غرار الفلفل بنوعيه الحار والحلو، فيتم شق حبة الطماطم إلى نصفين ويفرغ محتواها من البذور والماء، ثمّ ترش بالملح بقصد منع التعفن، وبعد ذلك تجفف معرضة لأشعة الشمس، وهذا بحسب الملاحظة.

أ ـ عادات تصبير التمر

ينضج التّمر بصفة كاملة في نهاية فصل الخريف، فيجنى ويوضع كل نوع على حدى، فيسوّق البعض، والبعض المخصّص للاستهلاك العائلي تجرى له عملية التصبير، فما هيّ الطرق المعمول بها في عملية التصبير؟. وما هي أكثر الأنواع التي يقوم بتخزينها مجتمع البحث؟ فحسب المخبر (رقم 4)، أنّ أهم نوع من التّمور الذي يخزنونه قديما هو نوعية "الغرس"، ثمّ تأتي الأنواع الأخرى من التّمور بعده من حيث المنزلة، ولمّا طرحنا سؤالا جزئيا على المخبر عن سبب تفضيل هذا النوع من التمور عن غيره في التخزين، أفادنا بأنّ فائدته الغذائية أكثر من غيره، ويتحمّل التصبير لمدّة أكثر من غيره، فحسبه تصل مدّة تصبيره حتى السنتين، وفي ثقافة مجتمع البحث تأخذ نخلة الغرس مكانا هامّا، فقد ضرب بها المثل، وتغنّى بها الشعراء القدامى والمحدثون وحسب الملاحظة الميدانية لغيطان النّخيل نجدهم يغرسون هذه الفصيلة من العادة في الجهة الشرقية أو الجنوبية من الغوط حتّى تشرق الشمس فيها، ولا تحول أشعتها إلى أي نخلة أخرى، كي يقوى ويكون تمره جيدا من حيث النوعية.

أمّا الأنواع الأخرى فليس فيها من المنفعة البدنية مثل الغرس، ولا تتحمّل التصبير مدّة كبيرة حسب المخبر نفسه، ويضيف بأنّ نوعية دقلة نور كانت لا تصبّر سابقا، فتخزينها لا يتعدّى فصل الشتاء.

وحسب نفس المخبر فإنّ طريقة تصبير التّمر تتمثّل في فرزه وأخذ الجيّد منه، وترك الرديء كعلف للحيوانات، وعند الانتهاء من هذه العملية هناك طريقتان للتصبير هما:

ـ أن ترص حبّات التّمر في كيس من القماش الصلب بحيث تدكّ بالأيدي أو الأرجل فتضغط حبات التمر على بعضها حتى تصبح عجينا، على ألاّ يترك الهواء في ثنايا هذا العجين، لأنّ الهواء يساعد على تعفّن التّمر، ثمّ يربط الكيس بإحكام، ويترك في مكان مظلل لاتصل إليه أشعة الشمس، وهذا المكان من العادة يكون زريبة، أو غرفة في المنزل يطلق عليها اسم دار الخزين، على أن لا تكون

مفروشة بأي شيء، أي فراشها الرّمال فقط، فبعد مدّة نلاحظ خروج مادّة تشبه العسل من ثنايا الكيس، ومن العادة يقلّب الكيس بين الآونة والأخرى، وعند نهاية الرّبيع وبداية الصّيف يبدأ تناوله إلى غاية فصل الخريف، وهذا الكيس بعد الانتهاء من عملية حشوه وربطه يطلق عليه اسم "الْبِطَانة".

وحسب ملاحظتنا فإنّ عملية التصبير لا تحتاج إلى إضافة أي مادة أخرى، كما أنّ المكان المخصّص للتّخزين يجب أن يتوافق مع الظروف المناخية المحلية، وهذه الطريقة في تصبير التّمر موجودة عند الكثير من المجتمعات العربية، ولكن بكيفيات تختلف من مكان لآخر، بحيث يعمد النوبيون بمصر العربية لصناعة العجوة وهي أن "يغسل البلح* ثم يرص في إناء فخاري، ثم يقومون بالضّغط على صفوف البلح باليد، ثم تغلق فوهة الإناء بقطعة من الجلد، ثم يربط عنق الإناء ويترك لمدة تتراوح ما بين 35 و45 يوما، بعدها يتم فتحه للاستخدام اليومي"[1]

ـ أمّا الطريقة الثانية . عند مجتمع البحث . هي أن يوضع التّمر في ما يسمّى عندهم بالـ "خابية"**، بحيث "عرف أهل سوف منذ القديم بأنّهم يخزنون التمور في حفر، يطلقون عليها الخوابي، ويظل سليما من التعفن والجراثيم ... إلى وقت طويل"[2]، "والخابية تصنع من مادّة الجبس، وهي عبارة عن جرّة كبيرة تصل قاعدتها إلى أكثر من مترين، وكذلك بالنسبة إلى ارتفاعها، وهي بأحجام مختلفة، وتستعمل الحجارة أيضا لبناء الخابية، تكون واسعة من الجهة السفلية، أمّا من الجهة العلوية فتكون أقل إتّساعا، ويوضع فيها التّمر الهش بعد أن يغسل بالماء ويداس بالأرجل حتّى تمتلىء، ثمّ تغطّى بغطاء يصنع من السّعف على شكل بساط ويكون أسفل الخابية ثقب به قصبة لإخراج العسل النّاتج

---

* **البلح** في مجتمع الدراسة ليس هو عند النوبيين، فعند النوبيين هو التمر بعد نضجه عندما يكون قابلا للتخزين، أمّا في مجتمع البحث فإن البلح هو مرحلة من مراحل تكوين التمر في عراجينه، من العادة يكون في فصل الصيف بالضبط في شهر جوان وبداية شهر جويلية، يحمل اللون الأخضر، كانوا قديما يتناولونه بكثرة، فعند بداية سقوط البلح في جوان نجد أهل المنطقة يتباشرون حتّى أنّه يقال "إذهب يا شر" أي ذهب الجوع، أمّا في الآونة الأخيرة قل تناول البلح في مجتمع الدراسة، وبقي ما عدا القليل من يحن لتناوله، وحسب الملاحظة فإنّك تجد في بعض المحلات من يبيع البلح الأخضر، وكذلك في الأسواق، لكن بكمية قليلة.

1 عالية حبيب وآخرون: مرجع سابق، ص 282. بالتصرف.

** **الخابية** هي المكان الذي يخزن فيه التمر مصنوع من مادّة الجبس المحلي يأخذ شكلا اسطواني أو المتوازي المستطيلات، ويطلق عليه أيضا في مجتمع البحث اسم الحوزة.

2 حسان الجيلاني: **التغير الثقافي في المجتمع الصحراوي**، (وادي سوف نموذجا)، مجلة البحوث والدراسات الصادرة عن المركز الجامعي بالوادي، العدد التاسع، السنة السابعة، محرم 1431هـ، يناير 2010، ص 163.

عن التّمر، ويستعمل هذا العسل للتّداوي وللأكل أيضا"[1] وأفادنا المخبر (رقم 4) عن كيفية تخزين التّمر فيها بأن يوضع التّمر بدون إجراء أي عملية، لأنّ الخابية تكون عندهم كبيرة الحجم فالتّمر يتراص تلقائيا لوحده، ويقضي على فجوات الهواء التّي تتوسطه، والخابية هي عبارة على إسطوانة مجوّفة مصنوعة من مادة الجبس المحلّي وتكون في مكان مظلل، وعندما يكون الغرس من النوعية الجيدة، يضيف المخبر نفسه بأنّ الخابية تتشقق من قوّة عسل التّمر، ومن المعلوم أنّ الخابية ليست موجودة عند مجتمع البحث فقط، فقد نجدها أيضا عند البربر في الشّمال الجزائري بحيث يعدونها لتخزين الأطعمة وتكون مصنوعة من الطين.

وهذه الطريقة أيضا لا تحتاج إلى مواد حافظة وهي من إنتاج البيئة المحلية بصفة كاملة.

ب ـ تصبير اليقطين "الكابو"

يعتبر الكابو خضار أساسي يستخدم في تحضير وجبة الكسكسي بأنواعه المختلفة، وهذه الوجبة هي تتناول يوميًا في مجتمع البحث خلال العقود الماضية، وبحكم أنّ هذه الخضار تستهلك يوميا في القديم فإنّه من الضروري أن يخزن مجتمع البحث الكمية تحتاجها العائلة، وكما ذكرنا سابقا بأنّ الكابو هو من الخضار الذي ينتج محليّا، وله نوعان: الأوّل يتمثّل في "المزابي" والثاني يسمّى "البِلْدِي". فالنّوع الأوّل بحسب المخبرة (رقم 18) ينضج قبل الثاني، وهو لا يتحمّل البقاء طويلاً، أمّا النّوع الثّاني فيبقى صالحًا لطول السّنة، خصوصا الذي يجنى في الخريف عند بداية البرد.

أمّا عن طريقة حفظه، فهو يتأقلم مع الظروف المناخية، فعند جنيه يوضع في الزريبة أو دار الخزين مع التّمر المحفوظ على الرّمل مباشرة ولا تمسّه أشعة الشّمس، على ألاّ يوضع فوق بعضه، فكل حبّة على حدى لوحدها، ويقوم أحد أفراد العائلة بتقليبه مرّات عديدة، ويجب أن تكون عملية التّحريك بلين ورفق كي لا تتحرك البذور التّي بداخله، لأنّ ذلك يصيب حبّة الكابو بالخمار والفساد، حسب المخبر نفسه، وكلّما بدأت حبّة في التعفن تعزل وتوجه للاستهلاك.

1 عوادي عمار: **كتابات ووثائق من تاريخ وادي سوف**، ط 1، الجزائر: 2011، ص ص 112 113.

وطريقة الحفظ هذه تتمثل في صدّ المؤثرات الطبيعية ليس إلاّ، كما تستخدم فيها عناصر البيئة المحلية بصفة تامة.

ج ـ حفظ البصل والثوم

البصل والثّوم يعتبران من الخضر الضرورية عند تحضير الوجبة الغذائية لدى مجتمع البحث، وبالتّالي من الضّروري تخرين القدر الكافي للاحتياج العائلي، وطريقة التصبير بسيطة جدا، فعند نضجهما يجنى البصل وينشر في الزريبة على الرّمال، وذلك في فصل الصّيف، أمّا الثّوم فيربط على شكل حزم صغيرة ويعلّق بواسطة خيط في سطح الزريبة أو دار الخزين.

والجدير بالذّكر هنا أنّه كذلك لا وجود لأي مواد حافظة عدا الظروف البيئية فقط، الظل والرّمل والهواء.

د ـ الفلفل الحار والطماطم

حسب المخبرة (رقم 18) أنّ الطماطم لا يعطونها أهمية في الحفظ، أمّا الفلفل الحارّ فهو ضروري، وفيما يتعلّق بعادات المجتمع المحلّي بطريقة التّصبير فإنّ الطماطم عند جنيها تقوم المرأة بتشريحها ثم تضيف إليها قليلا من الملح، وتنشر على بساط رقيق في الظل إلى أن تجف، ثم تجمع في ما بعد وتوضع في إناء معين.

أمّا الفلفل الحارّ فبعد جنيه ينشر أيضا في الزريبة، أودار الخزين فوق بساط الرّمل حتّى يجفّ، ثمّ يجمع ويوضع في كيس، ويعلّق بخيط في السّطح.

وهناك طريقة أخرى وهي تغميسها في المخللات كما هو موجود في أغلب بقاع العالم، ولكن في مجتمع البحث يخللون الفلفل ويطلق عليه اسم "المنقوع"* أمّا الطماطم فلا تخلل لوحدها بل مع الفلفل

* **المنقوع** كلمة تدل على الفلفل الحارّ المصبّر بالماء، ففي مجتمع البحث كانوا في السّابق لا يعرفون البيوت البلاستيكية الحديثة التي تزرع فيها الخضروات الصيفية في فصل الشتاء، فكانت النساء يقمن بتصبير الفلفل الحارّ بطريقتين، إحداهما ما يطلق عليه "المنقوع" وعملية تصبيره تكون في بداية فصل الخريف، فتأخذ المرأة حبات الفلفل الجيّدة من حيث النضج، ثمّ تشقها بواسطة سكين وتغمسها في الماء، ثمّ تضيف لهذا الماء الملح، بإضافة الثوم والكروية من أجل إضفاء نكهة للفلفل المصبّر، وهناك من يضيف كمية من الخل كمادّة حافظة. وهذا المصبّر يمكن أن يحافظ على صلاحيته أكثر من حول كامل.

ويطلق على هذا المزيج "المرذوخ"*.

هـ ـ حفظ النعناع والفليو

بحسب المقابلات التي أجريناها مع المخبرين استخلصنا بأنّ المجتمع لا يهتم كثيرا بهاتين المادتين اللّتين تنتجان محليا، وتصبيرهما يكون بتجفيفهما وربطهما وتعليقهما بخيوط في أسقف أماكن التخزين، ولهما أغراض ليست بالغذائية فقط، فهما يستخدمان في العلاج من بعض الأمراض، عدا الفليو الذي يطلق عليه الاسم الصّحيح النعناع، فهو يستخدم كمنكّه للشّاي، أمّا النعناع الذي يسمّى بالفليو في المناطق الأخرى يستعمل عند مجتمع البحث للعلاج فقط.

فاسمهما متعاكسان في مجتمع الدراسة.

و ـ حفظ القمح والسّميد

يعتبر البر والطحين مادتين أساسيتين في الغذاء اليومي لمجتمع البحث، حيث يعتبر البر ذا أهمية بالغة لأنّه يصنع منه العديد من المأكولات خصوصا وجبة الكسكسي التي تكون يوميا دون نقاش، كما يصنع منه الدشيشة والشربة "الجاريّ" والعصيدة والخبز وغير ذلك، وبحكم أنّ التسوّق ليس بكثرة، فيعمد الأهالي لتخزين ما يكفي العائلة طوال السّنة، حيث يقتنى القمح في فصل الخريف بالخصوص عند بيع غلّة التمور، فبدل أن يدّخر ربّ العائلة النقود، يحاول ادخارها موادا غذائية، ومن الطّبيعي أنّ القمح لا يحافظ على خصائصه مدّة طويلة فيعمد الأهالي لتصبيره بواسطة خلطه بالملح من أجل منع دخول الحشرات إليه.

أمّا ما يتعلّق بالسّميد، وهو مستهلك أيضا بحيث نجده يعوّض القمح عند العديد من العائلات، فهو سهل التّلف خصوصا في فصل الصّيف، فتقوم النّسوة بفتله، وتفويره على القدر حتّى ينضج تماما ثم ينشر حتى يجفّ في مكان مظلل، وبعد ذلك يوضع في أكياس في المكان المخصص للتخزين ويؤخذ منه المقدار الذي تحتاجه العائلة كلّما تطلّب الأمر ذلك لتحضير وجبة العشاء المتمثلة في الكسكسي.

* **المرذوخ** هو مزيج غذائي مصبّر ويكون حارا، يصنع من الفلفل الحار المدشش في المهراس، باضافة الثوم المرحي، إضافة للطماطم وتكون قطعا صغيرة ، ثم يضاف الملح والفاّح (وهو تابل)، ثمّ يترك هذا المزيج مدّة تصل إلى اليوم، فيخرج ماؤه تلقائيا نتيجة تفاعل هذه المواد مع بعضها، ثمّ يسكب باقي الماء الذي يخرج، ويعوّض بالزيت، سواء زيت المائدة أو زيت الزيتون، وعند هذا الحدّ يترك للتصبير في مكان بارد وجاف.

ك . حفظ النباتات البرية

في السّنوات الماضية، كان نبات الترثوث والذنون يستهلكان في مجتمع البحث كباقي المناطق الأخرى بوادي سوف كما رأينا سابقا في هذا البحث، إلاّ أنّ الأهالي يقومون بجلب هذه النباتات من البراري ويقومون بتصبيرها بواسطة عملية التجفيف، ثم الطّحن والنشر وتؤكل في فترات متفاوتة.

ل . الرمّان

يستخدم الرمّان في بعض الأمور كالأكل أو لإضافة الحموضة إلى بعض الأطعمة، ويستخدم أيضا كدواء لبعض الأمراض، كما تؤكل قشوره لعلاج أمراض المعدة، والنّساء اللّواتي يكن في فترة الوحم يأكلنه بشكل ملفت للانتباه، ونظرا لقيمته الغذائية باعتقاد مجتمع البحث، تعمد النّساء بعد جنيه لتجفيفه وتصبيره وتعليقه في المكان المخصص للتخزين.

م . الجزر اللفت

كان مجتمع البحث في القديم لا يهتم بهذه الخضار كثيرا، ولكنّها كانت تحفظ لفترات قصيرة بواسطة الدفن في الرّمال.

2 ـ العادات الاجتماعية المتعلقة بتصبير المواد الحيوانية

نظرا للظروف المعيشية وطبيعة الحياة التي كانت تسود المنطقة محل الدراسة، ونظرا للظروف المناخية وطبيعة الطقس فإنّ المجتمع اهتدى إلى مجموعة من الطرق لتصبير بعض الأغذية الحيوانية نذكر منها حسب المخبرة (رقم 18).

أ ـ تصبير اللحم

من العادات الاجتماعية المتعارفة عليها قديما عادة تسمّى "النفقه" وهي أن تشترك بعض العائلات في ذبح شاة سواء خروفا أو كبشا أو معزة، أو جملا، بحيث تقسّم أجزاء اللّحم والشحم بالتّساوي، وإذا كانت الذبيحة هي ناقة أو بعير تشترك فيها عائلات الحي أو الدشرة بكاملها، وهذا السلوك هو عادة حميدة ومحبذة حتّى يتسنّى لكلّ أفراد الحي أو الدشرة أكل اللّحم في يوم واحد خاصّة وأنّ اللّحم مرغوب فيه جدا لدى مجتمع البحث.

ومن العادات الاجتماعية أيضا، أنّ أغلب العائلات تقوم بذبح شاة في عيد الأضحى من كل سنة، وذلك في العاشر من شهر ذي الحجة، وهو قربان مستنبط من الدّين الإسلامي يسمّى أضحية العيد، وتعتبر هذه العملية إحدى السنن الدينية البالغة الأهمية حيث يعتني بها مجتمع البحث ويوليها أهمية كبيرة.

وكنتيجة لهذه العادات المتعلّقة بالذّبائح، فإنّه من الضروري تصبير اللّحوم، لأنّها لا تؤكل كلّها في يوم أو يومين، خصوصا أنّ اللّحم هو من المواد الغذائية السّريعة التعفّن والتّلف، وحسب المخبرة التّي أفادتنا بالعادة المتعلّقة بتصبير اللّحم والتّي تمثلت في تشريح اللّحم، ومسحه بملح الطعام وينشر على حبل معلّق بالهواء الطلق أثناء الليل، ويخبأ في غرفة أثناء النّهار إلى أن يجف ويخزن.

أمّا الشّحوم والتّي تستخدم في كلّ الوجبات اليومية تقريبا، فطريقة تصبيرها تتمثل بحسب المخبرة (رقم 18) في أن تقطّع المرأة الشحم الخاص بأحشاء الشاة المذبوحة إلى قطع صغيرة، ثمّ إلى جانب ذلك تحضر خليطا من البهارات متكوّن من مجموعة تتمثل في الكروية أو "لفّاح" يطلق عليه في مناطق أخرى "راس الحانوت"، بالإضافة إلى الفلفل الحار المجفف ويكون مدششا، ويضاف بعد

ذلك ملح الطّعام، وهناك من يضيف إلى هذا الخليط قدرا من التّمر من نوعية الغرس، ثمّ يمزج كل هذا مع قطع الشّحم المقطع، وتقوم المرأة بحشوه في إناء من الطّين يدعى في مجتمع الدراسة "الشبرية" (وهي تشبه الجرّة ولكن فمها أوسع قليلا) بطريقة التراص بحيث يقلل من فجوات الهواء بين القطع، لأنّ الهواء يعمل على تعفنها خاصة إذا كانت المدّة طويلة، وبعد ذلك يغطّى هذا الإناء لمنع دخول بعض الحشرات إلى الشحوم المصبّرة.

وتعتبر هذه العادة موجودة عند كل عائلات مجتمع البحث نظرا وبحسب المخبرة نفسها بأنّ الشّحم ضروري لأغلب الوجبات إن لم تكن كلّها، لأنّ المجتمع يعتبر تناول الدسوم ضروريا للجسم باعتبار أنّ ذلك يمنح الطاقة للفرد، كما يعمل على إضفاء الدفء خصوصا في فصل البرد.

وكما ذكرنا سابقا توجد عادة "النفقة" ومناسبة "أضحية العيد"، فإنّ كمية اللّحوم وأجزاء الشاة الأخرى لا يمكن استهلاكها في وقت قصير، كما أنّهم يصبرون اللّحم والشحم فإنّ أحشاء الشاة تصبّر أيضا، وذلك بطريقة تشبه تصبير اللّحم، حيث تقوم المرأة بغسل الأحشاء ثم تقطعها إلى أجزاء كبيرة وتقوم بتقطيرها من الماء، كما تضيف لها بعضا من الملح ثمّ تنشرها على حبل رقيق إلى أن تجف تماما بعيدا عن أشعة الشمس، ويتم تصبيرها واستهلاكها لوقت الحاجة.

ب . حفظ لحوم الحيوانات البرية

كما أسلفنا الذكر بأنّ مجتمع البحث كان يتناول بعض لحوم الحيوانات البرية التي غالبا ما تظهر في مواسم دون أخرى، ففي فصل الرّبيع تبدأ الزواحف في الخروج من سباتها، وأهمّها الشرشمان الذي يكون بكثرة في المنطقة، فنجد السّكان يصطادونه بكميات معتبرة كي يتناولونه عن طريق الشوي على الجمر، وبحكم العدد المعتبر فإنّهم يصبرون الباقي بواسطة تنظيف الأحشاء مع إضافة القليل من الملح، ثمّ يعلّق في الهواء الطلق إلى أن يجف تماما ثم يخزّن لاستهلاكه وقت الحاجة، خصوصا بطبخه في أكلتي البركوكش والدشيشة، كما أنهم يصبّرون لحم الغزال بالطريقة نفسها التي يصبّر بها لحم الغنم أو الابل.

أمّا الجراد فطريقة تصبيره تختلف نوعا ما عما سبق، بحيث يصطاد ويطبخ بإضافة الملح في قدر به ماء، ثمّ يصفّى من الماء وينشر حتّى يجف تماما، ويوضع في أكياس ذات تهوية ويؤكل في مرات مختلفة.

ج . حفظ منتجات الحيوانات الأليفة

يعتبر الدّهان أهم منتج حيواني تهتم النساء بتصبيره، لأنّه لا يمكن استهلاكه بكثرة، وأيضا بسبب استخدامه في أغراض مختلفة، فمن ناحية يكثر استهلاكه في البرد باعتقاد أنّه يساهم في رفع درجة حرارة الجسم حتّى يتغلّب عن البرد، ويقل استهلاكه في فصل الصيف، ومن ناحية أخرى يعتبر الدّهان علاجا للعديد من الأمراض، وبالتّالي فلا بد من تخزينه طوال السّنة لأنّ إنتاجه من العادة يكون في فصلي الرّبيع والصيف فقط، وبالتّالي فلا بد من ابتكار طريقة له، حيث تقوم المرأة بتسخين الزّبدة المستخرجة من حليب الماعز مع إضافة القليل من القمح المرحي، ثمّ يصفّى بعد ذلك ويوضع في أواني زجاجية مخصصة لذلك، ويضاف إليه قليل من معجون التّمر الذي يدعى ب "الرّب" لإضافة نكهة فقط.

وهذا الرّب موجود أيضا عند النوبة ويدعى باسم الخمور ويصنع بالطريقة الآتية "تنزع النواة من التمر، وتنقع في الماء لفترة من 3 إلى 5 أيام، ثم يغلى التمر على النّار، حتى تنقص كمية الماء، ويتركز المحلول البلحي، ثم يصفّى باستخدام المصفاة، بعدها يصبح السائل جاهزا للإستخدام"[1]

كما تقوم المرأة بتخزين البيض ولكن لفترة غير طويلة بدفنه في الرّمل فقط.

وهناك تابل يصنع من الحليب يستعمل في الكسكسي من العادة لإضافة الحموضة له، أو للأطعمة الأخرى، وهذه المادة عبارة على حليب مجفف "بودرة" مضاف إليه عشبة الإكليل المعروفة في منطقة الغرب الجزائري باسم لزير.

فعملية تصبيره تكون بواسطة ترويب الحليب بصفة زائدة حتى يختثر جيّدا، ثمّ يؤخذ الجزء العلوي ويستغنى عن الماء السفلي الذي يدعى مصل الحليب، وبعد ذلك يوضع ذلك في قطعة من القماش

1 عالية حبيب وآخرون: مرجع سابق، ص 283. بالتصرف.

ويقطّر من الماء جيدا، ثمّ تضاف له تلك العشبة "الإكليل" وينشر حتّى يجف ويطحن. ثمّ يوضع في إناء مخصّص لذلك ويستخدم عند الحاجة.

وهذا الأمر موجود بصفة قليلة في مجتمع البحث، ولكن بالنسبة للعائلات التي تعيش في منطقة الأوراس فهو منتشر بدرجة كبيرة جدا نظرا لكثرة حليب البقر عندهم.

ثالثا: عادات تناول الوجبات

إن الأكل ليس عملية تناول الطّعام وإشباع البطن فحسب، بل تصاحبه مجموعة من السلوكيات الاجتماعية التّي تختلف من مجتمع إلى آخر، وهذه السلوكيات يمكن أن يطلق عليها آداب المائدة.

فلكل مجتمع عاداته في طريقة تناول الطّعام، فمنها ما يتعلّق بكيفية الجلوس، ومنها ما يتعلق بالفئات العمرية الجنسية التي تتناول مع بعضها، ومنها أيضا ما يتعلّق بالكلام أثناء تناول الوجبة الغذائية.
وممّا لا شكّ فيه، أنّ هذه العادات لها اعتبارات مختلفة، فقد يكون للدّين دور فيها، وقد يكون للبيئة دور كذلك، وقد يكون لتاريخ المجتمع دور أيضا، فطبيعة الاستعمار مثلا لها دور في ترسيخ بعض العادات الغذائية، حيث نجد البلدان العربية التّي استعمرت من طرف الفرنسيين لا تركز على وجبة فطور الصّباح، بعكس البلدان العربية التّي استعمرها الانجليز، وهكذا لكل مجتمع عاداته.
ففي الفترات الماضية من تاريخ مجتمع البحث كانت هناك آداب مميزة لمائدة الطّعام تتلخص في ما يلي:

1 ـ مكان تناول الوجبة

ليس هناك مكان محدد لدى مجتمع البحث مخصص لتناول الوجبة الغذائية، فيمكن أن يكون ذلك المكان الباحة بوسط المنزل، أو يكون غرفة النّوم، أو الزريبة المصنوعة من جريد النّخل، إلاّ أن يكون المطبخ فلا، بعكس المجتمع العراقي مثلا فمكان الطّعام حتما يكون في المطبخ حيث يكون المطبخ واسعا ويخصص له جزءا لتناول الوجبة الغذائية وتحضر العائلة بكامل أفرادها ويجلسون بصفة دائرية على الفراش دون المقاعد أو الكراسي*، أمّا في مجتمع الدراسة يبتعدون عن تناوله داخل المطبخ لأنّ من العادات الاجتماعية لديهم أنّ الرجل لا يدخل المطبخ مهما كانت الظروف، لأنّ ذلك ينقص من رجولته باعتبار أنّ المطبخ للنساء فقط، وتملك خصوصيتها داخله، كما أن نساء مجتمع الدراسة يعانين من مشكلة الدونية والاحتقار.

* مقابلة مع عراقي

ويختلف اتخاذ مكان الطّعام من فصل لآخر، ففي الصّيف مثلا يكون ذلك في وسط باحة المنزل على بساط الرّمل الموجود في كل بيت دون استثناء، هذا خلال وجبة العشاء، أمّا في الغذاء يكون تحت سقف زريبة المنزل التي فراشها الرّمل أيضا، وفي فطور الصباح يكون على بساط رمل باحة المنزل قبل شروق الشمس طبعا، فتتناول العائلة بكبيرها وصغيرها وجبة فطور الصباح التي نضجت من العادة على نار الحطب التي توقدها الأم في الصّباح الباكر.

أمّا في فصل البرد يكون تناول فطور الصباح في زريبة المنزل على بساط الرّمل أيضا والتّي نضجت على نار الحطب، وفيما يخص وجبة الغداء تكون في باحة المنزل لأنّ الشّمس غير حارّة، أمّا العشاء فيكون في الزريبة أو في أي غرفة أخرى عدا المطبخ فهذا مستحيل.

ومن هنا نستطيع القول بأنّ الفصول كانت لها علاقة بتحديد مكان تناول الوجبات الغذائية، وليس الفصول فقط بل كان للرّمال التّي تكسو المنطقة والمتواجدة في كلّ البيوت وكلّ الغرف أيضا لها علاقة كبيرة باختيار مكان الطّعام أيضا، وفراش الرّمل يعتبر صالحا لهذا الأمر لأنّه نقي ونظيف ولا يلتصق بالملابس ولا يوسخها.

2 ـ الكلام عند الأكل

بحسب إحدى المقابلات التي أجريت مع المخبرة (رقم 16) توصلنا إلى أنّ العادات المتعلقة بالكلام أثناء تناول الوجبة الغذائية قليلة جدا، فنجد ذكر "باسم الله" عند بداية الأكل و"الحمد لله" عند الانتهاء منه، وتتخلل لفظة "الحمد لله" مدّة التناول، بحيث عند شرب الماء يقول الذي شرب "الحمد لله" فيرد عليه الآخرون "بالصحة" أو"بالشفاء" فيقول "الله يسلّمك".

فالكلام أثناء الوجبة لا ينصح به أفراد المجتمع، بحيث نجدهم يربون الأطفال على السكوت حتّى يأكلون القدر الذي يشبعهم ولا يلهون بالكلام، في حين نجد خلاف ذلك في مجتمعات أخرى، فمثلا يستغل الفرد في العائلة العراقية طرح قضيته أثناء تناول الوجبة لأن أفراد العائلة جميعا حاضرون وبالتالي يكثر الكلام في هذه المدّة، ونجد مثلا العائلة أو الأسرة الألمانية تدوم المدّة الزمنية المخصصة لتناول الوجبة خصوصا العشاء إلى ثلاث ساعات، وهذا راجع إلى الكلام الذي يكون

أثناءها، وهذا الكلام فيه ما هو متعلّق بالطقوس ومنه ما يتعلّق بشؤون الأسرة وقضاياها، والجزء الأكبر منه يتعلّق بالهزل والمرح، ثم بعد الانتهاء يذهب كل فرد لممارسة شؤونه الخاصة، وبالتالي فالوجبة الغذائية عند هذا المجتمع ليس لملء البطن فقط، بل هي رمز للترابط الأسري والتنشئة الاجتماعية للنشء.

3ـ طريقة الجلوس

تدخل طريقة الجلوس لتناول الوجبة الغذائية في إطار آداب المائدة، وتتحكم فيها العديد من المتغيرات، منها الدّين، الثقافة، الجانب الصحي، طبيعة الوجبة وهكذا، فلكل مجتمع عاداته في هذا الجانب من الثقافة، ولكن بحسب الملاحظة الميدانية وجدنا بأنّ الوجبة تؤكل بطريقة الجلوس على الأرض مباشرة وبصورة دائرية عند أغلب العائلات، فتساءلنا ما إذا كانت هذه الطريقة نفسها في السابق أم لا؟ فكانت الإجابة من طرف المخبرة (رقم 16) تتمثل في أن الاختلاف يكمن في الأدوات المستعملة فقط، مثل الطاولة التي لم تكن مستعملة في السّابق، وكذلك الملاعق كانت نادرة خصوصا عند تناول الكسكسي، والفراش الذي كان الرمل حتّى في الشتاء القارص.

4 ـ الفئات التي تتناول مع بعضها الوجبة الغذائية

تدخل الفئة العمرية في آداب المائدة في العديد من الأمور المتعلقة بالأكل، كما أن للجنس أيضا جانب مهم في هذا المجال، فهناك من المجتمعات التي تعوّدت على أطعمة ومشروبات خاصة بفئة عمرية معينة، وهناك من المجتمعات من تحضر مائدة خاصة للرّجال وأخرى للنّساء والأطفال، وعند آخرين تتناول العائلة بصغيرها وكبيرها مع بعضها على مائدة واحدة، فلكل مجتمع عاداته وثقافته في هذا المجال، فعند السودانيين مثلا شرب القهوة لا يكون سوى للرجال الكبار فقط لا للنساء ولا للأطفال ولا حتى للشباب، فمن المستحيل أن يشرب الشاب القهوة أو البنت بل إذا حدث ذلك يعتبر عارا كبيرا*.

* مقابلة مع سوداني الجنسية

أمّا في مجتمع البحث فله خصوصيته في هذه العادات، فبحسب مقابلة مع المخبرة (رقم 16) حول تناول الوجبة الغذائية تبيّن من خلالها بأنّ في السّابق لا يمكن للمرأة خصوصا الزوجة أن تتناول الطعام أمام زوجها، فهذا كان عيبا كبيرا، فهي تقول مفتخرة "أنايا وحدة، عمري ما شافني راجلي ناكل".

فالزوجة إذن لا يمكن أن تتناول الطعام أمام زوجها، ولكن من الواجب عليها أن تجلس بجانب الزوج أثناء تناوله الطعام، علّه يحتاج للماء أو مزيدا من الطعام، ومن العادة بل من واجب المرأة أن تتناول نصيبها من الطّعام بعد انتهاء الرجل خوفا من عدم كفايته، فتضيف له من نصيبها إلى غاية أن يشبع، باعتبار أن الزوج هو الذي يبذل الجهد كما أفادتنا به المخبرة نفسها.

أمّا الأطفال، فهم من العادة يتناولون طعامهم مع الكبار، البنات مع النساء والأبناء مع الرجال حسب ما أفادنا به المخبرة نفسها.

رابعا: العادات الاجتماعية الغذائية السابقة في الأفراح والمناسبات

لكل مجتمع بشري مجموعة من المناسبات والأفراح التي تعوّد فيها على مجموعة من المراسيم والعادات المختلفة، منها ما تعلّق بالدّين السّائد في ثقافة ذلك المجتمع، ومنها ما تعلّق بمناسبات وطنية، أو ما تعلّق ببعض الأمور الأخرى كالفصول السنوية أو بالجانب الاقتصادي كجني المحاصيل الزراعية وما إلى ذلك، كما هو الحال في فلسطين، حيث عند جني الزيتون يتعاون المزارعون مع بعضهم البعض وتكون مناسبة رائعة من حيث التلاقي والتعاون، كما يتغنون بقصائد وأشعار مختلفة بأصوات جماعية مرتفعة تسمع من بعيد، ومن بين هذه الأغاني وأشهرها الأغنية التي مطلعها:

على دلعونا على دلعونا زيتون بلادي أحلى زيتونا

مما يثبت أن المجتمع الفلسطيني متمسك بأرضه ومنتج أرضه، بحيث يرمز هذا الأمر من خلال أن زيتونهم أفضل زيتون، كما أن تعلّق المزارعين بهذه الشجرة المباركة حسبهم ناتج على مجموعة من المتغيرات التي من بينها: أنّ الزيتون غذاء مفيد جدا للجسم سواء أكله أو شرب زيته، وهو يعتبر عملة نفيسة في السّوق العالمية، وكنتيجة لطبيعة هذه الشجرة التي تعتبر من أطول الأشجار تعميرا في الأرض ولا تثمر إلاّ بعد حين من الزمن تصل إلى بضع سنوات، وتحتاج إلى عناية مستمرة في كل حول، ولذا تعلّق بها المجتمع ومن الصعب جدا بعد العناية المستمرة والانتظار الطويل من السهولة التخلي على هذه الشجرة.

و في مجتمع البحث تكوّنت في ثقافته مجموعة من المناسبات والأعياد والأفراح المختلفة، منها ما هو ديني ومنها ما هو اجتماعي، ومناسبات تتعلّق بالبيئة والطبيعة الجغرافية التي يعيش فيها هذا المجتمع، ومن البديهي خلال هذه المواسم الاجتماعية تكون هناك ممارسات وعادات تختلف عن تلك الأيام العادية من حيث اللباس وطبيعة الغذاء وهكذا.

1- العادات الغذائية في الأعراس

لا يخلو أي عرس من مجموعة الأطعمة التي تقدّم للضيوف، من أكل أو شرب أو حلويات معدّة أو محضّرة مسبقا، وحسب المخبرة (رقم 9) التّي كان الحديث معها طويلا فاختصرنا منه ما يعنينا من حيث الجزء المخصص للغذاء في الأعراس، فأفادتنا بأنّه في الماضي كانت الأسرة المنظمة للعرس تحضّر الكسكسي مسبقا أي تصبره، لأن الكسكسي وجبة أساسية في العرس، كما أن تحضير الحيوانات التي ستذبح في المأدبة أمر ضروري أيضا، ونوع اللحم يكون من الغنم أو الجمل، وقبل العرس ببضعة أيام يحضّر أب العريس الخضر المتمثلة في البصل والكابو والثوم وبعض المواد الغذائية الأخرى، لأن تحضير وجبة الكسكسي يتطلّب هذه الخضر، كما أن اللحم في هذه المناسبات يعتبر أساسيا أيضا.

ففي الأعراس عادة ما يكون العشاء كسكسي باللّحم، أما الغذاء فيكون عبارة على مرق وخبز، وفي الزمن القديم تفيد المخبرة نفسها أن الغذاء المقدم للضيوف في الأعراس سواء في الغذاء أو العشاء يكون كسكسا ولحما مشويا أو في الطعام، والمثل الشعبي يفيد بأنّ الكسكسي هو الغذاء الأساسي في أعراس أهل المنطقة "الزغاريد قبة والنعمة ما كاين حتّى حبة"*، مما يدل على أن طعام معزومي العرس دائما يكون كسكسي.

وبعد استفسارنا على عدد المعزومين من النساء والرجال كانت الإفادة بأنهم كثر، يتألفون من الجيران وأصحاب الدشرة أو الحي الواسع مع العرش بأجمعه. وهذا يتطلّب من صاحب العرس تحضير العدد الهائل من الخرفان أو بالأحرى كمية كبيرة من اللحم، فهل كل الناس قادرون على هذا؟ كانت الإفادة بأن المعزومين من عاداتهم أن يهدوا لصاحب العرس خرفانا أو نعاجا أو مواد غذائية أخرى ولكن في الغالب تكون خرفانا، وبالتالي تذبح الغنم المحضرة قبل العرس، وتلك التي أهديت، فيكثر اللّحم ويؤكل دون اقتصاد، مشويا مع الشّاي، ومطبوخا مع الطعام، مع العلم أن أيام العرس قديما كانت تفوق سبعة أيام.

---

* **النعمة** هنا تعني الكسكسي عند أهل المنطقة، ويفيد المثل أنّ العرس لا تكفيه زغاريد النساء العالية الصدى، بل لابد من وجود الكسكسي للمعزومين.

ومن خلال هذا نستنتج بعض الأمور المتعلّقة بإشكالية بحثنا، من بينها أن البيئة الجغرافية في عنصرها الحيواني تدخلت بشكل كبير في العادات الاجتماعية الغذائية في الأعراس، بحيث لعبت المواشي والإبل دورا هاما في هذا الجانب، مع العلم أن النشاط الاقتصادي الذي كان ممارسا في مجتمع البحث يتمثل في زراعة النخيل التي دخلت أيضا في الأعراس من خلال تقديم وجبة التمر أثناء الضحى، والنشاط الموازي هو تربية الأغنام ورعي الإبل.

وتدخلت المنتجات الزراعية المحلية أيضا في تحضير وجبات الأفراح، كالكابو والبصل والثوم التي هي منتجات زراعية محلية على غرار التمر.

2 ـ العادات الغذائية في مناسبة الختان

عملية الختان هي عادة اجتماعية موجودة عند الكثير من المجتمعات البشرية خصوصا التي تدين بالاسلام. والجنس المعني بالختان الذكور والإناث، وعند الأغلب يكون للذكور وفي البعض القليل للإناث أيضا.

ويقوم بهذه العملية أشخاص لهم خبرة سواء للأطفال بالنسبة للذكور، ونساء بالنسبة للبنات، ففي المجتمع النوبي مثلا الختان "منتشر انتشارا كاملا بالنسبة للذكور والإناث على السواء"[1]

ويختلف العمر المحدد من مجتمع إلى آخر ومن عائلات إلى أخرى، ويختلف كذلك من حيث الفصول والأوقات التي تقام فيها هذه المناسبة، فعند النوبيين بمصر "بالنسبة للذكور لا توجد مواعيد ومناسبات معينة يتم فيها الختان، وإنّما يمكن أن يتم في أي يوم من أيام السنة، ... أمّا البنات فيتم ختانهن في الليالي المقمرة أو بمناسبة المولد النبوي، ويحتفل بهذه المناسبة احتفالا يفوق مظاهر الاحتفال الذي يقام بمناسبة ختان الولد"[2].

والختان للذكور هو الطابع المميز للمجتمع الجزائري ومجتمع الدراسة بالخصوص، وهو عملية قص جزء بسيط من أعلى ذكر الصبي اقتداء بتعاليم الدين الإسلامي، وتكون هذه المناسبة في مجتمع

1 محمد الجوهري: **الأنثروبولوجيا**، مرجع سابق، ص 478.

2 المرجع نفسه، ص 478.

الدراسة من العادة خلال الاحتفال بالمولد النبوي الذي يصادف 12 ربيع الأول من السنة القمرية، ويمكن أن تكون في أيام أخرى أو خلال مناسبات اجتماعية أخرى كالأعراس مثلا.

وفي مجتمع الدراسة يكون الاحتفال بالختان خلال ثلاثة أيام كاملة، وتقدم فيه الأطعمة المتمثلة في الكسكسي باللحم أثناء الليل، والتمر بالحليب مع المرق أثناء الغداء، وتكون هناك ذبيحة بقصد إكرام الضيوف، ويكون الختان بركة للولد عن طريق سيلان دم الشاة المذبوحة، وتقدم خلال الاحتفال جملة من الحلوى والبسكويت المصنّعين، لأنّ في السّابق لم يتعود المجتمع على صناعة الحلويات المناسباتية داخل المنازل بطريقة محلية، ويقوم المعزومون بتقديم بعض الهدايا للوالدين قد تصل إلى تقديم شاة من صنف الضأن أو تيس من صنف الماعز.

3ـ الأغذية في المناسبات الدينية

يدين مجتمع الدراسة بالدين الإسلامي، ويمارس طقوسه المختلفة ومن بينها تلك الأعياد التي أقرّها هذا الدين وتتمثل في عيدين أساسيين عيد الفطر وعيد الأضحى.

في هذين العيدين تحرص النساء في الصباح الباكر على طهي الحمص أو الفول الجافين، وتفطر العائلة منه صباحا، ويوزع على الجيران تبركا بهذه المناسبة، بحيث كل العائلات تتبادل توزيع الفول أو الحمص مع بعضها، وفي عيد الأضحى تذبح شاة حيث يحبذ الكبش الذكر إقتداء بالسلف وبالأنبياء والمرسلين، أمّا الحلويات فلا تحضر أبدا، عدا تلك الحلويات والبسكويت المتحصل عليهما عن طريق الهدايا من الأقارب.

ومن خلال هذا يتبين أن لا دخل للبيئة الطبيعية في العادات الاجتماعية الغذائية في الأعياد الدينية عدا استعمال الحطب البري في شوي اللحم فقط.

وهناك مناسبات دينية أخرى لا دخل فيها للبيئة الطبيعية مثل عيد رجب وشعبان ورمضان وغيرها فالغذاء في هذه المناسبات عبارة عن طعام باللحم لا غير، ولكن يبدو أنّ عادة تناول الكسكسي باللحم باتت لصيقة بمجتمع الدراسة في هذه المناسبات، خصوصا ما تعلّق بعيد عاشوراء، وفي هذه المناسبة تقوم النساء بإعداد وجبة الكسكسي الشهي مع اللحم ومن العادة يكون لحم الغنم، ويبدو أن هذه العادة

لا توجد عند مجتمع الدراسة فحسب بل توجد عند المجتمع بتونس فعاشوراء عندهم "تصادف العاشر من شهر محرم، وقد ارتبطت به جملة من العادات الغذائية خلّدتها الذاكرة الاجتماعية، مثل قولهم: نهار نعاج، ونهار عجاج، وفي قول آخر: تسوعة بالدجاج، وعاشوراء بالنعاج، لكن مهما كان اللحم المستخدم فإنّه عادة ما يكون مصحوبا بالكسكسي"[1]

4 ـ الغذاء في شهر رمضان

في كل سنة قمرية يعود شهر رمضان ويصوم فيه المسلمون عن الأكل والشرب وكل الشهوات طيلة النهار من طلوع الشمس إلى غروبها باعتبار هذا الأمر فريضة فرضها الدين الإسلامي على كل مسلم بالغ سواء كان ذكرا أو أنثى.

وبحكم أن مجتمع الدراسة يدين بالإسلام فإنّه يطبّق هذه الفريضة بصورة جدية ويهتم بها أكثر من الفرائض الأخرى، بحيث يمكن أن يكون هناك بعض الأفراد لا يؤدون فريضة الصلاة ولكن فريضة الصيام يقومون بها، وقد صاحب مجتمع الدراسة مجموعة من العادات الاجتماعية الغذائية تعود عليها بمرور الزمن، وخصوصا بأن عملية الصوم هي الامتناع عن أكل الطعام، فمن البديهي أن تكون هناك عادات غذائية مميزة تتمحور جميعها في طريقة تحضير الطعام والعناصر الغذائية الخاصة بهذا الشهر، وكذلك طرق تناولها والآداب مميزة لها، لما لقدسية هذا الشهر عند مجتمع الدراسة.

قبل حلول شهر رمضان وبالضبط بداية من منتصف شعبان الذي يسبق رمضان، تبدأ العائلة في التحضير المميز لأصناف الأطعمة والمواد الغذائية التي تعوّدوا عليها سابقا، فيشتري رب العائلة ما يكفي من القمح والتوابل وبعض الحبوب الجافة.

1 عماد صولة: مرجع سابق، ص ص 265 266.

5 ـ الأعياد العرفية

تتعلّق الأعياد العرفية كلّها بالبيئة الطبيعية وخصوصا فصول السنة الشمسية، فمن بين هذه الأعياد:

. عيد الخريف

فحسب المخبرة (رقم 9) فإنّ كل العائلات تعمد لطهي وجبة الكسكسي التي تسمّى المسقّى بلحم الجمل، وفي هذا السياق، أفادنا المخبر عن سبب اختيار لحم الجمل في هذه المناسبة، وهو أنّ الضأن في السابق لم يكن متوفرا بكثرة، فكان النّاس لا يملكون سوى البعير.

وحسب تحليلنا الخاص تبيّن أنّ هذا لم يكن السبب الرئيسي في هذا المجال، حيث عند مقابلة أخرى مع المخبر (رقم 1) أفادنا بأن الرعاة كانوا يمتلكون الماعز والذي يستحب أكله في الخريف أو نهاية الصيف، وبالتالي فليس عدم وجود الغنم هو السبب، ولكن إذا رجعنا لطبيعة لحم البعير في الخريف تبين من المخبر بأنّ الجمل يشتد قوامه في بداية هذا الفصل خصوصا الحاشي وهو صغير الجمل وبالتالي يستلذ أكله، أمّا عن سبب اختيار عيد للخريف حسب المخبر نفسه تبين منه أنّ الخريف يعني قدوم الخير، وهذا الخير هو المطر ونضج التمور، وبالتالي التمور غذاء أساسي والمطر يسقي الأعشاب الرعوية، وفي هذا الفصل تكثر إقامة الأعراس نتيجة لتوفر الأموال لأن المصدر الأساسي للكسب هو غلّة النخيل مع أن الخريف مناسب لأنّ جوّه معتدل.

وبالتالي فالبيئة لعبت دورا هاما في هذه المناسبة الاجتماعية وذلك بدخول عنصر بيئي هام وهو الجمل.

. عيد الربيع

من مميزات فصل الربيع اعتدال الجو ونمو النباتات والأعشاب، فتخضرّ الأرض وتتفتق الأزهار فينشرح الإنسان ويكثر النشاط والحيوية، فالربيع يعتبر مرحلة هامة في حياة مجتمع الدراسة لاعتبارات أهمها:

. الخروج من فصل البرد القارص الذي يعتبر قاسيا لدى مجتمع الدراسة، فالأغنام والإبل تشحب من البرد وتكون معرّضة لجملة من المخاطر كالصقيع ووابل المطر، وبالنسبة للسكان فهو متعب لقلة الملابس وسوء التغذية ورداءة المنازل.

. ويبدأ النخيل في إخراج طلعه ، وهو يعتبر أهم مورد غذائي واقتصادي لأهل المنطقة.

. وتبدأ مرحلة الرعي في البوادي.

. وفي هذا الفصل يتم فيه غرس النخيل لمن أراد ذلك.

وكنتيجة لهذه الاعتبارات تعوّد مجتمع الدراسة على الاحتفال بالربيع، وصاحب ذلك مجموعة من المراسيم التي تتخللها أغذية تتمثل في اللّحم والرفيس وبعض المشروبات التي تتمثل في الشاي الأخضر.

أما اللحم فهو من الغنم، بحيث يذبح كبش عندما يختار اليوم الذي يكون فيه الزّاز، والزّاز هو عملية قص صوف الغنم من طرف مجموعة من الرّجال عن طريق التعاون، وبهذه المناسبة يقوم أفراد المجتمع باختيار كبش ويركبون فوقه طفل صغير ثم يذبح ويؤكل من طرف الجميع، أمّا النسوة فيتّجهن لتحضير المرفوسة المصنوعة من الخبز الرقيق والملبّس بالدهان المذوب من زبدة الماعز التي أنتجت في الشتاء بالإضافة للسكر حتّى تأخذ طعما حلوا، وحسب مصدر آخر فإنّ المرفوسة يضاف لها "تمر الغرس المنعم المخلوط المنظف"[1]. وخلال هذا اليوم يكون الشاي حاضرا طوال الوقت، مع تجاذب أطراف الحديث أحيانا ويغني البعض أو الجميع بعض الأغاني المحلية أحيانا أخرى، ويمكن أن تدوم هذه الاحتفالية أكثر من يوم بحسب عدد الغنم المملوكة من طرف الشخص أو العائلة.

1 بن سالم بن الطيب بالهادف: مرجع سابق، ص 145.

الفصل الخامس

تحولات البيئة والممارسات المصاحبة للعادات الاجتماعية الغذائية اليومية

أولا: التغيرات في البيئة الداخلية

1. عناصر البيئة الجغرافية
2. تغيرات البيئة الاجتماعية
3. التغير الاجتماعي بعد الاستقلال

ثانيا: دور البيئة الداخلية في تغيير العادات الاجتماعية الغذائية

1. فطور الصباح
2. وجبة الغداء
3. وجبة العشاء
4. وجبات ثانوية
5. الفواكه

ثالثا: علاقة البيئة الخارجية بتغيير العادات الاجتماعية الغذائية

1ـ الطرق
2ـ الهجرة والعمل بالشركات البترولية والمنجمية
3ـ وسائل الإعلام
4ـ التعليم داخل وخارج المنطقة

ربعا: تصبير المواد الغذائية

أولا: التغيرات في البيئة الداخلية

1. عناصر البيئة الجغرافية

إنّ البيئة الجغرافية يمكن تغييرها بواسطة عوامل مناخية أو إنسانية، فكثيرا من الأراضي الخصبة تحوّلت إلى فقيرة نتيجة التصحّر أو عوامل التعرية مثل ما هو واقع للمناطق الجبلية التي تعاني من عملية انجراف التربة، ومثل ما واقع لبعض المناطق الشمالية في الجزائر حيث تأثرت بالتصحّر بسبب عامل الرّياح الذي ينقل الرّمال من الجنوب إلى الشمال، و يمكن أن تحدث بعض العوارض الطبيعية كالبراكين فتخصّب التربة، أو تحدث فيضانات فتجرف معها الكثير من النباتات والأشجار.

وتعمل العوامل البشرية كذلك في الكثير من الأحيان على تغيير البيئة الجغرافية بحكم التحرّك الدائم للإنسان واستخدام ما تجود به البيئة من ثروات طبيعية سواء مياه أو نبات، أو أحجار، أو معادن وغير ذلك، وهذا نتيجة لبحث المجتمع عن قوته وحاجياته المختلفة، وكذلك من المعروف عند الإنسان أنّه يحاول دائما وبصفة مستمرة البحث عن حياة أفضل من خلال نشاطه اليومي، وهذا الاستغلال للثروات وعناصر البيئة يمكن أن يكون متناغما مع البيئة، ويمكن أن يكون متصادما معها فترجع على المجتمع بالسلب.

و لعلّ الكثير من العمليات التّي حدثت على الأرض وما تحويه، أثّر سلبا على البيئة من ناحية التوازن كانقراض بعض الحيوانات والنباتات أو ظهور أنواع جديدة من الكائنات الحية الحيوانية والنباتية.

كما عمل استغلال البترول على تقدّم الحياة البشرية، إلاّ أن ذلك خلّف أضرارا جسيمة على صحة الإنسان جرّاء ما ينبعث من تلك العوادم والأبخرة الناتجة عن استعمال هذه الطاقة، وعند ازدياد الكثافة السكانية تزحف المباني السكنية والمؤسساتية على الثروة الغابية والمزارع المختلفة، كما جرى في سهول متيجة بالجزائر وغيرها كثير.

فعدم الاستغلال الأمثل لعناصر البيئة الجغرافية يرجع على الحياة الاجتماعية بالسلب، لأنّ ذلك لم يكن آخذا بالحسبان فكرة التنمية المستدامة التي تنص على أن تستغل البيئة استغلالا لا يضر بها.

وهناك بعض التحوّلات التي رجعت بالإيجاب على البيئة والمجتمع نتيجة لتحويل الإنسان وجه الطبيعة بطرق علمية ومدروسة، مثل عملية التشجير التي تعتبر غاية في الأهمية من حيث توفير الجو اللطيف، وتقليص التلوث، ومنع التصحر مثل مشروع السد الأخضر في الجزائر، الذي حدث عند السبعينيات في عهد الرئيس الراحل "هواري بومدين".

كما أنّه يمكن أن يتصور من بعض الأنشطة أنّها مفيدة ولكن إذا كان فيها إفراط في ناحية من النواحي ترجع بالسلب على البيئة، مثل ما يحدث للعديد من الأراضي الزراعية التي تحوّلت إلى قاحلة وغير صالحة للزراعة أو مردوديتها تتقلّص بسبب سوء استخدام التربة وإجهادها، فتفقد مركبات عضوية معينة جراء عدم العمل بالدورة الزراعية، أو استخدام المبيدات بشكل مضر للتربة.

كما أنّه يمكن أن يكون تغيير البيئة الطبيعية بسبب الرّعي الجائر أو الصيد الذي يؤثر سلبا على عملية التوازن البيئي مثل ما حدث من انقراض العديد من الأنواع الحيوانية، كالنقص الواضح لحيوان الغزال في الجنوب الجزائري، ومثل ما وقع للعديد من المناطق الرعوية التي كانت معشوشبة فأصبحت جرداء بسبب الرعي الجائر.

وهذه العمليات التّي حوّلت البيئة الجغرافية في العديد من عناصرها موجودة في أغلب مناطق العالم، الخصبة والبحرية وكذلك الصحراوية.

ومما لا شك فيه أن هذه التحولات المختلفة تعمل على تغيير العادات الاجتماعية للمجتمع المحلي في العديد من الأحيان، فيتغير ربّما طبيعة المسكن أو عادات اللباس أو العادات الاجتماعية المتعلقة بالغذاء أو الاستطباب.

فما هي التحوّلات التّي حدثت في البيئة الصحراوية بوادي سوف؟ وخصوصا التحولات التي حدثت في بيئة مجتمع البحث الذي نحن بصدد البحث فيه؟.

هذا ما سنعرفه في الآتي.

أ . تحولات البيئة الصحراوية بفعل الطبيعة

من الطبيعي حدوث بعض التحولات في عناصر البيئة الجغرافية بسبب المناخ أو كوارث طبيعية معينة، ففي وادي سوف ومنطقة مجتمع البحث بالتحديد هناك تحوّل حدث في الغطاء النباتي الناتج في جزء منه عن فترات الجفاف التي مرّت بها المنطقة، فنقص نزول المطر عمل على التقليل من الأشجار البرية مثل شجرة "العلندى"* التي كانت تعرف بها منطقة "وادي العلندة"، حتّى أنّ تسميتها كانت نتيجة لكثرة هذا النوع بها، فقد كانت بها هذه الأشجار بكثافة شديدة، أمّا اليوم وبحسب الملاحظة الميدانية فإنّ هذا النوع من الأشجار قلّ بشكل ملحوظ، ولا تعدو سوى بعض الأشجار المتناثرة في أماكن متباعدة.

كما ساهم الجفاف أيضا في التقليل من نبات الدرين المعروف عند الأهالي باسم "الحلفاء" وهو نبات رعوي بالدرجة الأولى ويستخدم . كما أسلفنا القول . في بعض الأمور الأخرى كمصدات للرّياح في غيطان النّخيل، أو لصنع الخيام التي تدعى "الزريبة"، أو استخدامها في حرق حجارة التافزة وتحويلها إلى جبس البناء.

وقد شهدت المنطقة في السنوات الأخيرة جفافا كبيرا مما عمل هذا الجفاف على هبوط منسوب المياه الجوفية التّي تستعمل لغراسة النّخيل وبعض الأشجار إلى جانب بعض الخضر والفواكه، فقد سبب هذا الأمر في الإضرار بثروة النخيل المتواجدة في المنطقة.

ب . تغيير البيئة الطبيعية بسبب الكوارث الطبيعية

أمّا ما يتعلق بالكوارث الطبيعية المختلفة فهي نادرة الحدوث، فالمنطقة ليست من الأماكن البركانية أو المناطق الزلزالية، وليست من المناطق التي تحدث فيها الفيضانات.

* العلندى هي أحد أنواع الأشجار البرية التي تنمو بوادي سوف سيقانها خشنة نوعا ما مما عمل على إستخدامها كنار للتدفئة والطهي.

ج . التحول الناتج عن فعل الإنسان

حدثت بمنطقة البحث بعض التحولات الجغرافية نتيجة لفعل المجتمع، وأغلب هذه التغيرات كانت بسبب النشاط الاقتصادي لأهالي المنطقة.

فبحسب المخبر (رقم 19) فإنّ وادي العلندة تأسست سكّانيا سنة 1885، وعمّرت بداية من سنة 1890، وكان ذلك من طرف شخص يدعى " محدة أحمد" الذي يعتبر أول شخص عمّرها وبالضبط بواسطة غراسة النخيل في مناطق مختلفة، وهذه الغراسة بسبب قرب المياه الجوفية للسطح، بحيث كان هذا الرجل يغرس النخيل كلما وجد منخفضا، بحيث يغرس الفسيلة بدون تحويل الرّمال، وفيما بعد توسعت هذه الأماكن وأصبحت غيطان ولا تزال إلى اليوم تلك الغيطان التي ابتدعها هذا الرجل شاهدة في أحياء وقرى منطقة وادي العلندة.

حيث لم تعد هذه المنطقة عبارة على أماكن للرعي فحسب بل ظهرت فيها العديد من غيطان النخيل التي كانت . لزمن قريب . موردا يرتزق منه أهالي المنطقة، ومصدرا غذائيا هاما بل ضروريا للمجتمع، واستقر بها السكان بدل الترحال حيث أصبحوا يعملون في تلك الغيطان ويوسعونها ويزرعون بها بعض الخضر والفواكه الموسمية خصوصا في بداية القرن العشرين، حيث الاحتلال الفرنسي للجزائر.

وبعد مرور الزمن وتطور الحياة الاجتماعية كثرت غيطان النخيل بالمنطقة وأصبح المنتج الأوّل هو التمر من نوعية "دقلة نور" لأنّها هي الرائجة في الأسواق والتي تصدّر إلى خارج الوطن، أمّا الأنواع الأخرى فعدد نخيلها قليل نوعا ما لأنّها تغرس للاستهلاك المحلّي فقط والفائض يباع لأهل منطقة وادي سوف عموما.

وبحكم أن سكان المنطقة كانوا ولا يزال منهم من يمارسون رعي الإبل والأغنام، ومنهم من هم مربو مواشي، فإنّ الثروة النباتية البرية تقلصت كثيرا خصوصا نبات "الحلفاء" و"الحاذ"* وهذا الأخير يعتبر غذاء مفضلا للإبل، كما أن مالكي غيطان النخيل يعملون على استئصاله من جانب غيطانهم لأنه

* الحاذ هو أحد النباتات الشوكية التي تنمو بوادي سوف، من خصائصه ينتعش في فصل الربيع ويكبر في الصيف، يعتبر علفا محبذا عند الإبل، كما يستخدم في تغذية الماعز أيضا،

سريع التكاثر وبالتالي إذا كثر فإنه يعيق عملية الزراعة خاصة وأنّه سريع النمو، وجذوره قوية يصعب اقتلاعها، وأوراقه شوكية وحادّة توخز الأرجل عند السير، وتضر الأيدي عند الملامسة.

كما لعبت "الطاقة دورا كبيرا في تحديد الصورة العامة للثقافة التي يمكن للإنسان أن يصنعها، فعندما اعتمد الإنسان على الطاقة المخزونة في جسمه فقط كانت ثقافته بسيطة بدائية ... وعندما اعتمد على الحيوانات الأخرى ... فتحت أمامه مجالات جديدة لاستغلال هذه الطاقة ،،، وكذلك الحال عندما اكتشفت موارد أخرى جديدة للطاقة مثل الفحم والبترول وأخيرا الطاقة الذرية"[1].

وبعد إيصال الكهرباء للمنطقة . منطقة البحث ـ سنة 1982 وقع تغيير في طبيعة النشاط الفلاحي تدريجيا، خصوصا بعد ظهور ما يسمّى ببرنامج الدعم الفلاحي، بحيث استخدمت المضخات الكهربائية لاستخراج المياه الجوفية لسقي المزروعات، وبدأ السكان بالتّخلي عن الطرق التقليدية التي كانت سائدة في عملية السقي، فتوسعت المساحات الزراعية بشكل واضح لأنّ السقي أصبح لا يكلّف جهدا، خصوصا أنّ ري المزروعات في المنطقة يجب أن يكون يوميا، وغيّر السكّان من طريقة غراسة النّخيل والأشجار التّي كانت ترتوي من المياه الجوفية، وأصبحت اليوم بحسب الملاحظة تغرس النّخلة وتسقى بواسطة الري الاصطناعي، وهذه العملية رفعت من عدد النّخيل بالمنطقة لأنّ غراسة النخيل في هذه الحالة لا تكلف عناء، بحيث أنّ الغراسة البعلية تكلّف شقاء معتبرا من حيث الحفر والتسميد أيضا.

كما ظهرت مؤخرا زراعة أنواع أخرى من المحاصيل مثل "البطاطا" والزيتون، فهذه الخضار تعتبر دخيلة عن المنطقة ولم تكن معروفة سابقا باعتقاد أنّها لا تصلح في الرّمال الصّحراوية، وحتّى أنّها لم تكن من المواد الاستهلاكية في المجتمع، فحسب المخبر (رقم 19) أنّ البطاطا لم تكن معروفة عندهم في السّابق ولم تظهر في الوجبة الغذائية إلاّ في العقود الأخيرة.

أمّا اليوم وبحسب الملاحظة الميدانية فقد خصصت للبطاطا مساحات شاسعة وصلت لمئات الهكتارات، وهي تسقى بواسطة الرش المحوري.

وبسبب زحف العمران والابتعاد عن زراعة النخيل البعلية من طرف السكان، أهملت العديد من غيطان النخيل القديمة والمحاذية للمناطق العمرانية، فأصبحت المساكن تزاحمها باعتبار أنّها آيلة إلى

1 عاطف وصفي: مرجع سابق، ص 90.

الزوال ومردودها ضعف، وهذا بسبب التحوّل في مستوى النشاط السكّاني والاقتصادي، كما أن وفاة الشيوخ الذين غرسوها وتعلّقوا بها كان سببا في تدهور الغيطان البعلية.
وكنتيجة لهذا التحول الزراعي، فإنّ عملية الري بواسطة المضخات الكهربائية وغيرها التي تشتغل بواسطة البنزين أدّى إلى انخفاض منسوب المياه الجوفية، حيث الغيطان البعلية اليوم وبحسب الملاحظة تعاني من العطش الشديد بحيث أصبح في بعض الأماكن تسقى من الخارج ولا تعتمد على السقي الجوفي فقط.

وعند الدراسة الميدانية لاحظنا بعض مظاهر التلوث بسبب السّماد المستورد من المناطق الشمالية في القطر الجزائري، فعند موسم زراعة البطاطا يلاحظ أكوام من هذا السّماد الذي تنبعث منها روائح كريهة جدا وتطوف حولها الحشرات الطائرة، فالجلوس بقربها لا يطاق.

وهذا السّماد يسبب في العديد من الأمراض من بينها " ـ مرض الإختناق ـ ويدعى ضعف التنفس asthmatique* ، ويتعرّض له بالخصوص الأطفال وكبار السّن، ومعظم من يصاب به يصبح ملازمه، أي من الأمراض المزمنة، كما يسبب هذا السّماد ما يسمّى بالسّعال الديكي coquliche** ويصيب من العادة كلّ الفئات، حيث سبب خطرا كبيرا للأطفال الذين لم يتلقوا لقاحات طبية مسبقة، وهناك مرض جلدي يسببه هذا السّماد خاصة عند الإحتكاك المباشر، أي الذين يعملون في المزارع بالقرب منه، ويدعى eczema de contact ، وعلاجه يتمثل في إستعمال الدواء ولكن يستلزم مع ذلك الإبتعاد النهائي عن مصدر الدّاء، مع أنّ هذا السّماد يسبب أمراض الحساسية الجلدية كالحكّة والإحمرار وبعض الإنتفاخات في أحيان أخرى، كما يسبب هذا السّماد أيضا سيلان الأنف الذي يدعى الزكام la grippe allergique وإحمرار وإنتفاخ العينين الذي سمّى بالرمد الحبيبي conjectivite وهو مرض جدّ خطير حيث يلاحظ بالتزامن إحمرار وإنتفاخ بالعينين، وعلاجه يتمثل في الوقاية وإستعمال المطهرات باليدين وبعض الأدوية المساعدة كقطرات من الماء المقطر والمضادات الحيوية***.

* هذا المرض يسمّى عند مجتمع البحث "الفطّة".
** يدعى هذا المرض عند أهل المنطقة "العوعاشة".
*** مقابلة مع طبيب يوم 25 جويلية 2014.

وهذا السّماد أغلبه فضلات الدجاج، وقد عمل على دخول بعض الحشرات الجديدة للمنطقة وبعض الحيوانات المختلفة التي تكون محمّلة معه إلى هذه المنطقة، فظهرت ما يطلق عليه الجرد او ما يسمى بـ "الطوبة" التّي لم تكن موجودة سابقا "وهذا الحيوان يسبب مرض يدعى "الجرب" la gale"*، وهي تعمل على إفساد طلع النخيل في بدايته، وقد ظهرت أيضا مجموعة من النباتات الطفيلية وغير الطفيلية التي تضر بالمحاصيل الزراعية حسب فلاحي المنطقة.

ومن المعتاد في منطقة مجتمع البحث أن فصل نضج التمور يكثر فيه الذباب نوعا ما، إلاّ أن هذا السماد عمل على كثرته بصفة ملفتة للانتباه، حيث الأسراب تعج بها المنطقة في كل مكان، وهذا ما يعمل على نشر العديد من الأمراض وتلويث غلة النخيل.

وهذا السماد يعد تلوثا بحسب التعريف الموالي فهو "إدخال الإنسان، مباشرة أو بطريق غير مباشر، لمواد أو طاقة في التربة، أو إتيانه نشاطا يتصل بالحياة الفطرية النباتية أو الحيوانية، يستتبع أخطارا بالصحة الإنسانية، ويلحق الضرر بالموارد البيولوجية والنظم البيئية، والممتلكات المادية، ويعوق الاستخدامات المشروعة للبيئة البرية بوجه عام"[1] وبالتالي فانتشار هذا السّماد يعد تلوثا بحسب هذا التعريف، في حين أن السلطات المحلية حاولت التخفيف من حدته خصوصا بالقرب من الطرقات والممرات العمومية وكذا قرب المناطق السكنية.

* مقابلة مع نفس الطبيب وفي نفس الوقت.

1 أحمد عبد الكريم سلامة: **قانون حماية البيئة**، ط 1، الرياض، المملكة العربية السعودية: النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود، 1997، ص 72.

2. تغيرات البيئة الاجتماعية

إنّ التغيّر صفة من صفات المجتمعات الإنسانية، فالمجتمع يعتبر في حراك مستمر، إلاّ أنّه يكون مختلفا في درجة التّسارع من منطقة إلى أخرى، فكلّما كان المجتمع تقليديا، كان التغيّر بطيئا نوعا ما، وكلّما كان المجتمع متمدنا، كان التغيّر أسرع.

وعوامل التغيّر كثيرة ومعقدة منها ما هو داخلي، أي نتيجة التحولات التي تكون بالبيئة الداخلية، ومنها ما هو ناتج عن فعل البيئة الخارجية للمجتمع المحلّي سواء من المدن والمناطق المجاورة، أو عن طريق المجتمعات التي تعيش في الدّول المجاورة، أو عن طريق الاتصال بالعالم البعيد عن طريق وسائل الاتصال الحديثة، أو الهجرة أو الزواج الخارجي.

فكل هذا وغيره يعمل على إحداث تغيير في المجتمع المحلّي سواء كان هذا التغيير إيجابيا أو سلبيا، فكثيرا ما يكون متأقلما مع العادات الاجتماعية، وأحيانا لا يتأقلم مع المعتقدات والأعراف المحلية، وكذا مستوى ونوعية الدّين السّائد في ثقافة ذلك المجتمع.

وموضوع التغيير هو ليس حكرا على علم من العلوم، بل يعتبر من المواضيع التي تناولتها العديد من العلوم الاجتماعية والإنسانية، ولكن علم الاجتماع يأتي على رأسها، فالتغيير هو أحد المواضيع الأساسية التي يدرسها هذا العلم، وهو ليس بالجديد من حيث التناول في الفكر البشري، بل كان متناولا منذ العصور القديمة فتحدث عنه الفلاسفة اليونانيون وغيرهم.

وإذا رجعنا للتراث السوسيولوجي فإنّنا نجد عددا من النظريات المفسّرة لهذا الموضوع نعرفها في ما يلي.

أ . النظريات والاتجاهات المفسرة للتغير الاجتماعي

هناك مجموعة من الاتجاهات التي فسرت التغيّر الاجتماعي تمثل معظمها فيما يلي:

. النظرية الحتمية

سادت فكرة الحتمية التفكير الاجتماعي في المراحل الأولى لنشأة هذا العلم، ولقد ربط المفكرون المشتغلون بهذه النظرية أن التأثر يعود لعامل واحد، فكل مجال معرفي يرجعه لسبب بحسب

اختصاصه، فالجغرافي يعزو التغيّر الاجتماعي للعامل الجغرافي، والبيولوجي يعزوه للعامل الوراثي، وهكذا، إلاّ أنّ هذه النظريات لم تدم طويلا فوجهت بنقد شديد، نظرا لعدّة أسباب.

وقد انقسم الحتميون إلى اتجاهات أشهرها:

. الحتميون البيولوجيون: حاول العالم "دي جوبيون" (1816.1882) إعطاء تفسيرا للتغيّر الاجتماعي الذي استنبطه من الفلاسفة اليونانيين، حيث أخذ بفكرة المتغير البيولوجي بحسب طبيعة الجنس، فالمجتمعات تتغيّر بحسب انحدار جنسها، حيث هناك شعوب متخلفة، وأخرى متقدمة، بحسب التفاوت الوراثي ونسبة الذكاء.

. الحتميون الجغرافيون: على الرغم من قدم النظرية الحتمية الجغرافية، إلاّ أنّ الجغرافي الأمريكي "هنتنجتون" (1965) "استخدم مفهوم الحتمية الجغرافية، لا في تفسير تغيّر الاختلاف بين البشر فحسب، ولكن في تفسير تغير المجتمعات. فقد ذهب إلى القول بأنّه إذا كانت الظروف الجغرافية هي التّي تحدد صفات النّاس وسلوكهم، فإنّ هذه الصّفات وذلك السلوك لن يتغيّر إلاّ إذا تغيرت الظروف الجغرافية"[1].

وعلى الرغم من ازدهار هذه النظرية، وظهور بعض المناصرين لها من حين إلى آخر إلاّ أنّ التفكير العلمي المعاصر يميل إلى عدم الأخذ بهذه الفكرة لقصورها الكبير في تفسير القضايا الاجتماعية، وكانت عبارة على نظرية متحيزة كتفسيرها لتفوق شعب على آخر، أو سيطرة مجتمع على آخر بمبرر أنّه هو الأفضل عرقا، كما أنّ هذه النظرية سببت مشكلات عالمية كبرى، كالحرب العالمية الأولى والثانية على حدّ السواء.

. النظرية التطورية

هناك عدد من العلماء اعتمدوا هذه النظرية وانقسموا إلى صنفين، منهم من ذهب بالاتجاه الخطي ومنهم بالدائري، باعتماد تفسيرهم على اتجاه التغيّر، فأصحاب الاتجاه الخطّي يفسرون تطور المجتمعات باتجاه ايجابي من الأقدم إلى الأحدث، فنجد الأنثروبولوجي تايلور الذي يرى بأن الثقافة تتطور إلى الأفضل، بحيث يكون التغيّر مستمرا ومتواصلا ولا رجعة للوراء.

1 دلال ملحس استيتية: **التغير الاجتماعي والثقافي**، ط 1، الأردن: دار وائل، 2004، ص 120.

ومن بين أشهر النظريات نجد "أوجست كونت، الذي فسّر تطور المجتمعات من اللاهوتية إلى الميتافيزقية فالوضعية. ونجد كارل ماركس الذي فسّر التحول من المشاعية إلى الاقطاعية إلى الرأسمالية إلى الاشتراكية. ونظرية لويس مورجان، التي تقوم على أساس التحوّل من البدائية إلى البربرية إلى الحضارة، وفسّر سبنسر تحوّل المجتمعات من العسكرية إلى الصناعية"[1].

ومن هنا نستطيع القول بأنّ الاتجاه الخطي يعني التقدمية كما يرى أوغست كونت "أنّ الانسانية تسير سيرا تلقائيا تقدميا، والتقدم في نظره سير اجتماعي نحو هدف معين، وهذا السير يخضع لقوانين ضرورية هي التي تحدد بالضبط مداه وسرعته"[2].

ولا يعتر كونت لوحده من رواد هذا الاتجاه، بل هناك الكثير من المفكرين الآخرون كما مر معنا سابقا كـ "لويس مورجان" و"سبنسر".

أما الاتجاه الدائري الذي يرى أن التاريخ يعيد نفسه، حيث ذهب إلى ذلك العلاّمة ابن خلدون الذي يرى "أن للمجتمعات عمرا كأعمار البشر، من الطفولة إلى غاية الشيخوخة"[3]. باعتبار أنّ كلّ تطوّر عبارة على خبرة مكتسبة معادة.

ومن رواد هذه النظرية نجد "شبنجلر" الذي يرى بأن الحضارة الغربية بدأت في التحلل، "وقد درس شبنجلر سبع حضارات حاول أن يستكشف عوامل صعودها وهبوطها، وتبيّن له أنّها جميعها مرّت بمراحل إنشاء ونمو، ونضج، ثمّ إنحدار"[4]، أي كل الحضارات سوف تعود من نقطة بدايتها، حسب ما يرى، إلى جانب "باريتو" في نظريته لدورة الصفوة الذي اتجه نفس المنحى.

وقد زعم بعض المحدثين هذا الاتجاه بوضع لمسات تختلف عن الكلاسيكيين، فمنهم "والت رستو" الذي ألّف كتابا بعنوان . مراحل النمو الاقتصادي . وهو صاحب فكرة مراحل النمو الذي ركز على تطور الجانب الاقتصادي، حيث بدأت الحياة بالمجتمعات التقليدية ثم مرحلة التهيئة للإنطلاق وبعد ذلك مرحلة السّعي نحو النضج وأخيرا مرحلة الاستهلاك الوفير.

---

1 أحمد زايد واعتماد علام: مرجع سابق، ص ص 46 47. بالتصرف.

2 دلال ملحس استيتية: مرجع سابق، ص 125.

3 أحمد زايد، واعتماد علام:مرجع سابق، ص 47. بتصرف

4 المرجع نفسه، ص 129.

ومن المحدثين أيضا "كلارك كير" صاحب نظرية الالتقاء أو التقارب (1960) والذي يرى بأنّ كل المجتمعات تسعى إلى الدخول في مرحلة التصنيع، وبالتّالي فإنّها تحاول التطور المنمذج، وبالتالي تتقارب القيم ومستوى التعليم والإنتاج الواسع وتكون التغيرات ذات طبيعة أفقية أو رأسية. وهذا مؤشر على الفكرة المعاصرة وهي العولمة.

ومنهم أيضا "فرانسيس فوكو ياما" (1989) صاحب نظرية نهاية التاريخ، الذي يرى بأنّ "الديمقراطية الليبيرالية قد حلّت معضلة الصراع التاريخي من خلال قيمة المساواة"[1] ويعني هذا المحرك للتطور هو الصراع، كما ساد بين المعسكر الشيوعي والمعسكر الليبيرالي، وفي النهاية "ليس ثمة مجال آخر للتطور بعد الديمقراطية الليبيرالية"[2] وبالتالي نهاية التاريخ لأن المساواة تحققت.

كما لا ننسى الملازم لهذا الخط، الفيلسوف "أرنولد توينبي" الذي يرى بأنّ "الحركة الدائرية تنطبق على كلّ الحضارات وأن كان يتميّز بعضها بالعقم والآخر بالتوقف إلى حين"[3].

وقد ذهب " سوروكين" أيضا إلى أنّ "المجتمعات تتحرك جيئة وذهابا، من نمط معين من الحضارات إلى آخر، وتحتاج الكائنات الانسانية في البداية إلى إكتساب المعرفة لكي تسيطر على اتجاه التغير"[4].

وقد قدّم لنا ثلاث أنواع للثقافات، تمثلت في: "الحسية التي تعني إستخدام المجتمع للمنطق الأمبريقي، أي أنّ التقبل يكون بادراك الأشياء عن طريق الحواس.

وهناك الصورية التي تعتمد على ادراك الأشياء عن طريق التصور الرّوحي، أي الدين هو مصدر لتفسير الحقائق، كأن يؤمن المجتمع بالوحي المنزل.

والتصور الثالث للثقافة يتمثل في المثالية، وهي عبارة على مزيج من سابقتيها، بحيث تعتمد على معرفة السبب كمصدر للحقيقة، أي يجب أن تتناسق الثقافة الحسيّة والصورية في نسق واحد، أي لا إهمال للدين وتعليماته في قضية تفسير الحقائق"[5]

---

1 أحمد زايد واعتماد علام: مرجع سابق، ص 51.

2 المرجع نفسه، ص 51.

3 دلال ملحس استيتة: مرجع سابق، ص 130.

4 المرجع نفسه، ص ص 130 ، 131.

5 المرجع نفسه، ص ص 131، 132. بتصرف.

. النظرية البنائية الوظيفية

اعتمدت هذه النظرية فكرة التطور المستمر للمجتمعات، بحيث الطابع البنائي لا يتغير بل تزداد طبيعة التعقد للبنية فقط، كما أنّ المجتمع كلّما ذهب للتحوّل والتقدم كلّما تعددت الوظائف، وعلى العموم يبرز التغيّر الاجتماعي في الجانب الوظيفي أكثر منه في الجانب البنائي، حيث تنظر هذه النظرية إلى المجتمع بأنّه عبارة على مجموعة من الأنساق المشتركة، فإذا أخذنا بما وصل إليه الكلاسيكيون في تفسير التغيّر الاجتماعي نجد بأنّهم اتفقوا جميعا على أنّ التغير يجب أن يفهم على ماهو حال المجتمع دون الرجوع إلى التطور التاريخي له، ومن المنظرين الكلاسيكيين عبّر "هربرت سبنسر" على أنّ تغيّر المجتمعات يشبه تغيّر الكائنات العضوية، "فعالم المادة، والعالم العضوي، والعالم فوق العضوي (عالم المجتمع) جميعها تخضع لنفس قوانين الحركة والتطور"[1] أي أنّ التغيّر يحدث تدريجيا بحيث لا يفقد المجتمع أسس بنائه الاجتماعي، ولا يفقد هوية الوظائف الاجتماعية، بل تتجه نحو التعقيد والتركيب كلّما تقدّم المجتمع أكثر.

ونجد "دوكايم" الذي اختلف عن سبنسر من حيث الابتعاد عن تشبيه تغيّر المجتمع بتمثيله بتغيّر الكائن العضوي، وقد عزا التغيّر بحدوثه في الجانب الوظيفي، بواسطة زيادة التباين، وبالتّالي تقسيم العمل، وهذا التغيّر تحكمه قوانين فـ "المجتمعات لا تتحوّل دون ضوابط، فتحوّلها مضبوط بقواعد ومعايير قانونية، وهنا يأتي مفهوم التضامن"[2]، وهنا يقصد تحوّل المجتمع وتغيّره من حالة البساطة، أي التضامن العضوي، إلى حالة التعقد والتركيب، أي التضامن الآلي.

ثمّ جاء "بارسونز" وطوّر في هذه النظرية، حيث يرى بأنّ المجتمعات لها خاصية التوازن الدينامي، فكلّما كان تغيّر في جانب كلّما حدث تغيّر في البناء ككل بقصد التكيف العام، "عندما يتعرّض المجتمع لحالة تغيّر، فإنّه لا يفقد خاصّية توازنه، فهذا التوازن دينامي ومستمر، لذلك فإنّه يمكن المجتمع دائما من أن يتكيّف مع التغيّرات الجديدة ويدمجها داخل بنائه"[3]، كأنّه يقول بأنّ التغيّر الذي يحدث يتكيّف معه المجتمع سواء من حيث إدخال الجديد في صورة البناء الاجتماعي، أو حتّى

---

1 أحمد زايد، واعتماد علام: مرجع سابق، ص 53. بتصرف.

2 المرجع نفسه، ص 54.

3 المرجع نفسه، ص 54.

الوظائف الاجتماعية المختلفة، بحيث يكون هناك توازن دينامي للمجتمع، ويرى بارسونز بأنّه إذا حدثت توترات معينة للمجتمع، أي حالة اللاتوازن أثناء عملية التغيّر أو بعدها مباشرة، فإنّ هذا الأمر يعتبر طبيعيا، فسرعان ما يعود المجتمع لحالة توازنه عندما يتكيّف مع ما استجد.

وبعد الحرب العالمية الثانية، تحول اهتمام علماء الاجتماع إلى دراسة التغيّر الاجتماعي في دول العالم الثالث، وجاءوا بفكرة التحديث الوظيفية، بحيث أنّ المجتمعات التقليدية تحاول التغيّر على نمط تحول المجتمعات الصناعية، وذلك "من خلال عوامل خارجية ناتجة عن عملية اتصالها بمصدر الثقافة الحديثة الغربية، فالاتصال الثقافي بالحضارة الغربية يؤدّي إلى نشر الثقافة الحديثة في شكل دوائر تتسع باستمرار إلى أن تشمل قطاعات المجتمع بأسره"[1]. وعلى ضوء هذا التفسير للتغير أطلق على هذه العملية إسم عملية التحديث، أو التنمية.

. النظريات السيكولوجية

يعتبر "فيبر" بأنّ التغيّر يرجع لجانب العقلنة الرشيدة بالتحول إلى البروتيستانتية التي كانت سببا في تطور المجتمعات الأوربية التي ظهرت فيها، وأطلق على هذه النظرية الدور التغييري للأفكار، بحيث أستخدمت العقلنة في عملية التغيّر الاجتماعي على جميع الأصعدة، وفسّر فيبر هذا الأمر بما حدث في أوربا عندما حلّت الأفكار البروتيستانتية التي طوّرتها عن طريق الرأسمالية.

كما فسّر "أيفرت هاجن" التغيّر بأنّه يتم بواسطة شخصية قادرة عليه، "وتتسم هذه الشخصية بالابتكارية والفضول والانفتاح على الخبرة"[2]. فالتغيّر حسب هذا الاتجاه يتم بواسطة شخصيات لها قدرة ورغبة في الانفتاح، وتكون مؤثرة في المجتمع.

ب . مظاهر تغير البيئة الاجتماعية في مجتمع البحث

مرّت المنطقة منذ تعميرها ببعض التحولات في البيئة الاجتماعية، واختلفت سرعتها من مرحلة إلى أخرى، فكما ذكرنا سابقا بأنّ سكّان هذه المنطقة كانت غراسة النخيل هي السبب الرئيس في تعميرها، فالنشاط الأساسي الذي كان ممارسا هو الفلاحة إلى جانب الرعي، حيث استقر السكان ومكثوا بجانب

1 أحمد زايد، واعتماد علام: المرجع السابق، ص 56.

2 المرجع نفسه، ص 62.

الغيطان التي غرسوها، وجزء منهم بقي في الترحال حيث النزول عند بداية الصيف والترحال في فصل الخريف عند بداية اعتدال الطقس، وبحسب المخبر (رقم19) أنّ النّاس كانوا يمارسون رعي الإبل بالدّرجة الأولى، إلى جانب بعض الماشية سواء ضأن أو ماعز.

فالنشاط البارز كان يتعلّق بمهنة الفلاحة والرعي بدرجة كبيرة جدا، وهذا كان خلال فترة الاستعمار الفرنسي، ولا يمنع من ممارسة بعض الأنشطة الأخرى إلاّ أن ذلك كان نادرا جدا، حيث كان بعض الأفراد يمارسون التجارة الضيقة أو البناء أو تعليم القرآن وغير ذلك.

أمّا النّساء فكنّ يمارسن بعض المهن المنزلية، كصناعة الأفرشة والألبسة الصوفية، ومساعدة الرجال في المجال الفلاحي كجني التمور، أو ري المزروعات، أو غراسة بعض الشجيرات إلى غير ذلك من الأنشطة، وإلى جانب هذا كانت المرأة تقوم بأعمالها المنزلية التي أسندها لها المجتمع، طبخ الطعام وغسيل الملابس وتنظيف البيت وغيرها من الأعمال الخاصة بالمنزل، لأنّ الرّجل في هذا المجتمع كان لا يساعد المرأة في الأعمال المنزلية ويعتبر الرّجل الذي يقوم بذلك ناقصا في رجولته، حتّى أن مداعبة الأبناء ورعايتهم يكون من خصائص النساء فقط خصوصا إذا كان الأب شابا.

3 ـ التغير الاجتماعي بعد الاستقلال

بعد الاستقلال، تعددت الأنشطة في المنطقة فأصبح السكان يمارسون مهنا مختلفة، كالبناء والتجارة وبعض الحرف إلى جانب الوظائف الحكومية كالتعليم خاصّة، وبعض الوظائف الأخرى كالإدارة وغير ذلك. أمّا مهنة الرّعي فقد اضمحلت إلى حد بعيد وتحولت إلى تربية المواشي في الأكواخ المختلفة وغيطان النخيل.

أمّا المرأة فقد ابتعدت بصفة ملحوظة عن الصناعات التقليدية والحرف، وأصبحت مهمتها الأشغال المنزلية فقط، ما عدا بعض النّساء اللّواتي يمارسن النسيج بصفة محدودة جدا.
. ولم يمس التغيّر جانب الشغل فحسب بل تعدّاه لجوانب أخرى، فقد كانت تسود الأمية في المجتمع بصفة كبيرة، أصبحت اليوم الأغلبية السّاحقة متعلّمة نتيجة لوجود المدارس في المنطقة بداية من سنوات الاستقلال الأولى، فدخل الأطفال للمدارس، وقد اقتصر التعليم في بدايته على الذكور فقط، وبسرعة دخلت البنات أيضا.

إذن وقع تغيّر في المستوى التعليمي لأفراد المجتمع عموما، وهناك عدد معتبر في الوقت الحالي يمارسون مهنة التعليم حيث اكتفت المنطقة داخليا بإطارات التدريس، بل هناك من يدرس في مناطق أخرى.
أمّا ما يتعلق بتدريس البنات فكان محتشما في البداية، وبعد ذلك شاع وأصبحت البنت تدرس حتى في الجامعات وكل المراحل التعليمية، وهذا العامل بحسب تحليلنا الخاص ساهم في إبعاد تناول الأكلات الشعبية، لأنها تتطلب الممارسة الطويلة والدائمة، وتستهلك وقتا طويلا في الإعداد، مما جعل بنات جيل التعليم يبتعدن عن ذلك، لأنّ الوقت الأكبر يستغرق في الدراسة أو العمل خارج البيت، هذا كما هو الحال أيضا في السعودية حسب دراسة الدكتورة علياء شكري فـ "تعليم البنات وانتشاره على نطاق واسع قد قلل الفرصة أمام هؤلاء البنات بأن يتلقين من أمّهاتهن تلك المهارات التقليدية، فأصبحت بنات اليوم أقل خبرة من أمّهاتهن في إعداد الأكلات الشعبية، كذلك فإنّ إعداد هذه الأكلات يتطلب وقتا طويلا نسبيا لكي تخرج بصورة متقنة تحبب فيها الناس، وهذا بدوره يعني أنّ المرأة كانت متفرغة

لأعمال بيتها وأسرتها، لا يشغلها تعليم ، ولا عمل عن إتقان هذه الفنون وتنويعها وتطوير شأن أيّ عنصر من عناصر التراث الشعبي"[1]

. وقد وقع تغير آخر من حيث الكثافة السكانية، خصوصا بعد الاستقلال. وهذا راجع لعدة أسباب لسنا بصدد البحث فيها، بحيث "يوجد ترابط موجب بين درجة النمو الثقافي وحجم الجماعة الانسانية"[2]. ففي مجتمع البحث ارتفعت الكثافة السكّانية بدرجة معتبرة، وكنتيجة لزيادة السكّان أنشأت العديد من المدارس الابتدائية، كما أنشأت بعض المتوسطات التّي لم تكن موجودة لفترة قريبة، حيث أنّ أوّل متوسطة بنيت سنة 1990 والثانوية سنة 2012 ، وقد ساعد هذا على مواصلة البنات تعليمهن لأن العائلات كانت لا تسمح للبنت بالتنقل للدراسة في مدينة الوادي سوى للبعض القليل منهن، وقبل هذا التاريخ أغلب البنات يدرسن في القرية المجاورة عندما فتحت المتوسطة والثانوية أبوابها بداية من نهاية الثمانينات.

. وحدث تحول في المؤسسات الحكومية نتيجة لبرامج التنمية، حيث مدّت الطرقات المعبدة، وانتشرت دور الشباب والملاعب الرياضية، ومؤسسات الصّحة العمومية، إلى جانب المؤسسات الإدارية كالبلدية التي انبثقت عن التقسيم الإداري سنة 1984.

كما أنّ المنطقة وصّلت بالكهرباء سنة 1982، والذي عمل على تغيّير مظاهر وعادات كثيرة، فأصبح هناك التلفاز والثلاّجة وغيرها من التجهيزات الكهربائية المختلفة، إلى جانب انتشار المكيفات الهوائية. وقد تم كذلك إيصال المياه الصالحة للشرب سنة 1984، وتم بذلك الاستغناء عن الآبار التقليدية التي لم تكن معالجة، وأخيرا تمّ انجاز مشروع غاز المدينة التي استفادت منه المنطقة سنة 2011.

. وهناك تحوّل في نوعية الأسرة، بدل من كانت العائلة الكبيرة، أخذت الأسرة النووية في الظهور تدريجيا، ففي العقود الأخيرة كان الشاب يتزوج في بيت العائلة، ولا يتم الخروج منها إلا لأسباب قاهرة جدا. أمّا اليوم فهناك من يتزوج في بيت مستقل أو يتزوج في بيت العائلة ويستقل فيما بعد عند انجاز مسكن بدون ضرورة مشكل كائن.

---

1 محمد الجوهري: **الأنثروبولوجيا**، أسس نظرية وتطبيقات علمية، مرجع سابق، ص 578.

2 عاطف وصفي: مرجع سابق، ص 91.

ونظام العائلة الذي كان سائدا يتميّز بوحدة المسيّر، وعادة ما يكون الأب أو الأخ الأكبر، فهو الذي يصرف، وكل الأبناء يعهدون مداخيلهم له، ولا توجد أيّة حرية في التصرف بالمال مهما كان فالمسير هو الوحيد الذي يشتري ويبيع، حتّى فيما يتعلق بأمور زوجات الأبناء المشكلين للعائلة، فالمتصرف هو الذي يشتري كل ما يتعلّق بحاجيات العائلة ككل.

. هذه على العموم بعض مظاهر التغيّر في البيئة الاجتماعية لمجتمع البحث والتي عملت في مجملها على تغيير العادات الاجتماعية الغذائية والممارسات المتعلقة بها، والتي سنكشف عنها في العناصر الموالية.

ثانيا: دور البيئة الداخلية في تغيير العادات الاجتماعية الغذائية

من البديهي إذا تغير أحد العناصر الثقافية في مجتمع معين فإن جميع العناصر الأخرى تتأثر، لأن الثقافة ظاهرة معقدة التركيب، وعناصرها مترابطة مع بعضها. ففي مجتمع البحث . كما رأينا سلفا . حدثت مجموعة من التغيرات في البيئة الجغرافية والبيئة الاجتماعية على حد السواء، وبالتالي فإنّ العادات الاجتماعية تتغيّر تبعا لذلك التحول الاجتماعي العام.

فكيف تغيرت هذه العادات؟.

فمن خلال معايشتنا لمجتمع البحث لاحظنا أنّ الوجبات الغذائية لم تتغير من حيث عدد المرّات، ولكن تغيرت من ناحية نوعية الوجبة.

1 . فطور الصباح

بدل ما كانت وجبة فطور الصّباح عبارة عن شاي وبعض الطعام المتبقي من العشاء إن وجد، تحوّلت هذه الوجبة حاليا في مجتمع البحث إلى ضرورة تناول الحليب، وفي الغالب يكون بالقهوة مع بعض من الخبز المقتنى من المخابز، بالإضافة إلى قليل من الزبدة أو البيض أو زيت الزيتون، أو غير ذلك.

جدول رقم 6 يبين عادة تناول الحليب في الصباح

الإيجابات	التكرارات	النسبة المئوية
نتناول الحليب دائما	55	68.75
نتناوله ليس دائما	22	27.50
لا نتناوله إلا نادرا	03	03.75
المجموع	80	100

يتضح من الجدول رقم 6 ، بأنّ النسبة الغالبة تتناول الحليب في الصباح على مدار السنة، وكانت 68.75%، وتوزعت هذه العائلات في كامل قرى البلدية، مما يدل بأنّ المجتمع غيّر من العادات الغذائية التي كانت سائدة سابقا في فطور الصباح، وهذا راجع للتغيير الذي حدث في البناء

الاجتماعي العام من خلال التغيير في البيئة الاجتماعية التي أصبحت تتطلع للتحضر جراء التعليم والتثقيف، إلى جانب التغيير الذي حدث في النشاط الاقتصادي للعائلات.

وهذا يتوافق مع ما وصل إليه "هاولي" في نظريته المتعلقة بالتنظيم الأيكولوجي، في عنصر الوظيفة الأساسية التي تتعلّق بالبيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية فهو يعتقد بأنّ "مؤثرات البيئة الاجتماعية تصبح ضعيفة وهزيلة نظرا لضيق حجم الاعتماد المتبادل بين الوحدات المختلفة، فإذا استطاعت كل وحدة أن تطوّر نظاما لتبادل ناتج مواردها المحلية بمواردها المحلية بموارد وحدات أخرى من خلال التجارة أو عمليات التوزيع، عندئذ تتحرر الوحدات نسبيا من الارتباط المباشر بالبيئة الطبيعية، لتدخل في مجال تأثير قوى البيئة الاجتماعية، وبزيادة حجم التبادل بين الوحدات المختلفة، تحل البيئة الاجتماعية محل البيئة الطبيعية، كعامل أساسي في التنظيم المعيشي للأفراد"[1]

أما النسبة الثانية التي كانت 27.50% التي لا تتناول الحليب دائما، فعدم تناوله دائما هو الامتناع عنه في فصل الصيف بحسب المخبرة (رقم 14) لأن الحليب عندهم لا يروق في صباح الأيام الصيفية ويستبدل مكانه الشاي، ممّا يعني أنّ البيئة الطبيعية لها دور في هذا الأمر.

وفيما يخص النّسبة الأخيرة التّي شكلّت 03.75% فإن هذه العائلات تقطن في القرى الصغيرة الحجم من حيث الكثافة وتمتاز بالفقر.

وفيما يخص الحليب، فمعظم العائلات تتناول حليب البودرة نتيجة للنقص الواضح في الثروة الحيوانية من إبل وماعز على الخصوص.

جدول رقم 7 يبين نوعية الحليب المتناول

الإجابات	التكرارات	النسبة المئوية
حليب البودرة	70	90.90
حليب الماعز	07	09.09
المجموع	77	100

1 السيّد عبد العاطي السيّد: **الأيكولوجيا الاجتماعية**، مدخل لدراسة الانسان والبيئة والمجتمع، الأزاريطة، مصر: دار المعرفة الجامعية، 1997، ص 271.

قبل كل شيء نلاحظ أنّ المجموع تناقص إلى 77 مفردة بدل 80 عائلة وهذا الأمر يتعلّق بثلاث عائلات لا تتناول الحليب في وجبة فطور الصباح.

قديما كانت أغلب العائلات تملك بعض الحيوانات، والآن قلت هذه العادة بشكل كبير، وهذا ما أدّى بالنسبة العالية التي أوضحها الجدول 90.90% إلى تناول حليب البودرة من جرّاء الابتعاد عن تربية الماعز، وهناك عامل آخر فرض نفسه هو طبيعة الهندسة المعمارية للمسكن التي أصبحت لا تسمح بتربية الحيوانات داخل البيت، إلى جانب خروج بعض النساء للعمل في المؤسسات الحكومية كالمدارس والصحة والإدارة أيضا مما يحول دون العناية بتلك الحيوانات.

وهذا الأمر يتوافق مع دراسة علياء شكري في المملكة العربية السعودية بحيث "تغيّر نوع اللبن المستخدم، فلم يعد هو اللبن الطبيعي الذي كان معروفا حتّى الماضي القريب، وأفسح مكانه للبن الصناعي (البودرة) الذي انتشر انتشارا كاسحا بسبب توارث المعتقدات التقليدية عن اللبن ومكانته الخاصّة في نفوس الناس، إلاّ أنّ تراجع الثروة الحيوانية ونقص إمكانيات توفير اللبن الطبيعي أفسح المجال لإنتشار اللبن البودرة (المجفف المستورد)"[1]

وأخيرا نستطيع القول أنّ هذا التحوّل يرجع إلى تطوّر المستوى التعليمي للمجتمع، بحيث يرى المبحوثون بعكس ما كانوا عليه في السّابق، أن الحليب أصبح ضروريا اليوم خاصة في الصّباح باعتباره مغذّيا مقارنة بالشّاي، خصوصا للأطفال المتمدرسين، ومن الملاحظ أن شرب الحليب صباحا يتقلص عند حلول فصل الصيف لدى العديد من العائلات والأسر وفي هذا الفصل يتناولون الشاي بدله، وذلك بسبب الحرارة المرتفعة فلا يستلذ الحليب صيفا وخصوصا إذا كان مع القهوة.

1 محمد الجوهري: **الأنثروبولوجيا**، أسس نظرية وتطبيقات علمية، مرجع سابق، ص ص 578.577.

2 . وجبة الغداء

تتغير في مجتمع البحث نوعية الوجبة من فصل لآخر تبعا لتغير الطقس، فهناك من الأكلات التي تستساغ في البرد، وأخرى تفضل في الحر، ففي مجتمع البحث بحسب ما لاحظناه فإنّ وجبة الغذاء تتغير من فصل إلى آخر، ففي الفصل الحار يميل مجتمع البحث لتناول الوجبات الباردة، فيكثرون من تناول التمر مع الحليب، وهذه الوجبة ظلّت كما هي في السابق، بحيث تؤكل قبل الغذاء مباشرة ثم بعد ذلك يتم تناول الوجبة الأساسية التي تتمثل في بعض الأغذية التي تعوّد عليها المجتمع مثل التركيز على الخضروات التي تتمثل في الطماطم الطبيعية وبعض الفلافل والباذنجان إلى جانب البطاطا التي دخلت الثقافة الغذائية من الباب الواسع، كما يتناولون أحيانا بعض الأنواع من العجائن المصنعة، وبعد تناول الوجبة الرئيسية فقد جرت العادة على تناول الفاكهة وأغلبها تكون من البطيخ الأحمر "الدلاع" حيث يضفي البرودة داخل المعدة.

جدول رقم 8 يوضح أنواع المأكولات في وجبة الغذاء

الإجابات	التكرارات	النسبة المئوية
التمر والحليب	78	97.50
الخضروات	71	88.75
العجائن	22	27.50
الحبوب	12	15.00

أولا وقبل كل شيء نوضح القراءة العددية للجدول، نلاحظ أننا لو جمعنا التكرارات فإن الناتج يفوق العينة بكثير وهذا راجع لأن المبحوثين يتناولون أكثر من مادة واحدة في الوجبة، مثلا تتناول العائلة التمر والحليب وبعد ذلك تتناول الخضروات وهكذا.

فمن هذا الجدول يتضح بأنّ أغلبية العائلات تتناول التمر مع الحليب، وهذه العادة كانت راسخة في الماضي كما رأينا سابقا، وبقيت مستمرّة إلى اليوم ولم تتغيّر، بحيث نسبة مفردات العينة التي من عاداتها صيفا أن تتناول هذا النوع من الغذاء كانت 97.50%، أمّا نوع التمر المتناول فيكون عادة

تمر "الغرس" كما كان ذلك في السّابق لأنه يتحمّل التصبير لمدّة طويلة، وإذا ظهر المنقّر فيترك الغرس جانبا.

كما أنّ أغلب العائلات تركّز في فصل الصيف على الوجبات المقلية، وتبتعد نوعا ما عن الطبخات التقليدية الخفيفة كالرضخة، والدوبارة، والدشيشة،. ونسبة ذلك كانت 88.75% وهذه الأكلات . المقليات من الخضروات . مستحدثة في مجتمع الدراسة بسبب اكتشاف ما تجود به بيئتهم من خضروات صلحت زراعتها بالمنطقة كزراعة البطاطا . كما رأينا سابقا . وبالتالي نستطيع القول بأنّ هذا الأمر يتوافق مع ما وصل إليه المنظر "لندبرج" فيما يتعلّق بالتغير الاجتماعي حيث يرى أن التغير يحدث جراء "الاختلافات التي تطرأ على ظاهرة اجتماعية خلال فترة زمنية معينة والتي يمكن ملاحظتها وتقديرها وهي تحدث بفعل عوامل داخلية وخارجية مثل اكتشاف موارد الثروة أو الهجرة أو نشر التعليم ..."[1]، واكتشاف الثروة هنا يمثل تلك الاكتشافات الجديدة من المزروعات.

ومن هنا يلاحظ أنّ المجتمع مال إلى تناول الخضروات بخلاف ما كان عليه في السابق، وإبتعد عن أكل المواد الأخرى، والخضروات لها أهمية بالغة لتغذية الجسم بحيث تعد " مواد غذائية رئيسية لا غنى عنها في التغذية الصحية، فهي تحتوي على المواد البروتينية، والكربوهيدراتية المختلفة، وكذا الدهون، فضلا عما بها من الفيتامينات المختلفة التي تقي الجسم من الأمراض وتحفظ قوّته ونضارته"[2] كما أن الخضروات لها عمق في تاريخ الغذاء والدواء منذ العصور القديمة جدا، "فقد عرف قدماء المصريين ما للخضروات من فائدة غذائية، حيث كانوا ينصحون بإعطاء المرضى الخضر المختلفة علاجا لشتّى الأمراض، كما عرف الرومان مكانة الخضروات في الطب، فاستغنوا عن الطب والأطباء لمدة ستة قرون بسبب تناولهم للخضروات طازجة ومطبوخة[3] وعلى العموم نستطيع القول بأنّ المجتمع تعوّد على بعض الكيفيات أشهرها بحسب المخبرة (رقم 20) يتمثل في:

. الشكشوكة

وهي عبارة عن قلي مجموعة من الخضار الموسمية تتمثل في الطماطم، البطاطا، الفلفل بنوعيه الحار وغير الحار، الباذنجان، والبصل وهذا الأخير يعتبر خضارا أساسيا في هذه الوجبة، والذي يكثر

---

1 خالد حامد: مدخل إلى علم الاجتماع، ط 2،المحمدية، الجزائر: جسور للنشر والتوزيع، 2012، ص 145.

2 محمد الجوهري وآخرون: **علم إجتماع البيئة**، مرجع سابق، ص 395.

3 المرجع نفسه، ص ص 396.395. بتصرف.

استهلاكه في هذا الفصل بشكل كبير، وهذه الأكلة تتناول مع الخبز المقتنى من المخبزة أو الكسرة التقليدية المصنوعة محليا في البيوت، والبصل عرفته البشرية منذ القديم فنجد الفراعنة القدامى أعطوه أهمية كبيرة جدا، وأدركوا أهميته بحيث استعملوه كغذاء ودواء، ورمزا للإحتفال بعيد شم النسيم، والمصريون يتخذون منه رمزا حتى اليوم فيعلّق البصل الأخضر في البيوت، ويتناولونه كغذاء أيضا.

"ففي المجتمع المصري يتناولونه بصفة شائعة، كما أنّه يعد طعاما أساسيا مع الخبز عند بعض الشرائح"[1]

وهذه الكيفية . الشكشوكة . لم تكن معروفة سابقا، فهي حديثة الدخول في العادات الغذائية لمجتمع البحث، وهذا ناتج من جراء الاتصال بالثقافات الأخرى خصوصا المناطق الشمالية من القطر الجزائري التي تكثر فيه هذه الوجبات في الصيف، ففي السّابق لم يكن هناك اتصال كبير بتلك المناطق واليوم أصبح الاتصال سهلا عن طريق الحركة التجارية أو عن طريق السياحة، أو عن طريق الدراسة في الجامعات من طرف الشباب.

. السلطة

إن هذه النوعية لم تكن موجودة قديما على الإطلاق، فهي حديثة العهد بالمنطقة خصوصا سلطة الخس التي لم تكن معهودة في الزراعة المحلية على الإطلاق.

وهذه السلطة تتميّز بنوعيات متعددة، أهمّها سلطة "الفقوس"* بحيث تقطع هذه الفاكهة إلى أجزاء صغيرة بعد أن تزال القشور ويضاف له الطماطم والفلفل الحار بالإضافة إلى بعض الخل للحموضة مع قليل من الزيت، وتؤكل هذه الوجبة باعتبارها غذاء كاملا مع الخبز ويفضل معها الكسرة المصنوعة في البيت.

. الْمَرْسَه

هي في الحقيقة أكلة تقليدية عرفت منذ القديم في مجتمع البحث، ولا تزال موجودة في العادات الغذائية المحلية إلى اليوم، وتؤكل مع الكسرة عادة، وتتكوّن من نوعين من الخضار، الطماطم كمادة أساسية،

---

1 محمد الجوهري وآخرون: **علم إجتماع البيئة**، المرجع سابق، ص 398. بتصرف.

* الفقوس هو عبارة على فاكهة محلية تنمو بالمناطق الصحراوية يشبه الخيار، لكن عند تركه في نباته يكبر حجمه حتى ينضج ويصبح بطّيخا، شكله في أغلبه مستطول نوعا ما، يحبذه أصحاب المنطقة خصوصا كبار السن لأنه لا يحتاج للأسنان عند تناوله، أمّا في بدايته عندما يكون فقوسا يكون قاسيا في المضغ نوعا ما، يقال أنه يقلل من العطش في حرارة الصيف.

والفلفل الحار بكمية قليلة، مع القليل من ملح الطعام وكمية من الزيت، وهي تعتبر خفيفة على البطن وباردة بحيث تعمل على إطفاء حرارة سكر التّمر الذي يتم تناوله يوميا في فصل الصيف.

. الْرَضْخَه

هي أيضا من الأكلات الباردة على البطن ولا تنضج على النار، أمّا عن طريقة تحضيرها تتمثل في تدشيش كمية من "الفرماس"* بعد تنظيفه وازالة نواته في مهراس مع كمية من الثوم والفلفل الأحمر المجفف، وذلك في كل مرّة يضاف الماء، ثم يضاف إلى هذا الخليط قليل من الملح مع زيت الزيتون وتقدّم مع الكسرة.

وبحسب الملاحظة الميدانية والجلسات مع المخبرين فإنّ هذه الأكلة قد اندثرت اليوم، وظلت نسبة قليلة جدا من تتناولها، وفي الصيف فقط.

وهذه الأكلة عرفت منذ القديم في مجتمع البحث في فصل الصيف خاصّة باعتبارها باردة ولا تستعمل فيها النار على الإطلاق، وتمتاز بسرعة التحضير وبساطة مكوّناتها، وتمتاز كذلك بحموضة طعمها الناتج عن مادة تكوينها الأساسية المتمثلة في "الفرماس"، وهذا الأخير موجود في كل البيوت وقد عرف تخزينه ضمن المواد الغذائية منذ القديم إلى اليوم، ولكن الفرق بين الأمس واليوم هو الكمية فقط، ففي السابق كان الفرماس يستعمل بكثرة ويوميا، أمّا اليوم فهو قليل الاستعمال.

أمّا في فصل البرودة فهم يركزون في العادة على الأكلات الثقيلة، فيكثرون من تناول الحبوب كالعدس والفاصوليا، إلى جانب الأكلات السّاخنة المحلّية وجملة من العجائن، مثل المعكرونة وغيرها، إلى جانب الكسكسي في أحيان مختلفة. والجدول الآتي يوضح ذلك.

* الفرماس هو عبارة على فاكهة المشمش المجفف، يستعمله أهل سوف في إعداد الوجبات الغذائية من بينها وجبة الكسكسي بحيث يمنحه طعم الحموضة، كما أن العائلات تعمد لتخزينه لأنّه يتحمل التصبير لمدّة طويلة، كما أنّ محلات التوابل والمواد الغذائية لاتزال إلى اليوم تبيعه، بكميات معتبرة.

جدول رقم 9 يبين العادات الاجتماعية في وجبة الغذاء الشتوي

الإجابات	التكرارات	النسبة المئوية
الحبوب	80	100
العجائن	55	68.75
الكسكسي	34	42.50
الأرز	35	43.75
الخضروات	23	28.75

يبين الجدول أهم المواد الغذائية التي تتناول في الغداء الشتوي، فقد أجابت العينة على هذه المواد المستهلكة على مدار الشتاء، وعليه فإن مجموع التكرارات يفوق العينة بكثير لأن الاجابات تتعلّق بالوجبات على مدار الأيام الشتوية، فالعائلة تتناول يوما الحبوب ويوما آخر الأرز وهكذا.
حسبما يوضح الجدول رقم 09 فإنّ مجتمع البحث لا يميل إلى الوجبات التي تتكون من الخضروات بشكل واضح في الشتاء مقارنة بالصيف، باعتقادهم بأنّها أكلات خفيفة لا تضفي الدفء على الجسم، وكانت نسبة من يتناول هذه المواد قليلة بنسبة 28.75% من العينة المبحوثة، ونلاحظ أن كل العائلات اعتادت على تناول الحبوب الجافة باعتبارها ثقيلة على البطن وتضفي الدفء لمقاومة برد الشتاء، ويكثر تناول العجائن كذلك ولكنها ليست محبذة عند كبار السن، أمّا بعض العائلات تتناول أحيانا وجبة الكسكسي والقليل من العائلات تتناول الأرز الذي تعودت عليه بعض العائلات الراقية ولكنه حديث بالنسبة لمجتمع البحث، وهذه العائلات في أغلبها لا يوجد فيها شيوخ كبار.

وبحسب المخبرة (رقم 20) تبين أنّه توجد مجموعة من الكيفيات الأخرى الموروثة عن الأجداد مثل المطابيق "المحاجب" والبركوكش إلى جانب الدشيشة والحساء، وكل هذه الأكلات تعرضنا لها سابقا في مجالها من البحث.

3 ـ وجبة العشاء

العشاء هو أحد الوجبات الأساسية التي تعوّد عليها المجتمع محل الدراسة، فرغم التحول الذي طرأ في نوعيته إلاّ أنّه ظلّت له مكانة مهمة في المجتمع، مثل ما كان عليه الحال في السابق، فنجد الأمهات يحرصن على تقديم العشاء للأطفال قبل أن يناموا، وإذا حدث وأن ناموا نجدها تتحسر على ذلك لأن الأبناء الصغار لم يتناولوا وجبة العشاء، ولا تنام الأم مطمئنة في تلك الليلة، وتلجأ في بعض الأحيان إلى إيقاظهم من النوم حتّى يتناولوا عشائهم فترتاح بعد ذلك.

أمّا فيما يتعلّق بوقت تناول وجبة العشاء، فقد تعوّد مجتمع البحث على أخذ وقتين متباينين كما يوضحه الجدول الآتي.

جدول 10 يبين وقت تناول وجبة العشاء

الإجابات	التكرارات	النسبة المئوية
بعد غروب الشمس بوقت قصير	20	25
بعد صلاة العشاء	60	75
المجموع	80	100

إن النسبة العالية من العائلات وكانت 75% تعودت على تناول العشاء بعد صلاة العشاء، أما النسبة الموالية من العائلات والتي شكلت 25% تتناول هذه الوجبة بعد غياب الشمس بمدة معتبرة، أي عند الانتهاء من جميع الأشغال اليومية، ومن العادة عندهم أن أفراد العائلة يكونون جميعا في البيت مع بعضهم بعكس وجبة الغذاء التي لا يحضرها الجميع عادة، ومن العادات الاجتماعية من حيث آداب المائدة فإنّ الطعام يكون في إناء مشترك والجميع يأكل منه، فقط عند العائلات الكثيرة العدد ينفصل الرجال عن النساء، وعند العائلات القليلة العدد يكون الجميع مع بعضهم بعكس السّابق بحيث . كما أسلفنا بالذكر . أن من المحال أن تأكل الزوجة مع زوجها مهما كانت الظروف.

و بالمقابل نجد فئة ثانية من العائلات ونسبتها من العينة كانت 25% من عاداتها تناول وجبة العشاء بعد حلول الظلام مباشرة ولمّا سألنا عن ذلك لم نجد سببا شافيا يبرر اتخاذ هذا التوقيت ما عدا التعود

فقط. وحسب تحليلنا الخاص فإنّ اختيار هذا التوقيت راجع إلى أنّ العمل بالزراعة يتطلّب الاستيقاظ باكرا وبالتالي فلابد من النوم باكرا، فهذه العائلات التي تتناول وجبة العشاء باكرا من عينة الدراسة حتّى وإن لم تكن عائلات تمارس الزراعة وقت الدراسة الميدانية فإنّها رسّخت فيها هذه العادة عن طريق التنشئة الاجتماعية حينما كانت تمارس النشاط الزراعي، وفي الحقيقة اتخاذ هذا التوقيت هو أنسب من الآخر من أجل تحرك الجسم وأخذ وقت كاف لهضم الطعام قبل النوم.

وإذا رجعنا لاختلاف الفصول، فإنّ وجبة العشاء في الصيف تكون مناسبة إذا كانت باكرا بحكم طول ساعات النهار وتباعد وجبة الغذاء عن العشاء، وبالعكس في الشتاء عندما تقصر ساعات النهار فإنّ العشاء يمكن تأخيره لأن الليل طويل ويكون بعد العشاء السّهر مستساغا.

أمّا ما يتعلّق بنوعية الوجبات فإن الجدول الآتي يوضح ذلك.

جدول رقم 11يبين نوعية المواد المكونة لوجبة العشاء

الاجابات	التكرارات	النسبة المئوية
كسكسي	30	37.5
خضروات	32	40.0
حبوب	14	17.5
عجائن	50	62.5
أكلات تقليدية	17	21.25

من الجدول رقم 11 يتبين لنا أن مجتمع البحث قد غيّر من نوعية العشاء التي كانت سائدة عندهم في القديم والتي تمثلت حصرا في الكسكسي بنسبة عالية جدا . كما رأينا سابقا . ، أمّا اليوم فهذا النوع من الغذاء قد تراجع إلى حد بعيد وكانت نسبة العائلات التي تتناوله تشكل نسبة 37.5% وهذا ما يثبت أن هذه العادة قد تراجعت على ما كانت عليه في الماضي، وعند تفحصنا للاستمارات وجدنا بأن أغلب العائلات التي تعوّدت على تناول الكسكسي ليلا يكون فيها كبار السن المتمثلين في الشيوخ سواء الرجال أو النساء. أما العائلات التي لا يوجد فيها الشيوخ فعدد متناولي الكسكسي ليلا قليل جدا، كما حدث هذا في سوريا فقد حدث تحول وتغير في الطعام "نتيجة الانفتاح والتحوّل نرى المواد

الأساسية (الزراعية والاستهلاكية) في المطبخ السوري التقليدي قد تغيّرت وتبعها بالتالي تحوّل أصناف الطعام أيضا"[1]

وحسب ما صرّح به المخبر (رقم 17) فإنّ الشخص الذي لا يتناول الكسكسي لن يعتبر نفسه قد تعشى إذا لم يأكله.

وهذا التراجع عن الكسكسي ليلا يرجع للتغيّر في البيئة الداخلية لمجتمع البحث، بحيث أصبح جيل الاستقلال أكثر وعيا وأغلبه من المتعلّمين في المدارس الحكومية النظامية وبالتالي هناك توعية مستمرة تنص على عدم الإثقال على البطن، ومن الواجب تناول الوجبات الخفيفة ليلا.

أمّا المادّة التي تصدرت القائمة فقد تمثلت في العجائن وعلى رأسها المعكرونة بحسب الملاحظة الميدانية وكذا لقاءات المخبرين، بحيث وصلت نسبة متناوليها إلى 62.5% من العينة، وذلك باعتقاد المجتمع بأنّها وجبات خفيفة سواء في الصيف أو الشتاء.

أمّا الخضروات، فكانت في المرتبة الثانية، وتمثلت نسبة العائلات التي تركز على تناولها 40% نظرا لتوفرها عمّا كانت عليه في السّابق خصوصا بعد ظهور زراعة البطاطا بالمنطقة بشكل وفير جدا، فقد دخلت المطبخ بصفة قوية، وهي تدخل اليوم كل الوجبات تقريبا، إلى جانب وجود الأنواع الأخرى من الخضروات كالجزر واللفت، وأصبحت جميعها متوفرة في المنطقة وتنتج محليا خصوصا بعد برنامج الدعم الفلاحي الذي اعتمدته الدولة الجزائرية بعد سنة 2000، الذي نشط العمل الزراعي خصوصا عند ممارسة الفئة الشبانية للعمل الزراعي لنجاعته وتوفر الوسائل الحديثة للزراعة، وعند لمس العائد المالي المعتبر من المنتجات الزراعية، ففي البداية كان إنتاج البطاطا هو السّائد وسرعان ما تحوّل وتعددت أنواع المزروعات وأصبحت متوفرة في السوق يوميا.

ونجد أن مجتمع البحث لا يزال يتناول بعض الأكلات التقليدية في وجبة العشاء خصوصا المطابيق بدرجة عالية مقارنة بالدشيشة والبركوكش وغيرهما من الأكلات التقليدية التي تعرضنا لها سابقا، وبلغت نسبة ذلك 21.25% من العينة المبحوثة، وهذا يعود لارتباطهم بعادات أجدادهم.

1 مريم بشيش: مرجع سابق، ص 89.

أمّا الحبوب فكانت نسبة تناولها في العشاء هي في المستوى الأخير ولم تشكل شيوعا في هذه العادة الاجتماعية، وعند استفسارنا على ذلك تبين أنها تساهم في تكوين غازات داخل البطن.

وعلى العموم فإن "التغير طرأ في نوع الأطعمة التي أصبح يتناولها المجتمع، فإذا كان التمر هو الغذاء الرئيسي ...، فإن الكسكسي هو وجبة العشاء الرئيسية لدى أغلب الأسر، ... فأصبحت المقرونة والمرقة والمقليات كلها أطعمة دخلت حديثا على المجتمع"[1] ، وهذا ما ترجمه الجدول السابق بحيث بين أنّ نسبة تناول الكسكسي قليلة مقارنة ما كانت عليه في القديم التي كانت ضرورية في كل يوم.

وهذا التراجع عن تناول أشهر أكلة تقليدية في العشاء المتمثلة في الكسكسي، يتماثل تتماما مع التغيرات التي طرأت في المملكة العربية السعودية بحيث أنّ "الأكلات الشعبية التقليدية وعلى رأسها العصيدة ... فقد شهدت هي الأخرى تراجعا واضحا وملموسا، وهذا أمر منطقي منسق مع التطور الذي حدث في بقية عناصر الثقافة، فإعداد تلك الأكلات وتناولها مرتبط بإطار معيّن، يقوم على الاهتمام بالعادات والمناسبات الاجتماعية (الأعياد الدورية المناسبات الأساسية في حياة الفرد كالزواج والميلاد والموت وتلاحم العلاقات الاجتماعية وانتشار المجاملات) فمن الطبيعي أنّ التحوّل الواضح نحو الحضرية قد أضعف هذا الاطار ثمّ أنّ إيقاع الحياة الحديثة السريع قد قلل من فرص اللقاءات، أو جعلها تتخذ الطابع الطقوسي السريع... لذلك أقول أن ضعف التمّسك بالتراث الشعبي ينطوي في الوقت نفسه على ضعف وتراجع الدور التقليدي الذي كانت تلعبه الأكلات الشعبية في حياة الناس"[2].

ولكن في مجتمع البحث حصل تغيير كبير في مناسبة الأعراس، بعكس ما بقيت عليه الوجبات المقدمة في دراسة "عليا شكري" فحسب الملاحظة الميدانية فإنّ المأدبة في العرس تحوّلت من الكسكسي إلى أطباق أخرى في جلّها دخيلة وجديدة، أمّا بعض الأكلات الأخرى المحضرة في مناسبات أخرى كالمولد النبوي الشريف فالعصيدة لا تزال إلى اليوم حاضرة، كما أنّ الكسكسي في عيد رجب وعاشوراء وشعبان موجود حتّى اليوم حسب ما لاحظناه.

---

1 حسان الجيلاني: **التغير الثقافي في المجتمع الصحراوي**، مرجع سابق، ص 163.

2 محمد الجوهري: **الأنثروبولوجيا**، مرجع سابق، ص 578.

4 ـ وجبات ثانوية

تتخلل الوجبات الأساسية المعتادة بعض الوجبات الثانوية التي بقيت على ما كانت عليه منذ القديم، وبعض الوجبات قد اندثرت تماما لدى مجتمع الدراسة، فوجبة تناول التمر مع الحليب التّي كانت شبه معتادة في السّابق في فترة الضحى قد تقلّصت إلى حد كبير وأصبح تناول هذا الغذاء أحيانا بالتزامن مع وجبة الغذاء، ولكن ليس دائما وليس عند كل العائلات بالضرورة.

جدول رقم 12 يوضح عادة تناول التمر مع الحليب في الضحى

الإجابات	التكرارات	النسبة المئوية
نتناوله دائما مع كل العائلة	02	02.50
نتناوله دائما وليس مع كل العائلة	26	32.50
نتناوله أحيانا	22	27.50
لا نتناوله	30	37.50
المجموع	80	100

هناك نسبة ضئيلة التي تتناول هذه الوجبة التي تعوّدت عليها يوميا في الضحى تمثلت في 02.50%، ولكن إذا تفحصنا الأمر جيدا يتبين بأنّ هذه العائلات تتكوّن من شيخ كبير وزوجته ومعهم بعض البنات غير المتزوجات وغير العاملات خارج البيت وغير متمدرسات، أمّا النسبة المتمثلة في 32.50% والتي تعوّد بعض أفرادها على هذه الوجبة، ويعني الأمر الأفراد غير العاملين وغير المتمدرسين أيضا، والشائع فيها أنّها تحوي شيوخا كبارا من المقعدين، أمّا الشباب العامل فعادة ما يكون في هذا الوقت بالعمل، لذلك لا وقت لديه لتناول هذه الوجبات، وإذا أكلها فإنّه يقتصر على التمر فقط في مكان عمله، هذا إذا كان الشاب عاملا في إطار البناء أو الزراعة، أمّا إذا كان العمل في القطاعات الحكومية كالإدارة أو التعليم فإنّ الفرد يمكن أن يكتفي بشرب الشاي فقط.

أمّا العائلات التي تتناول هذه الوجبة أحيانا فلا يوجد بها شيوخ كبار، فإذا كان الأفراد مع بعضهم في البيت فتكون الوجبة وإذا تعذر ذلك فلا تكون، أمّا النسبة الأكبر فقد انقطعت عن هذه العادة تماما وأدمجتها في كثير من الأحيان مع الغذاء مباشرة.

ونستخلص من هذا أن التغيّر في البيئة الداخلية للمجتمع قد عمل على تقليص هذه العادة الاجتماعية الغذائية التي كانت موجودة في السّابق، وهذا جرّاء التغيّر الذي حدث في النشاط الاقتصادي المتمثل سابقا في الرعي والفلاحة، وأصبحت الأغلبية تعمل في مجالات لا تسمح بالتواجد في البيت أو الحقل في وقت الضحى مثل الوظائف الإدارية والتعليم والتجارة والبناء وغير ذلك، وذهاب الأبناء للمدارس والجامعات كان السبب الثاني أيضا.

وعندما يحضر الجميع في الفترة المسائية بعد انتهاء العمل والتمدرس فإنّ العائلات لها عادة اجتماعية تتمثل في الالتفاف حول الشّاي، وهذه الوجبة قد ورثت منذ القديم، وبقيت إلى اليوم عند أغلب العائلات.

جدول رقم 13 يوضح تناول الشّاي في الفترة المسائية

الإجابات	التكرارات	النسبة المئوية
نتناوله دائما	75	93.75
نتناوله أحيانا	04	05.00
لا نتناوله	01	01.25
المجموع	80	100

من الجدول رقم 13 يتضح بأنّ هذه العادة بقيت موجودة في مجتمع البحث باعتبار أن الشّاي هو العامل الأول في جلوس العائلة مع بعضها مع تجاذب أطراف الحديث وبعض المزح الذي يتخلل الجلسة، فهو فرصة للمحافظة على الروابط الأسرية ومناقشة ما يعني العائلة من أمور مختلفة.

ولا يزال مجتمع البحث يعتبر الشّاي منشّطا ومبعدا للتّعب الذي ينشأ طوال اليوم، ولم تتغير هذه الوجبة إلى شرب القهوة أو غير ذلك.

وحسب المخبر (رقم 15) فإن الشّاي الأفضل المغلّى فوق الفحم أو نار الحطب الطبيعي هو المفضل عندهم إلى اليوم.

5 ـ الفواكه

اعتادت المجتمعات البشرية على تناول الفواكه باعتبارها غذاء يختلف من مجتمع إلى آخر بحسب ما تنتجه البيئة الطبيعية، أو بحسب ما يؤتى به من المناطق المجاورة، بحيث نستطيع القول بأنّ ما يعتبر فاكهة في مجتمع معين يمكن ألا يعتبر كذلك في مجتمع آخر، وهناك من الخضار ما يعدّ فاكهة في بيئة اجتماعية ولا يعدّ كذلك في بيئة أخرى، فلو أخذنا على سبيل المثال الطماطم التي تنتج في أغلب مناطق العالم، تعتبر فاكهة في المشرق العربي وتعتبر خضارا في المغرب العربي، وهناك من يعتبرها الاثنين معا.

ففي مجتمع البحث باعتباره منتجا للتّمور بدرجة أولى فلا يعتبرها فواكه كما هو عند سكان البيئات الشمالية في الجزائر، فالتّمر يعتبره مجتمع البحث عبارة على غذاء أساسي وليس بالخضر ولا بالفواكه، فله مكانة مرموقة جدا تصل عند كبار السّن إلى حدّ القداسة.

وعند بحثنا عن نوعية الفواكه في مجتمع البحث استطعنا أن نتوصل إلى أنّه وقع تحوّل في هذا الجانب، لأنّه في السابق كانت الفاكهة نادرة وقليلة خصوصا في بعض الفصول، فحسب المخبرة (رقم 16) أنّ المجتمع لا يتناول الفاكهة بصفة دائمة ولا تعتبر أساسية.

ففي السّابق الفاكهة تكاد تنعدم خصوصا عند البدو الرحل، سوى ما يتناولونه عند فترة استقرارهم في المناطق العمرانية في فصل الصيف، وهذا يرجع لخصوصيات البيئة الطبيعية وكذا طبيعة النشاط الذي لا يسمح بنقل الفاكهة من مكان إلى آخر ولا يمكن لهذه المواد أن تبقى لمدّة طويلة.

وبحسب المخبرة نفسها فإنّهم كانوا يتناولون فاكهة الدلاّع الذي يسمّى البطيخ الأحمر في أماكن أخرى في فصل الصيف، وهو منتج محلّي منذ زمن بعيد، بالإضافة إلى نوع آخر من البطيخ الصيفي الذي يطلق عليه لفظ البطيخ، وهو لا يتحمّل البقاء أكثر من يوم واحد بعد نضجه، أمّا في الشتاء فلا توجد فاكهة عدا البرتقال الذي يقتنى من السّوق وليس متوفرا دائما.

وبعد الانفتاح على أسواق المناطق الأخرى، تغيرت العادات الاجتماعية الغذائية من ناحية أهمية الفاكهة خصوصا بعد العقدين الأخيرين، بحيث أصبحت العائلات تهتم بها ولكن ليس بصفة كلّية فإذا حضرت فهي مستحسنة وإذا لم تحضر فلا يشكل ذلك نقصا معتبرا.

جدول 14 يوضح تناول الفاكهة في مختلف الفصول

الإجابات	التكرارات	النسبة المئوية
نتناولها في جميع الفصول	07	08.75
تعتبر ضرورية في الصيف	60	75.00
لا تعتبر ضرورية في كل الأحوال	11	13.75
تعودنا عليها في معظم الأحيان	02	02.50
المجموع	80	100

من الجدول رقم 14 يتبين بأن تناول الفاكهة أصبح موجودا عند كل العائلات محلّ الدراسة، فكلّ الإجابات بيّنت بأنّ الفاكهة دخلت إلى العائلات وأصبحت عادة اجتماعية مستحسنة، ولكن درجة ممارسة هذه العادة تختلف من عائلة إلى أخرى، ومن فصل إلى آخر، بحيث نلاحظ من الجدول أنّ الأغلب يركز على ضرورة تناول الفاكهة في الصّيف، ولكن ما هي نوعها إذن؟.

بحسب الملاحظة الميدانية فإنّ هذه الفاكهة تتمثل أغلبها في نوع يسمّى "الدلاّع"، بحيث نجدهم يتناولونه في مختلف الأوقات خلال اليوم، عند الضحى أو بعد الغذاء، أو بعد الزوال أو في العشية، أو عند المغرب وحتّى في السّهرة.

وبحسب الملاحظة فإنّ الشّاحنات المحمّلة بهذه الفاكهة هي الأشيع في سوق الجملة للخضر، حيث يتضاءل شرب المشروبات والعصائر وجميع الفواكه الأخرى ويتوجه الجميع للدلّاع، فهو المفضل على الإطلاق في فصل الصيف، أمّا عن إنتاجه فهو محلّي بالدرجة الأولى ولكن هذا لا يسدّ حاجيات السكّان بصفة كاملة، فيستورد من مناطق أخرى من الجزائر، وهناك من يجلبه من تونس أيضا، وهذا راجع بالطبع لكثرة تناوله عند مجتمع البحث، ففي السّابق بحسب أهل المنطقة كان إنتاج

هذه الفاكهة قليلا نوعا ما في المنطقة ولكن أصبحت منطقة وادي سوف في الآونة الأخيرة أحد الأقطاب المنتجة لهذه الفاكهة خصوصا في بداية الصيف.

فما هو السّر في تحبيذ الدلاع عند مجتمع البحث؟. فبحسب المخبرة (رقم 16) أنّ الدلاّع يمنح البرودة للبطن عند تناوله، ويعتبر غير مضر حتّى إذا كان بكثرة، ويقلّل من شرب الماء، ومن فوائد هذه المّادة التي تعدّ من الفواكه بحسب التفسير العلمي فإنه "يطفىء العطش، وله قيمة غذائية عالية، فكل مائة غرام من البطيخ الأحمر تحتوي على 30 سعرة حرارية، واحد غرام ألياف غذائية، 10 غرام سكر، 1 غرام بروتين، خال من الدّهون والكلسترول، يحتوي على فيتامينات A، B، C، يحوي: النياسين، الثيامين،B6،،B12، حامض البانتثنيك، كذلك يحتوي على المعادن مثل الحديد، الكالسيوم، المغنزيوم، المنغنيز، البوتاسيوم، الفوسفور، الزنك، الفلورايد، السيلينيوم، وهو خال من الصوديوم... بالإضافة إلى الفوائد الصحية منها:

. القلب، باعتباره خال من الدّهون والكلسترول فهو يعتبر كحمية لأمراض القلب.

ـ السرطان، باحتوائه على فيتامين A و C، فهو يلعب دورا فعّالا في مكافحة عدّة سرطانات منها: سرطان الثدي والرحم والبروستات والرئة والقولون والمستقيم.

ـ وله فوائد في النشاط الجنسي، حيث يعتبر منشّطا للأوعية الدموية بزيادة توسيعها.

ـ الالتهابات، حيث يعتبر معالجا لالتهابات المفاصل لاحتوائه على فيتامين B12 وB6 .

ـ الكلى، يلعب البطيخ دور المنظف للكلى من ترسبات الأملاح الكلسية، لاحتوائه على البوتاسيوم الذي ينجز مهمة إزالة الأملاح، وحيث يعتبر البطيخ كمدر للبول نتيجة إحتوائه على كمية كبيرة من المياه.

ـ ارتفاع ضغط الدّم، يعمل كل من البوتاسيوم والمنغنيز على تنظيم ضغط الدّم، وتعمل مضادّات الأكسدة على الحفاظ على صحّة الأوعية الدموية ضد تصلب الشرايين، ويساعد على إنخفاض إرتفاع ضغط الدّم، وله فوائد أخرى مثل علاج فقر الدّم لإحتوائه على الحديد، ويساهم في اعتدال الوزن، حيث يساعد في خفض الوزن علما أنّ كلّ 100 غ تعطي 30 سعرة حرارية.

ـ مفيد لصحة العين لاحتوائه على فيتامين A"*.

* موقع إلكتروني 23.24 25/07/2014 www. Altibbi.com بتصرف.

وهذا التغيير في عادات تناول الفاكهة يتطابق تماما مع مجتمعات المملكة العربية السعودية التي تغيّرت فيها هذه العادة نتيجة التحضر وقيام الدولة بتنمية اجتماعية شاملة، فعندهم "ظهرت الخضروات والفواكه لتلعب دورا أكبر بكثير مما كانت تلعبه في الماضي"[1].

كما لا ننسى الفائدة الغذائية للفاكهة بحيث تحتوي على مقدار كبير من الفيتامينات، ورغم هذا الأمر إلاّ أن قرية برك الخيام بمصر "لا يتناولون الفاكهة إلاّ نادرا لغلاء ثمنها، فجميع شرائح المجتمع عندهم تصل عدد مرات تناولها أسبوعيا مرة أو مرّتين فقط، وعند الباقي قد تصل المدّة الشهر"[2]، بعكس ما وجدناها في مجتمع البحث فأغلب العائلات تتناولها وهناك من يعتبرها ضرورية في كل مائدة.

1 محمد الجوهري: **الأنثروبولوجيا**، مرجع سابق، ص 277.

2 المرجع نفسه، ص 404. بتصرف.

ثالثا: علاقة البيئة الخارجية بتغيير العادات الاجتماعية الغذائية

تعتبر منطقة وادي سوف بعيدة عن المناطق السكنية الأخرى بمسافات بعيدة، وأرضها وعرة من حيث تواجد الرّمال المتحركة، فكان السّكان هناك قليلي الاحتكاك الثقافي مع مجتمعات أخرى، فكانت لهم ثقافة معيشية متميزة، أغلب عناصرها كانت وليدة الحاجة المستنبطة من البيئة الداخلية سواء طبيعية أو اجتماعية.

تميّزت عندهم العادات الاجتماعية الغذائية تميّزا يمكن أن يصل إلى الانفرادية مقارنة بالمجتمعات الأخرى، عدا بعض العادات التي مورست في الصحاري العربية نتيجة الأصل القبلي أو نتيجة لتلك الرحلات التي كان يقوم بها أشخاص من حين إلى آخر مثل الرحلات التجارية أو رحلات الحج، حيث كانت الرحلة إلى الحج في السّابق تستغرق أشهرا، وبالتالي يمرّ الحجاج على قبائل مختلفة فيحتكون بها ويمكن أن يأخذوا من عاداتهم خصوصا الغذائية عندما يستضيفونهم.

أمّا اليوم فقد وقع تحوّل كبير في البيئة الدّاخلية لمنطقة صحراء سوف خصوصا بعد ظهور الوسائل الحديثة والانفتاح على المناطق والمجتمعات الأخرى.
إذن: ما هي مظاهر التغيير التي حدثت في العادات الاجتماعية الغذائية لدى مجتمع البحث؟. وما هي عناصر البيئة الخارجية التي ساهمت في هذا التغيير؟.

1ـ الطرق

كما أسلفنا القول إنّ منطقة مجتمع البحث . وادي العلندة . حديثة التعمير، فكان ذلك في نهاية القرن التاسع عشر، وعُمّرت أوّل مرّة بواسطة غراسة النخيل، لأنّ بها منخفضات قريبة من سطح المياه الجوفية، وهذه المنطقة كانت عبارة عن ممر بين الوادي كمركز ومنطقة توقرت، وهذا الممر أو الطريق يمرّ فيه الراجلون والإبل أو البغال والحمير فقط، فلا مجال للسيارات آنذاك.

وبعد الاستقلال أنجز الطريق الرابط بين الوادي وتوقرت، وكان حظ المنطقة أن يمر بوادي العلندة التي هي الآن تمثل مجتمع البحث، ومن ذلك الحين أصبحت منطقة عبور لكل قاصد السفر إلى

الجنوب، فيمر عبرها الأوربي والتاجرّ، وكل القادمون من المناطق الشمالية الشرقية، وكل من يقصد منطقة حاسي مسعود البترولية.

وبالتالي بدأ الانفتاح على الثقافات الأخرى بواسطة هذه الطريق الجديدة.

فالطريق فتح مجالات عديدة، بحيث فك العزلة عن المنطقة، وبالتالي الانفتاح على الآخرين، بحيث "توجد علاقة بين معيشة الجماعات الإنسانية في حالة انعزالية، وتجمّد ثقافتها في المرحلة البدائية. وبين اتصال وتعاون الجماعات الإنسانية ونمو ثقافاتها وانتقالها إلى مرحلة التمدن والتقدم"[1] والطرق هي أحد وسائل الاتصال مع البيئات الخارجية.

ولم يقتصر هذا الانفتاح على العابرين بالمنطقة فحسب، بل تعدّاه إلى أنّ أهل المنطقة سهّل عليهم التنقل لمدينة الوادي التي تبعد بحوالي عشرين كيلو مترا، فأصبح الكبير والصغير يزور المدينة المتواضعة بسوقها المتميز، وبالتالي دخلت عادة لمجتمع البحث وهي التسوّق من سوق المدينة كل يوم جمعة تقريبا، فيقتني رب العائلة كل ما تحتاجه العائلة خصوصا المواد الغذائية المتعوّد عليها، وشيئا فشيئا بدأ ربّ الأسرة في كلّ مرة يشتري إحدى المواد التي يراها في السّوق ولم يشترها من قبل. ففي إحدى المقابلات التي أجريت أثناء الدراسة الميدانية، تبيّن أن الخبز المصنوع في المخابز الحديثة لم يكن معروفا من قبل إلاّ بعد ظهور الطريق المعبدة، أمّا الأرز فبدأ تناوله في عقد الثمانينات فقط، وكذلك بعض الخضار مثل البطاطا وغير ذلك من المواد الغذائية المختلفة.

وبمرور الوقت انتشرت المحلاّت التجارية في المنطقة ميدان البحث، وأصبح الذهاب إلى المدينة لا يقترن بيوم الجمعة، فكثرت المواصلات ووسائلها، مع أن السيارات الخاصة أصبحت منتشرة بكثرة وبشكل كبير، عمل كل هذا على اقتناء المواد الغذائية الجاهزة، التي لا تحتاج إلى عناء كبير في تحضيرها، ففي السابق كانت المرأة هي التي تطحن القمح يوميا من أجل تحضير وجبة الكسكسي التي كانت يوميا، أمّا اليوم فقد تميل العائلات إلى اقتناء السّميد الجاهز، أو في أحيان أخرى تقتني الكسكسي المصنع من المحلات التجارية، فتغير الطابع الاحتفالي الذي كان سابقا عند التحضير لكسكسي حفل الزواج، فكانت العائلة تقوم برحي القمح في قالب جماعي متكوّن من نسوة العائلة

1 عاطف وصفي: مرجع سابق، ص 92.

ومساعدة نسوة الجيران، فكانت حفلة نسوية بأتم معنى الكلمة، تسمع الأغاني والزغاريد وبعض الأهازيج من بعيد كأنّ العرس قد قام، ولا ينتهي هذا الأمر عند هذا الحد، بل عند فتل الكسكسي تتكرر العملية نفسها، فقد غاب اليوم الطابع التعاوني والاحتفالي حتّى عند التحضير لكسكسي شهر رمضان، أو التحضير لحفل الختان، فانعدم هذا الأمر تماما، فأكلات مأدبة الأعراس تحوّلت من الطعّام إلى أطباق أخرى تمتاز بسرعة الإعداد ودخالتها عن ثقافة المجتمع، مثل البطاطا المقلية وغيرها، وهذا كلّه يرجع حسب تحليلنا الخاص لظهور سلوك الفردانية في المجتمع بصفة تدريجية، مع أن حجم العائلة قد وقع فيه تغيير بحيث تقلصعددها إلى أن ظهرت الأسرة النووية، وقلّ الاتصال العائلي الذي كان يوميا بين أفراد العائلة الكبيرة، بل أنه كانت الوجبة تنضج في مطبخ واحد، وبالمقابل نجد تلك المواد الغذائية الجاهزة سواء في المحلات التجارية المتواجدة في المنطقة أو الذهاب لسوق المدينة التي تبعد 20 كلم عن مجتمع البحث، فالشخص حتّى إذا خصّه الخبز فلا يتوانى في الذهاب إلى المدينة لاقتناءه، لأن الزوجة لها شغل ولم تتمكن من تحضير خبز الدار، لأنّ الخبز الجاهز أيضا لا يوجد ذلك اليوم في بقالة القرية، وهذا الأمر يتوافق تماما مع ما هو موجود من تغير في قرى المملكة العربية السعودية فإنّ "عملية إعداد الطعام وتناوله قد فقدت اليوم كثيرا من طابعها الاحتفالي التقليدي، واكتسبت طابع السرعة والفردية، هذا بالإضافة إلى نقطة عامّة أخرى وهي أنّ الوجبات الجماعية كانت مرتبطة بطريقة الذبح التقليدية، وكذلك الطرق التقليدية في الطحن والخبز وغير ذلك، فقد كانت تلك العمليات تتم في الماضي على فترات متباعدة وبجهد مادّي كبير، أو لابد أن تتضافر لها جهود عدد كبير من الأسر، أمّا اليوم فالأسرة تستطيع أن تحصل على اللحوم كلّ يوم من البقالة، أو حتّى إذا ذبحت عجلا أو بقرة فإنّها تستهلك في ذلك اليوم ما تشاء منه، ثمّ تخزّن الباقي في ثلاجات داخل بيتها، كذلك تحصل الأسرة على الدقيق جاهزا، أو حتّى تحصل على الخبز من المخبز العام دون أي جهد، لذلك نقول أنّ توّفر الطعام بسهولة ووفرة قد نزع عنها جانبا كبيرا من إغرائها ومظهرها الاحتفالي، وحول عملية الطعام لمسألة أسرية داخلية"[1]

وهكذا نستطيع القول بأنّ الطرق المعبدة كانت عبارة على وسيلة ساعدت مجتمع البحث على تغيير العادات الاجتماعية الغذائية خصوصا ما تعلّق بالنوعية، وعملية إعداد الغذاء والمواد المكوّنة له.

1 محمد الجوهري: **الأنثروبولوجيا**، مرجع سابق، ص 579.

2ـ الهجرة والعمل بالشركات البترولية والمنجمية

تعتبر الهجرة نوعا من الحراك الاجتماعي الذي يتميّز به كل مجتمع من المجتمعات البشرية، فقد شهدت وادي سوف كما هائلا من الأفراد والأسر التّي هاجرت من المنطقة خصوصا من يمتهن مهنة المبادلات التجارية "فقد بلغ عدد السكّان المهاجرين في فترة الخمسينات من القرن الماضي 11644 مهاجرا وهذا العدد أكثر من ثلث سكان المنطقة"[1]، ولعل ذلك يعود للأسباب التالية:

"ـ الفقر وشظف العيش، بحيث قلّت القدرة الشرائية، فالفرد لا يجد المأكل والملبس ولا العمل كذلك، خصوصا بعد القحط الذي حلّ بالمنطقة في العقد الخامس من القرن الماضي، فقد هلكت العديد من رؤوس الأغنام.

ـ الاستعمار الفلاحي، حيث ازدهر النشاط في قطاع النخيل بعد انشاء المستثمرات الفلاحية في منطقة وادي ريغ، بعد سنة 1856 ، وهذا ما أدّى بسكان وادي سوف للتنقل لهذه المنطقة بقصد العمل في مجال التمور والنخيل.

ـ الرحلات العلمية، اتجه العديد من أبناء المنطقة إلى جامع الزيتونة المعمور، والأزهر، وجامعة القرويين بالمغرب، بقصد طلب العلم.

ـ الرحلات التجارية، فمنطقة وادي سوف تحتل موقعا حدوديا مع ليبيا وتونس، فسكان المنطقة يعرفون المسالك والطرق المختلفة، مما سهل عليهم ممارسة المبادلات التجارية، "كانت تجارة القافلة أهم ركيزة في علاقات سوف مع الأقاليم الطرابلسية، حيث كان تجار المنطقة يصدرون لغدامس التمور وعسل النخيل والملح، والحياك، والقندورة المصنوعة من الصوف، وزيت الزيتون الذي يجلب من تونس، والزبدة التي يصنعها الأهالي والشمع القادم من بسكرة، والأغنام والجمال، والتبغ، والغزلان، أمّا السوافة فيجلبون من غدامس النباتات العطرية المجففة، والذهب، وريش النعام، وكربونات الصودا وحجر الشب، وجلود الفيلالي، والقرب، وجلود الجاموس، وأحمرة التوارق، والبخور، والعسل، والأقمشة السودانية، والحرير"[2] وهؤلاء التجار تعلّموا مختلف الثقافات نتيجة انفتاحهم على تلك البلدان التي

---

1 عمار عوادي: الهجرة من وادي سوف وأثرها على حياة السكان ، 185ـ 1962، ط 1، الجزائر: دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، 2013، ص 45. بتصرف.

2 عثمان زقب:مرجع سابق، ص 79.

يجولون فيها، فنقلوا منها ما يطوّر حياتهم في بيئتهم الصحراوية"[1]. فنستطيع القول بأنّ منطقة وادي سوف في فترة زمنية ماضية كانت طاردة للسكان، إلاّ أنّه بعد الاستقلال عاد الكثير من المهاجرين للمنطقة.

والهجرة من وادي سوف "لم تتوقف على مر التاريخ خاصة إلى تونس وليبيا، والمدن الجزارية ولكن الهجرة التي شهدتها سوف مع بزوغ فجر الاستقلال في صائفة 1962 هي أكبر الهجرات تأثير في ثقافة سوف، ذلك أنّ هذه الهجرة كانت أعمق تأثيرا"[2] ، وهنا نقصد العودة من الهجرة التي أثرت بعمق في ثقافة وادي سوف، وهذا العمق في التأثير يرجع حسب الدكتور "حسان الجيلاني" إلى جملة من الأسباب نذكر منها:

ـ المهاجرون الذين قدموا إلى سوف فجر الاستقلال هم أبناؤها وليسوا غرباء.

ـ حمل المهاجرون ثقافة وعادات البلدان التي كانوا فيها.

ـ حمل أهل المنطقة عادات الذين يطلق عليهم اللاجئين باعتبار ذلك أحسن من عاداتهم المحلية، خصوصا في كيفية طبخ الطعام ونظافة البيت وغير ذلك.

ـ بما أن العائدين كانوا عبارة على أسر، فقد جعلهم يتوغلون في عمق المجتمع المجتمع وأثروا في ثقافته.

ـ وقد أثر إقبال المواطنين على الزواج من بنات الأسر التي كانت مهاجرة وعادت إلى المنطقة في تغيير الكثير من العادات الاجتماعية، فهن قد أثرن في أسر أزواجهن تلك العادات التي لا تتناسب مع تنشئتهن.[3]

وإلى جانب تلك الهجرات فهناك عدد من الرجال في مجتمع البحث اختاروا العمل في الشركات البترولية والمنجمية خصوصا بعد إنشاء منطقة حاسي مسعود بالجنوب الجزائري، والتي تبعد عن ميدان البحث بحوالي 260 كلم جنوبا، وهناك من هاجر إلى أوربا خصوصا فرنسا أين وجد ضالّته في العمل هناك، ومن الطبيعي فإن العامل بأحد الشركات كان يحتك بثقافات مختلفة لأن العمال هناك منهم الأوربي والأمريكي، ومنهم من مناطق الوطن الجزائري المختلفة.

---

1 عثمان زقب: المرجع السابق، ص ص 47 ، 48. بتصرف.

2 حسان الجيلاني: **التغير الثقافي في المجتمع الصحراوي**، مرجع سابق، ص 162.

3 أنظر حسان الجيلاني المرجع السابق.

وحسب المخبر (رقم 17) فإن التغذية في تلك الشركات كانت متطورة جدا ولم تكن معهودة عندهم في عاداتهم المحلية، وبالتالي كنا نجلب معنا العديد من المعلّبات والفواكه التي كانت تقدّم لنا من طرف الشركة إلى عائلاتنا مثل الجبن وأنواع السّمك المعلّب، وبعض اللّحوم المعلّبة والعصائر المختلفة، وكنا نصحب معنا حتى الماء المعدني الذي يسمى بـ ماء سعيدة.

وكنتيجة لهذا الأمر بدأت تدخل بعض الأصناف الغذائية للمنطقة، وأصبح الأطفال يعرفون تلك الأنواع التي لم تكن معروفة عندهم، ويفيدنا المخبر نفسه والذي حصل له الشرف أن يكون مركز عمله في أحد المطابخ بالشركة البترولية بأنّه تعلّم العديد من الوجبات والكيفيات المختلفة في إعداد الغذاء، وكان في كل مرّة يحضر في بيته المتواضع أحد الوجبات التي لم تكن معروفة عند العائلة الصغيرة.

وكنتيجة لهذا الأمر فإنّ العادات الاجتماعية الغذائية أخذت في التغيّير شيئا فشيئا زيادة على العمال المهاجرين في أوربا الذين ساهموا في تغيير واستبدال بعض الوجبات الغذائية التي عهدوها بفرنسا أو بعض الدول الأوربية الأخرى.

3ـ وسائل الإعلام

تنقسم وسائل الإعلام إلى مسموعة ومرئية ومكتوبة، فعند مجتمع البحث لم تكن هناك وسيلة إعلام معروفة ما عدا المذياع الذي يتواجد لدى العديد من العائلات، أمّا الجرائد فكانت منعدمة تماما، وفيما يخص التلفاز فكانت العائلات التي تملكه تعد على الأصابع ويكون عند عائلات المهاجرين فقط، ومع العلم أن القناة المتاحة كانت القناة الجزائرية فقط، وهذا التلفاز كان يشتغل بالبطارية وكل الجيران لتلك العائلة يحاولون الدخول ليحصلوا على فرجة لذلك الجهاز العجيب خصوصا الأطفال منهم.

جدول رقم 15 يبين امتلاك العائلات لأجهزة وسائل الإعلام قبل ظهور الكهرباء

الإجابات	التكرارات	النسبة المئوية
المذياع	41	51.25
التلفاز والمذياع	02	02.50
لا شيء	17	21.25
بدون إجابة	20	25.00
المجموع	80	100

يتبين من الجدول 15 أنّ النسبة العالية كانت لا تمتلك سوى المذياع فقط، وكانت تشكل النصف تقريبا 51.25%، وشكلت النسبة الدنيا والتي كانت 2.50% التي زاوجت بين المذياع والتلفاز معا وبعد التفحّص تبين أنّ هذه العائلات كان منهم من يعمل بخارج الجزائر، وحسب البيانات الميدانية وعند نسبة 25% التي لم تعبر على إجابة لأن تلك العائلات حديثة النشأة، أي لم تعهد فترة ما قبل ظهور الكهرباء، وهناك من كان لا يملك أي وسيلة إعلامية مهما كانت.

وبعد ظهور الكهرباء الذي أحدث نقلة نوعية في ثقافة المجتمع بكل عناصره، والذي كان بالضبط في سنة 1982 بدأت العائلات تقتني التلفاز، واليوم لا يخلو بيتا من وجوده بحسب ما لاحظناه، وهنا بدأ التأثر بهذا الجهاز وما يبثه من ثقافات مختلفة سواء عن طريق الأفلام العربية وغير العربية، وكذلك تلك المسلسلات والأشرطة ومختلف الحصص إلى جانب الإشهارات التي تشهر سلعا استهلاكية وسلوكيات وقائية مختلفة.

4 ـ التعليم داخل وخارج المنطقة

نظرا لشحّ المتعلمين في منطقة البحث، وبسبب حبّهم للتّعلم والتثقف، قام أهل المنطقة منذ عشية الاستقلال بإرسال أبنائهم للمدارس بداية من التعليم الابتدائي الذي كان في مدارس أنشأتها الدولة في المنطقة، وعند مرحلة التعليم المتوسط يرسل الناجحون في شهادة التعليم الابتدائي إلى مركز المدينة أين تتواجد فرص الدراسة بالمتوسطة، أمّا التعليم الثانوي فكان خارج الولاية إلى غاية عقد السبعينات، بحيث "انطلق التعليم الثانوي . بالوادي ـ سنة 1973 بثانوية عبد العزيز الشريف الوادي"[1]، فقبل ذلك هناك من أرسل ابنه إلى قسنطينة وآخر إلى باتنة ثم بعد ذلك بسكرة إلى أن أنجزت الثانوية في الوادي.

أمّا التعليم الجامعي فلم يكن في الوادي جامعة إلاّ في نهاية التسعينات، فكان الناجحون في الباكالوريا ينتشرون في مختلف الجامعات خصوصا ولايات الشمال الجزائري، ولا يزال إلى اليوم بعض الطلبة يزاولون دراستهم في جامعات خارج الولاية رغبة في دراسة تخصصات غير موجودة في جامعة الوادي مثل الطب والمحروقات وغيرهما.

ومن الملاحظ أنّ نسبة المتابعين لدراستهم خارج منطقة البحث يتزايد من سنة إلى أخرى وبالتالي عمل هذا الأمر على التطلع واكتشاف ثقافات أخرى ساهمت في تغيير بعض العادات الاجتماعية التي من بينها الغذائية.

وهذا كما حدث لأغلب المجتمعات التي ترسل أبناءها إلى مناطق أخرى لمزاولة الدراسة مثل ما كان عند بدو الطوارق حينما أرسلوا الأبناء إلى التعليم، وكان عبر الداخليات التي أنشأتها الدولة الجزائرية فالتغيير "يظهر بوضوح عندما يزور بن البدوي مخيم والديه في أثناء العطلة الصيفية، إذ يأتي وقد تغير سلوكه نتيجة احتكاكه بالثقافة الخارجية التي يتمثل بعض عناصرها، وتصبح جزءا من سلوكه وتفكيره، كما يحمل لأقربائه وأبناء عشيرته، هذه العناصر الثقافية الجديدة"[2].

كما عمل التعليم الابتدائي الذي ظهر غداة الاستقلال كما ذكرنا سابقا على تغيير العادات الاجتماعية الغذائية في منطقة البحث ليس من خلال الدروس داخل الحجرات الدراسية فحسب، بل أيضا من

---

1 بن سالم بن الطيب بالهادف: مرجع سابق، ص 109.

2 محمد السويدي: مرجع سابق، ص 193.

خلال تلك الوجبات الغذائية التي تقدّم للتلاميذ في المطعم المدرسي، فالدولة الجزائرية خصصت أموالا لدعم تغذية الأطفال فمن خلالها عرف النشء عادات غذائية جديدة كالفواكه التي تقدم في كل وجبة التي لم تكن ضرورية في البيوت، وكذلك يقدّم لهم وجبة إفطار في الصباح تتمثل في كوب من الحليب، فعرف التلاميذ العديد من المواد الغذائية الأخرى كالجبن المعلّب، وبعض الفواكه الفصلية، والعديد من الكيفيات الغذائية المختلفة، إلى جانب تدريبهم على كيفية تناول الغذاء، وغير ذلك من السلوكيات المرتبطة به كغسل اليدين قبل وبعد الأكل.

ومن خلال هذه التنشئة الاجتماعية في المدرسة الابتدائية كسب النشء عادات اجتماعية غذائية جسّد منها في الأسر التي ينتمي إليها، وزاد عليها عندما كوّن هذا النشء أسرا خاصّة عندما كبر.

رابعا: تصبير المواد الغذائية

من الملاحظ ميدانيا أن عملية تصبير المواد الغذائية طرأ عليها نوعا من التغيير بفعل عدّة عوامل، فقد أصبح مجتمع البحث يستعمل تلك المجمدات والمبرّدات الصناعية، التي تعمل بالكهرباء في تصبير العديد من المواد الغذائية، فلم يعد هناك "لحم القدّيد" الذي كان في الماضي، فأصبحت العائلة تضع ما يبقى لها من لحوم خاصّة في عيد الأضحى في المجمّدة الكهربائية، مثل ما هو عند المجتمع السعودي بحسب دراسة الدكتورة عليا شكري، فهم يذبحون العجل فيتناولون منه ذلك اليوم والباقي يخزن في المجمّدات، وبالنسبة للشحوم فلم يبق لِ "الْشِبْرِيَه" وجود، فهي أيضا تخزّن في المبردات.

أمّا الخضروات فالمحلاّت التجارية تعج يوميا بها، فلا داعي لتصبيرها، فاليوم تؤكل دون تصبير ولا حفظ، بالإضافة إلى التطوّر الذي حدث في المجال الزراعي عمل على توفير كل الخضروات في مختلف الفصول السنوية، فلا توجد ضرورة لتصبير "الكابو" أو الطماطم، عدا عند بعض العائلات التي تصبر الفلفل الحار ليس لعدم توفره من غير موسمه المعروف وهو فصلي الصيف والخريف، بل بقي كعادة اجتماعية لتفضيل ذوقه المميز عند تناول بعض الوجبات الغذائية كالكسكسي، بالإضافة للمرذوخ . تعرضنا له سابقا . فلا تزال العائلات تخزنه لطعمه المميز أيضا الناتج عن إمتزاج الفلفل الحار والطماطم وبعض التوابل والمخللات، مع الملح.

أمّا ما يتعلّق بالتمر فتصبيره بقي بسبب الكميات الكبيرة المستهلكة من طرف العائلات، فلا يمكن توفير المجمدات بكثرة، عدا بعض العائلات فقط، والواقع كشف بأن تصبير الغرس تخلى المجتمع عن الخابية نظرا للتغير الذي حدث في الشكل الهندسي للعمران الذي أزاح مكانها، فبقي تصبيره في البطانة كما كانت في الماضي، وظهر عند المجتمع بحسب المعايشة الميدانية تصبير "دقلة نور" التي لم تكن تصبر، ولكن في المجمدات الكهربائية، فقط أن الكميات قليلة.

أمّا النعناع فمازال مجتمع البحث يستخدمه في الشاي، فتصبيره تقليديا حتى لحظة إجراء الدراسة، مثله مثل "الفليو".

أمّا حفظ القمح فقد انعدم تماما بسبب قلّة استهلاكه، ولا يصبر السميد كذلك لأنه يباع في أكياس صغيرة الحجم فتشتري العائلة كيسا واحدا، وعندما ينفذ تعيد شراء آخر، فقط بقيت بعض العائلات تخزنه ناضجا مجففا لاستعماله عند الحاجة.

خاتمة

من بين العناصر الثقافية نجد تلك العادات الاجتماعية الغذائية، التي تتمثل فيها كل التمثلات الاجتماعية الأخرى، فالأسرة، والتنشئة الاجتماعية، والمستوى التعليمي، ودرجة التحضر، ومستوى الدخل هذا وغيره يتجسد في هذه العادات الاجتماعية، فالطعام والمطبخ يشكل هوية المجتمع هذا ما وصلنا إليه في هذا البحث.

ومما لا شك فيه أن البيئة بأنماطها سواء الداخلية أو الخارجية، من الجانبين الطبيعي والاجتماعي على علاقة وطيدة بالعادات الاجتماعية الغذائية، فقد توصلنا في هذا البحث، إلى أنّ هذه العادات قد تأثرت تأثرا كبيرا بالتغييرات التي أدخلت على الجانب الاجتماعي فالمستوى التعليمي، وجميع العمليات التنموية المختلفة سواء من مد طرقات ومؤسسات صحية وإدارية وغير ذلك عمل على تغيير هذه العادات من حيث نوعية المواد المتناولة وكيفية إعداد الطعام وتلك السلوكيات المرتبطة بالغذاء، ولا سيما ما حدث من عملية الانتشار الثقافي الناتج عن الاحتكاك بالثقافات الأجنبية، وثقافات المجتمعات المحلية المجاورة مثل ما تعلّق بالهجرات التعليمية سواء داخل القطر الجزائري أو خارجه، كالهجرات إلى جامع الزيتونة بتونس، وجامع الأزهر بمصر وغيرها من الدول الأخرى، وهجرات العمل سواء داخل الجزائر مثل العمل في الصحراء بالشركات البترولية وشركات المناجم في مختلف البقاع، كما هو الحال أيضا لهجرات العمل الكثيرة خارج الوطن كتونس والدول الأوروبية، و لا ننسى عملية الاتصال عن طريق وسائل الإعلام الذي فعّل عملية التغيير بسرعة فائقة، فالعالم اليوم أصبح قرية صغيرة، فهذا التأثر ناتج عن حركة العولمة، فكل هذا كان له دور تختلف فيه أهمية كل دور على الآخر في تغيير العادات الاجتماعية الغذائية.

أمّا تلك التغيّرات والتغييرات، التي طرأت على البيئة الجغرافية لم يكن لها مثل الدور الذي شكلته الجوانب المتعلّقة بالبيئة الاجتماعية، فالتغيرات في البيئة الطبيعية هي من العادة تكون بطيئة جدا أو لا تتغير، فقط عندما تكون بعض الكوارث الطبيعية من شأنها أن تغيّر بعض الجوانب الثقافية، مثل الجفاف الذي أصاب منطقة البحث فقد عمل على نقصان النباتات الرعوية، والأشجار البرية، مما

قلّص نشاط، الرعي وظهور تربية المواشي داخل الأكواخ، وهناك بعض التغييرات التي يقوم بها الإنسان في الجانب الجغرافي مثل ما تعلّق بزراعة المساحات الواسعة من هذه الصحراء بواسطة زراعة موسمية أو دائمة كغراسة النخيل المسقي وزراعة العديد من الخضروات التي أدخلت جبرا في تغيير العادات الاجتماعية الغذائية لمجتمع البحث.

كما أننا لا ننسى أن ارتفاع مستوى الدخل كان له تأثير معتبر في هذه العادات، فلدى مجتمع البحث تحسّنت المعيشة مقارنة مع ما كانت علية منذ زمن قريب بدرجة ملفتة للانتباه، فأصبح تناول اللحوم بكثرة مقارنة مما كان عليه المجتمع في السابق، كما ارتفعت درجة استهلاك الفواكه والسلطات، وظهرت المشروبات الصناعية، وغير ذلك من الأغذية التكميلية باعتقاد مجتمع البحث، لأنه في السابق كانوا يركزون على القمح والزيت أو السمن، والملح حيث يرون أن هذه المواد أساسية مع التمر، والباقي يعتبر مكملا ليس إلاّ، ولا يزال هذا الاعتقاد موجودا عند الكثير من أفراد مجتمع البحث إلى اليوم، ولكن رغم اعتقادهم بذلك إلاّ أنهم يستهلكون أغلب أو كل المواد التي تباع عندهم، ووصل الحد مؤخرا إلى اقتناء الفواكه الباهظة الثمن مقارنة بالعادية، ففي المحلات التجارية المتواجدة في منطقة مجتمع البحث، أصبحت تعرض الفواكه المستوردة مثل الموز، والمانجو، والكيوي، والتفاح الممتاز، وغير ذلك، حتّى أنّ الفواكه المعروضة المنتجة محليا أو في مناطق أخرى من الوطن أصبحوا يحبّذون النوعية الممتازة، ليس الفواكه فحسب بل كل المواد الأخرى إمّا تكون من النوعية المتوسطة أو الرفيعة، فمفردات مجتمع البحث تحسنت ظروفهم المعيشية بشكل كبير جدا مقارنة بما كانت عليه في الماضي حتّى الماضي القريب.

ومن خلال هذا نستنتج أن المجتمع قد غيّر من عاداته الاجتماعية الغذائية من البساطة إلى التعقيد وكان للبيئة وأنماطها المختلفة دور في هذا التغيير، ونستطيع القول بأنّ هذا الأمر يتوافق مع فكرة التكيّف التي نادى بها أصحاب المدخل الأيكولوجي للثقافة، كما أنّ هذا التغيير يتوافق مع النظرية الخطية للتغير الاجتماعي التي تفيد بأنّ المجتمعات البشرية تسير في طريق التحضر من البسيط إلى المعقد، ويتوافق هذا التغيير أيضا مع النظرية التطورية، والنظرية الانتشارية في تفسير الثقافة، ومن

هنا نستنتج أمرا هاما بأنّ التغيير في العادات الاجتماعية الغذائية أمر معقد للغاية، لأن الغذاء تمتزج معه كل العناصر الثقافية المشكلة لهوية المجتمع.

وفي الأخير يمكن أن أن نطرح تساؤلا لبحث آخر يتعلّق بالغذاء وعاداته مفاده: هل أن هذا التغيير في العادات الاجتماعية الغذائية يتوافق مع التغذية الصحية أم لا؟. وهل هو ملائم لطبيعة البيئة التي يعيش فيها هذا المجتمع؟.

نتائج البحث

تعتبر خطوة إبراز النتائج هامة جدا في البحث العلمي، فمن خلالها نتعرّف على ما وصل إليه الباحث من خلال الجهود العلمية المرتبطة بالجانب النظري والميداني أيضا، ولكن يجب أن يكون عرض هذه النتائج بطريقة علمية، من خلال تلك الدراسات المشابهة ومقارنتها بنتائج البحث، وحتّى تكتمل هذه الخطوة يجب الإشارة إلى تلك النظريات العلمية المعروضة، ومناقشة مطابقتها للنتائج بصفة كلّية أو تتنافى معها، أو تشترك معها في جزئيات معيّنة، ثمّ بعد ذلك مناقشة النتائج مع الفرضيات المطروحة والإجابة النهائية على التساؤلات سواء الفرعية، أو سؤال الإشكالية في حدّ ذاته.

أمّا ما تعلّق بنتاج هذا البحث فكانت كالآتي:

خلصنا مما تقدم إلى أنّ جغرافية وادي سوف هي صحراوية، فالرمال تعلو القشرة الأرضية في جل الأماكن، وهذه الرمال لها صفة التطاير كلّما هبت الرياح، لأن حصيّاتها صغيرة، مثل العديد من الصحاري الأخرى كالصحراء الليبية، وصحراء العرق الغربي الكبير في التي تقع في الجنوب الغربي من الجزائر، وهذه الرياح التي تهب في صحراء وادي سوف تمتاز بالجفاف في معظمها، ما عدا التي تأتي من جهة الشرق، فقد تحمل بعض الرطوبة لقرب البحر الأبيض المتوسط في "قابس" التونسية الذي لا يبعد عنها كثيرا، أمّا الرياح التي تهب من الجنوب والغرب فهي جافة بامتياز، ولقد عرفنا أيضا أنّ الأمطار قليلة جدا، وأحيانا لا تنزل طوال السنة، وإذا نزلت فهي عبارة على زخات يمكن أن تكون قوية فتضر بالحياة الاجتماعية وممتلكات المجتمع من ماشية، والحيوانات الأخرى، وفيما يتعلّق بالحرارة فالجو حار صيفا، وبارد شتاءا، أمّا فصلي الربيع والخريف فالجو لطيفا نوعا ما.

وترقد وادي سوف على خزان كبير جدا من المياه الجوفية، يتوزع على عدّة طبقات، فالطبقة الأولى منه استغلت قديما في الحياة الاجتماعية مثل الشرب، لأنها قريبة من السطح وأحيانا تكون قريبة جدا، مثل ما هو موجود في إحدى قرى مجتمع البحث ويطلق عليها "الخبنة الصفراء" حيث المياه قريبة جدا من السطح تصل حدّ المتر ونصف، وتمتاز بالعذوبة مما سهل على السكان الحياة فيها، وقد ساهم قرب المياه في هذه الصحراء حسب ما وصلنا إليه من خلال هذا البحث في استقرار السكان حيث

سهل عليهم غراسة النخيل التي كانت ولا تزال مصدر رزق لأهالي المنطقة، وبحكم أن أهل المنطقة سواء في القديم أو في الوقت الحالي يتنقلون باستمرار، فإنّ غراسة النخيل كانت فوق المياه الجوفية مباشرة، أي لا تسقى بطريقة الري، وإذا لم يكن ذلك فإن سقي النخيل يكون يوميا لأنّ الرمال تمتاز بالنفوذية الكبيرة، فهي لا تحتفظ بالماء مدة طويلة مهما سقيتها.

أمّا من ناحية النباتات والحيوانات، فإن طبيعتها مميزة، فالنباتات البرية قليلة، وشوكية الأوراق لتقليل عملية النتح بسبب الحرارة، أمّا النباتات المزروعة من طرف الإنسان فهي متنوعة ولا يهم إن كانت أوراقها غير شوكيه لأنها تسقى يوميا، وأهم نبات في صحراء وادي سوف هو النخلة التي عليها تربى السوفي وتغذى منها، وربط حياته بها بدرجة كبيرة جدا، فكان يصنع منها المسكن، وكل أدوات الفلاحة والتخزين وغير ذلك، وكانت هي سبب توطينه في تجمعات سكانية، أمّا حيوانات هذه الصحراء فهي متنوعة منها ما هو أليف كالحمار والأغنام والدجاج، والجمال التي تعلق بها السّوفي بدرجة كبيرة، لأنها هي التي تتأقلم مع صعوبة المناخ، وتمده بالغذاء كالحليب واللحم، واتخذ اللباس من أوبارها، وتوجد حيوانات برية أخرى، منها ما هو ضار كالأفاعي والعقارب، ومنها ما هو غير ذلك كالغزال والفنك الذي يعيش في صحراء العرق الشرقي الكبير، كما تعيش في المنطقة عدّة حشرات كالخنافس والبعوض وغير ذلك.

وعلى العموم نستطيع القول بأن منطقة وادي سوف صحراوية، العيش فيها ليس بالسهل نظرا لقسوة مناخها وصعوبة أرضها المتحركة باستمرار.

وفيما يتعلّق بطبيعة الأغذية التي يتناولها مجتمع البحث فكانت تنقسم إلى نباتية وحيوانية، فهم يركزون على النشويات والبروتينات، فيوميا يؤكل الكسكسي والخبز المصنوع من القمح أو الفرينة أو السميد، ويمكن أن يكون من الشعير، وفي القديم لم يكن إلاّ القمح والشعير، وهذه أغذية فيها نسبة عالية من النشويات، أمّا البروتينات فهي ذات مصدر حيواني، حيث تمثلت في تناول حليب الماعز والإبل، سواء كان طازجا أو لبنا منزوع الزبدة، أو أجبانا مشتقة من الحليب، أو دهونا تؤكل مع الطعام أو تستخدم للعلاج والتقوية، بخلاف ما وجدناه في الدراسات المشابهة، فإن المصريين يركزون على البروتينات النباتية التي توجد في الفول، والحبوب بصفة عامة، أما مجتمع البحث نجدهم

يتناولون الغذاء ذا المصدر الحيواني يوميا تقريبا، سواء حليب أو بيض أو لحوم حيوانات أليفة، أو برية كـ"الشرشمان" و"الورن"، و"الجرد" و"الغزال" وغيرها من الحيوانات، والبروتين الحيواني يعتبر أفضل للجسم من النباتي بحسب ما رأينا عند علماء التغذية، كما أنّ النشويات تمنح طاقة للجسم من خلال إمداده بالسعرات الحرارية التي يحتاجها الجسم للنشاط، فمجتمع البحث يتناول النشويات يوميا، وكذا البروتينات الحيوانية، أمّا في مصر فيتناول النشويات يوميا من خلال تناولهم للخبز المحلّي، والبروتينات النباتية في معظمها، ونادرا ما يتناولون اللحوم والألبان، فالحليب يصل تناوله لكوب واحد فقط في الأسبوع عند أغلب شرائح المجتمع، أمّا اللحوم فتكاد تكون معدومة بحسب ما رأينا في الدراسات التي عرضناها، وفيما يتعلّق بالسكريات وجدنا بأن المجتمع يتناول التمر يوميا على مدار السنة، وهي تعمل على منح الجسم طاقة كبيرة مثل ما هو موجود في الجنوب التونسي وبالضبط في منطقة الجريد فهم يركزون بكثرة على تناول التمر لأنّها منطقة منتجة له، ولم يكتف كلا من مجتمع البحث وسكان الجريد التونسي بتناول السكريات المتمثلة في التمر فقط بل هناك ما يسمّى باللاقمي الذي هو عصير النخيل، فهو يحتوي على كمية هائلة من السكريات، إلاّ أنّ هذا المشروب غير متوفر دائما.

وفيما يتعلق بالفواكه فهي قليلة، عدا في الصيف عندما تكثر أنواع البطيخ ويستقر البدو حذو الغيطان، فأغلب السكان كانوا رحل في القديم، أمّا في المجتمع المصري فلا يُتناول الفواكه حتى في الصيف لأنها باهظة الثمن، فبيعها يدر بالفائدة الكبيرة لرب الأسرة، وكما لاحظنا بأنّهم ينشئون أطفالهم على عدم تناولها من خلال تبيان أنّها مضرة للجسم كما لاحظنا من خلال هذا البحث، ولكن في مجتمع البحث بعكس ذلك فهم ينصحون الأطفال بتناولها عندما تكون متوفرة خصوصا في فصل الصيف.

وإلى هذا الحد نستطيع القول بأنّ الحياة الاجتماعية في القديم قد ارتبطت بالبيئة الجغرافية بشكل كبير جدا، فالغذاء كان مصدره الأرض الرملية التي يعيش فيها مجتمع البحث، وهذا ما وصل إليه "هاولي"

في مبادئ التنظيم الأيكولوجي بحيث اعتبر أنّ "الارتباط بالبيئة كمصدر وحيد للعيش ... والقدرة اللاّ محدودة على التوافق والتكيّف للبيئة، طبيعية كانت أو اجتماعية"[1].

فقد تكيّف المجتمع مع بيئته فيما يتعلّق بالغذاء فهي المصدر الأهم في إمداده بالمواد الغذائية في أغلبها، عدا مادة القمح فكانت تجلب من طرف التجار . كما رأينا في طيات هذا البحث . ، أو يتم جلبها عند رحلة الصيف للمناطق الشمالية، فحينها يتبادلون التمر مع القمح والشعير، كما يفعل بدو الأرباع بحسب دراسة محمد السويدي التي تكلمنا عنها في طيات هذا البحث.

. لقد عرفنا أنه توجد بصحراء وادي سوف مجموعة من النباتات والحيوانات بأنواع مختلفة، فاستغلّها مجتمع الدراسة في حياته اليومية كاللباس والأدوات التكنولوجية، والمسكن والمستودع، كما استغلها في غذائه سواء كمواد تؤكل أو وسائل تساهم في تحضير الغذاء وتناوله، ولكن ما وصلنا إليه من خلال هذا البحث أنّ المجتمع استطاع أن يتكيّف غذائيا مع ما تنتجه بيئته، سواء من غذاء نباتي أو حيواني، فهو استغل جل النباتات والحيوانات في العادات الاجتماعية الغذائية، وترك ما حرّمه الدين الإسلامي أو نصح بالابتعاد عن تناوله، ولكن ما وجدناه ملفتا للانتباه هو أنّ مجتمع البحث جعل من بعض ما تجود به بيئته من خيرات غذائية كمواد أساسية لها أهمية عالية في منح الطاقة والقوة والصحة للجسم، ومواد أخرى كانت بالنسبة إليهم ثانوية تقل أهميتها من منتج بيئي إلى آخر.

وعلى العموم فإنّ أهم منتج لاحظناه وله أهمية بالغة هو التمر والمنتجات الحيوانية، وبالضبط الحليب واللحم، فمن خلال تحليلنا للأمثال والحكم الشعبية لأهل المنطقة وجدنا تكرارات النخل والجمل هما الشائعان مقارنة بالباقي، ولذا نستطيع القول بأن التمر والجمل لهما أهمية بالغة في حياة المجتمع لجملة من الأسباب التي ذكرناها سابقا، وما دام المجتمع ركز عليهما في ثقافته الشفهية فحتما أنّ مكانتهما الغذائية لها دور في ذلك الأمر، فهم يتناولون التمر يوميا كما يتناولون المنتج الحيواني يوميا كذلك، ولا يكفي هذا بل جعل منهما مكانة عالية في نفوس المجتمع بصفة عامة، فالجوع عندهم هو عدم وجود التمر، فوجوده يكفي لسد الرمق مهما كانت نوعية التمر الموجود فقد وردت في الثقافة

[1] السيّد عبد العاطي السيّد: مرجع سابق، ص 219.

الشفهية عدّة أمثال تتعلّق بهذه المادّة الغذائية منها: "الدَّارْ لِمَافِيهَاشْ التمر أَهْلْهَا جِيَّاعْ"*، "الرسول عويله التمر"**، "تْمِيرَهْ وْحْلَيْبَهْ وْدْشِيشَهْ تِبْرِيدَهْ"***، فكل هذا يدل على أهمية التمر في العادات الاجتماعية الغذائية لمجتمع البحث، ووصلنا أيضا إلى أنهم يصنعون منه أكلات أخرى كـ "الرفيس" ويستعمل في مشروب "الوزوازة"، ويستعمل أيضا في مرق أكلة الكسكسي من نوع "المسقى"، كما أنّهم ابتكروا له طرقا للتصبير، لأنهم يتناولونه طوال السنة، وهذه الطرق تمثلت في "الخابية"، و"لبطانة" وجعلوا أيضا أهمية لنوع من التمور تختلف عن الأخر، فـ "الغرس" يأتي في المقدمة، حيث ضربوا به الأمثال الشعبية، وتأتي "النهوش" في درجة ثانية من حيث الفائدة الغذائية، أمّا "دقلة نور" فهي الأشيع من حيث غراستها ولكن أهميتها غير غذائية، فهي للبيع فقط، وبالتالي فلا هم يأكلونها ولا يخزنونها، باعتقاد منهم أنها غير مفيدة مقارنة بباقي الأنواع الأخرى، فالغرس عندهم هو الأهم.

أمّا الإبل، فحليبها ولحمها مادّتان غذائيتان مفيدتان عند أهل المنطقة، ففي السابق كان اللحم المتوفر هو لحم الجمل فقط، لأنّ الماشية الأخرى كانت نادرة جدا، فهم يحرصون على إشراك مجموعة من العائلات في ذبح بعير، ويعتقدون بأنّه مفيد جدا لنمو الجسم، ففي الأعراس يمكن أن ينحر بعيرا، وفي القديم كان ضروريا نحره لأنّ الغنم كانت غير موجودة عندهم، كما رأينا في طيات هذا البحث، ولا يكفي منه تناول اللحم فقط، فهم يجعلون من شحم ذروته دسما للأكلات الغذائية الأخرى، سواء في الحالة العادية أو عند فصل الشتاء متى يتأثرون بالبرد في حالة الإصابة بالسعال والبرد الداخلي للجسم، ووصل بهم الأمر أنهم يتخذون من بول البعير دواء لشفاء بعض الأمراض كالأمراض

---

* لمافيهاش يقصد بها لايوجد فيها، ويعني هذا المثل أنّ التمر لايمكن أن تخلو منه الدار، فهو يسد الرمق عند الجوع، وأيضا يقصد من خلاله أنه مهما تناول الفرد من غذاء متكون من مواد أخرى فهذا لا يكفي، فالتمر ضروري تناوله يوميا، وكما لاحظنا المثل الآخر "عطش الشتاء وجوع الخريف يطمّح المرا ويهرب الوصيف" ويقصد من هذا أن الخريف يعني التمر لأنه يبدأ في النضج في هذا الفصل، فإذا لا يوجد التمر فالزوجة تهرب من زوجها والخادم يفر أيضا، وهذا دليل على أهمية التمر عند مجتمع البحث وسكان وادي سوف عموما.

** عويله ويقصد بها الزاد الذي معه عند السفر، ويبدو أن هذا المثل له نزعة دينية من خلال الاقتداء بالسنّة النبوية.وبالتالي فهم يقدسون التمر من خلال تعاليم الدين

*** تميرة يقصد بها قليل من التمر، حليبة تعني قليل من الحليب، دشيشة هي أكلة شعبية سائدة ولقد شرحناها في البحث، تبريدة تعني تطفيء حرارة سكر التمر، ويعني المثل أن الفطور وهو الغذاء لدى مجتمع البحث يكفي تناول تمرات معدودات مع القليل من الحليب و الدشيشة ما هي إلاّ لداعي تخفيف حرارة التمر ليس إلاّ.

المصاحبة للنّفاس، أمّا حليب النوق فله أهمية كبيرة بحسب اعتقادهم، فهي مغذية وتقوي العظام وتشفي من الأمراض، وعلى أساس هذا كان للحم الجمل وحليبه أهمية كبيرة.

أمّا ما يتعلق بالخضروات، فهم كانوا يهتمون بالبصل أكثر من غيره، باعتقادهم أنه مغذّ، ويساهم في الشفاء من الأمراض، كما هو الحال في الدراسة المصرية التي أجريت في "برك الخيام" بمحافظة الجيزة، حيث يتناولونه لوحده مع الخبز كوجبة غذائية، ويعتقد مجتمع البحث هناك بأنّه يزيل الدود من البطن، وهذا وغيره يتوافق مع الدراسات التاريخية المتعلّقة بالشعوب القديمة مثل الفراعنة الذين اتخذوا من البصل رمزا لعيد شم النسيم، ويداوون به مرضاهم، وقيل أنّ من بنوا الأهرامات كان غذاؤهم البصل، وفعلا أنّ علماء التغذية ينصحون بتناوله باستمرار لما له من فوائد جمة.

أمّا الكسكسي فله أهمية كبيرة أيضا، إلاّ أنّ مادّته الأساسية كانت مستوردة من المناطق الأخرى ويتعلّق الأمر بالقمح، إلاّ أنّ باقي مواده الأخرى فهي من إنتاج البيئة المحلية.

ومن خلال هذا يتبين أن مجتمع البحث قد استخدم ما تنتجه بيئته الطبيعية في عاداته الاجتماعية الغذائية ولكن بحسب أهمية كل منتج.

. عندما استقر السكان في منطقة مجتمع البحث، وأخذت الأنشطة الاقتصادية تتنوع من عمل بالشركات الأجنبية في قطاع المحروقات والمناجم، وظهور التجارة ورحلاتها إلى تونس وليبيا والمغرب وباقي المناطق الأخرى من الجزائر، وكذلك هجرات العمل إلى أوربا، وهجرات التعليم سواء داخل الجزائر أو خارجها، كان كل هذا سببا في تغيير بعض ملامح العادات الاجتماعية الغذائية اليومية من حيث النوعية والكيفية، فهذا الاتصال عمل على تعود المجتمع على أطباق جديدة لم تكن معروفة عندهم، فظهرت جملة العجائن المختلفة، زيادة على انتشار تناول الحبوب، كما ظهر الأرز، وأصبح تناول السلطة والفاكهة وهكذا، حيث تغيّر تناول الخضروات بشاكلات مختلفة، مثل "الشكشوكة" التي تكلمنا عنها سابقا، كما وقع شبه تغيير لأهمية الغداء مقارنة بالعشاء، حيث أصبحوا يميلون للأكلات الخفيفة، فالكسكسي أصبح اليوم يحبّذ في وجبة الغذاء بدل العشاء عند العديد من العائلات، مثل ما وقع للتوارق عندما أرسلوا أبناءهم للداخليات التربوية لمزاولة دراستهم هناك، فعند عودتهم . كما يقول

محمد السويدي . تغيّرت بعض سلوكياتهم من خلال ما عايشوه من اختلاط في المدارس والداخليات التي كانوا يسكنوها . كما تعرضنا لذلك في الفصل الخامس . .

وقد لاحظنا أن الاتصال والذهاب لسوق المدينة عمل على اكتشاف مجموعة من المواد الغذائية، شيئا فشيئا أدخلت ضمن العادات الاجتماعية الغذائية لمجتمع البحث المدروس.

ومن خلال هذا فإنّ الاتصال بالبيئات الخارجية كان عاملا مهما في تغيير نوعية الأغذية المتعود عليها، كما وقع تغيير من حيث الكيفية، فالأكل أصبح بالملاعق، وعلى الطاولات، وعند البعض من يملك طاولة وكراسي خاصة بالأكل، وتغيّرت أهمية الوجبات، ففطور الصباح أصبح مهما، والغداء أصبح مهما أكثر من العشاء وهكذا.

. إنّ ما إستخلصناه من هذا البحث يتمثل في مجموعة من التغيرات التابعة للعادات الاجتماعية الغذائية جرّاء البيئة الداخلية من الناحيتين الطبيعية والاجتماعية، وجملة التغييرات التي طرأت على ذلك، كانت بتأثير البيئة الخارجية.

بعد الاستقلال بنيت بعض المدارس التي عملت على تعليم الأطفال، مما سرّع عملية التغيير الثقافي في شتّى المجالات الحياتية، وهذا بدوره عمل على تغيير بعض العادات الاجتماعية الغذائية لدى النشىء الصاعد من خلال الأهداف المنوطة بالتعليم، فغيّر الفرد من سلوكه الغذائي من حيث نوعية المواد الغذائية المتناولة التي تعلمها من منهل العلم، كما غيّر من بعض السلوكيات المتعلقة بالعادات الاجتماعية الغذائية كأسباب النظافة وكيفية تناول الأطعمة، وأهمية تنويعها، مع العلم أنّ كل العائلات ترسل أبناءها للمدرسة، خاصة في الآونة الأخيرة، بخلاف ما كان في البداية بحيث كانت المدرسة مخصصة للأولاد الذكور دون الإناث، إلاّ عند القليل من يرسل البنات إليها، وحتّى تعليم الذكور كان مقتصرا على عائلات تقطن في القرى الكبيرة الحجم دون الصغيرة فالمدارس لم تنجز بها، ولكن اليوم في كل القرى والمداشر وجميع الأحياء توجد مدرسة ابتدائية على الأقل، فكلا الجنسين يزاول التعليم في كل مراحله حتّى بالجامعة، فقد أصبحت العائلات ترسل بناتها إليها إذا تحصّلت البنت على شهادة الباكالوريا، فالتعليم عمل على تثقيف الأطفال الذين هم اليوم كبار وأرباب عائلات

تجاه العادات الاجتماعية الغذائية، فقد تغيرت بذلك هذه العادات من حيث النوعية المتناولة من الغذاء، ومن حيث كيفية التناول من جراء إدراك أهمية تنويع المواد الغذائية التي من شأنها العمل على تقوية البدن والذاكرة وغير ذلك، مثل ما تغيّر عندهم في وجبة الإفطار فقد أصبحت النسبة الشائعة تتناول الحليب بسبب تعوّدهم عليه في المدرسة الذي كان يقدّم لهم في الصباح، بخلاف ما كان يوجد عندهم في القديم وحتّى العقود السابقة بحيث كان الشاي أساسيا والحليب إن وجد فلا بأس من ذلك. وقد حدث تغيير في أهمية الوجبات فبدل ما كان العشاء هو الوجبة الأساسية تغير الأمر وأصبح الغداء هو الأهم، من جراء التعليم الذي ربّاهم على تخفيف وجبة العشاء بدل ما كانت عبارة عن كسكسي، وهذا بالوعي الذي تربوا عليه للتخفيف على البطن عند النوم.

وقد حدث تحوّل كبير في جانب المهن، فقد انتقل المواطن من الفلاحة والرعي عند الأغلبية الساحقة، إلى مهن جديدة مثل التدريس، والتجارة، وأشغال البناء وغير ذلك، وهذا الأمر عمل على تغيير العادات الاجتماعية الغذائية من خلال المواد الغذائية التي تباع في المنطقة والتي لم تكن معهودة سابقا، والتي جلبها التجار للمنطقة، فالمشروبات لم يعهدها المجتمع إلا بعد الاستقلال، فلم يكونوا يعرفونها، أمّا اليوم فالمحلات التجارية تعرضها بمختلف الأنواع، والسكان يبتاعونها بكثرة، كما كان لتنوع المهن دور في هذا الغيير، فغذاء البنّاء ليس هو غذاء المدرِّس وهكذا.

التغيير الذي حدث في التنمية المحلية كان له دور كبير في تغيير العادات الاجتماعية الغذائية، فربط المنطقة بشبكة الكهرباء عمل على تحوّل كبير في هذا المجال، فأصبح في البيت الثلاجة التي ألغت تماما "الْقِرْبَهْ" التي كان يبرّد فيها الماء، و"الوزوازة"، وغيرت الثلاجة من عادات تصبير المواد الغذائية المختلفة، فبدل ما كانت تصبر بطرق تقليدية محضة فاليوم أصبحت تصبّر في وسائل التبريد الكهربائية سواء الثلاّجة أو المجمدة أو حتّى غرف التبريد الحديثة، ففي السابق . كما لاحظنا. كانت نوعية دقلة نور لا تصبّر ولم يهتد المجتمع إلى طريقة لتصبيرها، واليوم أصبح المجتمع يتناولها حتّى في فصل الصيف عن طريق وضعها في المجمِّدة التي لا يخلو تقريبا بيت من وجودها اليوم.

كما عملت الطرقات الداخلية على تسهيل التنقل بين القرى الصغيرة التي كانت معزولة في العقود الماضية، حيث كان التنقل يتم مشيا على الأقدام، أو عن طريق ركوب الدواب، وهذا النوع من التنقل

عمل على تنشيط عملية التسوّق من المحلات التجارية المتواجدة في القريتين الأساسيتين مقر البلدية ووادي العلندة الشمالي، وهذا التسوق يخص المواد الغذائية ليس إلاّ. كما كان للطرق في غرب أسوان بمصر دور في تغيير طبيعة العادات الاجتماعية الغذائية من خلال اكتشاف بعض المواد الجديدة في الأسواق المتواجدة في المدينة، ومثل ما حدث في قرى المملكة العربية السعودية حيث مال المجتمع لتناول المواد الجاهزة المتواجدة في المحلات التجارية، فحتّى الخبز أصبح يُقتنى من المخابز العامة.

أمّا التغيير الذي ظهر في البيئة الجغرافية بفعل الإنسان فقد عمل على تغيير العادات الغذائية، من خلال ظهور بعض المزروعات غير المعهودة من قبل كالبطاطا والكثير من الخضروات الأخرى، وأكبر عامل الذي سهّل عملية انتشار الفلاحة والزراعة بالمساحات الواسعة هو عملية الدعم الفلاحي، حيث سهّل على الفلاحين عملية الري فظهرت المزارع الحديثة بدل غيطان النخيل التي تتميز بقلة عدد نخيلها، أمّا المزارع الحديثة فنجد الفرد الواحد يملك مئات النخيل بدل ما كان يملك العشرات منه فقط، وهذا الدعم هو الذي جلب العديد من الفئات الشبانية لممارسة العمل الفلاحي بالموازاة مع الأعمال الأخرى التي يشغلها، فيمكن أن يكون التدريس أو التجارة أو الأشغال الحرّة، فهذا ما سهل بل عمل على تغيير العديد من الوجبات الغذائية بحيث شغلت البطاطا القدر المهم، فهي اليوم توجد في المطبخ طوال السنة بدل ما كانت عليه في الماضي غير معروفة تماما حتّى وقت قريب، كما أن الفاكهة وتناولها كان من جرّاء انتشار الفلاحة بالقدر الكبير، مع أنّ العمل بالفلاحة رفع من مستوى القدرة الشرائية للسكان مما أدى لتناول الفاكهة باستمرار.

وهذه النتائج المتوصل إليها في هذه النقطة تتوافق لحد كبير مع ما وصلت إليه النظرية التطورية التي تعتبر أنّ الثقافة تتغير تبعا لمؤشرات داخلية.

وإذا رجعنا إلى نظرية الإنتشار الثقافي فإن العادات الاجتماعية الغذائية في مجتمع البحث قد تغيّرت بفعل الاحتكاك بالبيئات الخارجية، كما رأينا من خلال هذا البحث كيف عمل التعليم خارج المنطقة على تغيير هذه العادات، مثل ما عمل الطريق الوطني الذي يمر بالمنطقة على تسهيل عملية الاتصال بالمدينة القريبة، حيث يتسوق الناس من سوق المدينة باستمرار فاكتشفوا جملة من المواد الغذائية.

كما كان لوسائل الاتصال دور في هذا المجال أيضا، فالهاتف الذي يملكه كل فرد، والتلفاز مع الهوائيات الموجودة لدى كل العائلات، عملت على التأثر بالثقافات الأخرى من جميع بقاع العالم، سوى عن طريق الإشهار أو الأفلام المعروضة التي أدخلت موادا جديدة وطرق تناول الغذاء بكيفية جديدة، أو عن طريق حصص الطبخ المقدمة، وهذا ما أدّى إلى ظهور كيفيات لم تكن معروفة في الماضي مثل الكعك المنزلي، والبسكويت وبعض الحلويات التي اعتادت النساء عليها في كل مناسبة، خاصة في عيد الفطر، ومناسبات النجاح في الدراسة، وفي الأعراس، فبدل ما كان الفول في الأعياد أصبح الكعك وغيره من الحلويات المصنوعة منزليا هو الشائع.

والعمل بالشركات الأجنبية أيضا عمل على إدخال كيفيات جديدة من جراء الاحتكاك بالآخرين، كما أنّ التجارة والسياحة كان لها دور مهم في هذا المجال.

وفي الأخير نستطيع القول بأن أنماط البيئة سواء الطبيعية والجغرافية أو البيئة الاجتماعية والتغيرات التي طرأت عليهما قد عملت على تغيير العادات الاجتماعية الغذائية بدرجة كبيرة، عدا بعض العادات المتعلقة بتعاليم الدين الإسلامي كأضحية العيد وبعض المناسبات الأخرى، مثل ما تعلّق بالأعياد العرفية التي كان للمناخ دور فيها، كما ثبت نوعا ما المجتمع المبحوث على بعض الأكلات القديمة خاصّة التي تتأقلم مع الطقس مثل الأكلات الباردة في فصل الصيف.

ولكن نستطيع القول أنّ التغيرات التي ظهرت في البيئة الاجتماعية سواء الداخلية أو الخارجية كان تأثيرها أعمق من تغيرات البيئة الطبيعية، وهذا ما أقرته نظرية المدخل الأيكولوجي للثقافة.

قائمة المصادر والمراجع

1 . المراجع باللغة العربية

1. ابراهيم بن محمد الساسي العوامر: **الصروف في تاريخ الصحراء و سوف**، تونس: الدار التونسية للنشر، 1977.

2 . ابراهيم ناصر: **علم الاجتماع التربوي**، ط 2، بيروت، لبنان: دار الجيل، مكتبة الرائد العلمية، 1996 .

3 . أبو سالم العياشي: **رحلة العياشي**، (ماء الموائد)، جزء 1، طبعة الرباط: 1977.

4 . أحمد أوزي: **تحليل المضمون ومنهجية البحث**، الرباط، المغرب: الشركة المغربية للطباعة والنشر، 1993 .

5 . أحمد بدر: **أصول البحث العلمي**، ط 1، المكتبة الأكاديمية، 1996

6 . أحمد زايد واعتماد علام: **التغير الاجتماعي**، ط2، مصر: مكتبة الأنجلو المصرية، 2000.

7 . أحمد عبد الكريم سلامة: **قانون حماية البيئة**، ط 1، الرياض، المملكة العربية السعودية: النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود، 1997.

8 . أحمد علي سليمان : **سلوك المستهلك بين النظرية والتطبيق** ،الرياض ،المملكة العربية السعودية: مركز البحوث ،2000.

9 . إحسان محمد الحسن: **الأسس العلمية لمناهج البحث الاجتماعي**، بيروت، لبنان: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1982 .

10 . السيد عبد العاطي السيد: **الأيكولوجيا الاجتماعية**، مدخل لدراسة الانسان والبيئة والمجتمع، الأزاريطة، مصر: دار المعرفة الجامعية، 1997.

11 . أيمن سليمان مزاهرة و علي فالح الشوابكة: **البيئة والمجتمع**، عمان، الأردن: دار الشروق للنشر والتوزيع، 2003.

12 . بلقاسم سلاطنية، وحسّان الجيلاني: **أسس المناهج الاجتماعية**، ط1، القاهرة، مصر: دار الفجر للنشر والتوزيع، 2012.

13 . بلقاسم سلاطنية، وحسان الجيلاني: **منهجية العلوم الاجتماعية**، ط 1، عين مليلة، الجزائر، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، 2004.

14 . بن علي محمد الصالح: **الموسوعة السّوفية للأمثال والحكم الشعبية**، ط 1،الوادي، الجزائر: مطبعة سخري، 2012.

15 . بن سالم بن الطيب بالهادف: **سوف**، تاريخ وثقافة، ط 1، الوادي، الجزائر: مطبعة الوليد، 2007.

16 . ثريا التجاني: **دراسة اجتماعية لغوية للقصة الشعبية في منطقة الجنوب الجزائري**، وادي سوف نموذجا، الجزائر: دار هومة، 1998 .

17 . جان جاك شوفاليه: **تاريخ الفكر السياسي**، ترجمة: محمد عرب صاصيلا، ط 4، بيروت، لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1998.

18 . حليس يوسف: **الموسوعة النباتية لمنطقة سوف**، ط 1، الوادي، الجزائر: دار الوليد، 2007.

19 . حسان الجيلاني: **من التراث الغنائي بوادي سوف**، باتنة، الجزائر: دار الشهاب.

20 . حسان الجيلاني: **قصّة العودة**، الجزء الأوّل، بوزريعة، الجزائر: دار هومة، 2011.

21 . حسنين أحمد محمد كنعان علي أحمد: رحلة في صحراء ليبيا، 1923، الجزء الأوّل: مطبعة مصر: شركة مساهمة مصرية، بدون سنة.

22 . حسين عبد الحميد أحمد رشوان: **البيئة والمجتمع**، دراسة في علم إجتماع البيئة، الاسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، 2006.

23 . خالد حامد، **مدخل إلى علم الاجتماع**، ط2، المحمدية، الجزائر: جسور للنشر والتوزيع، 2012.

24 . دلال ملحس استيتية: **التغير الاجتماعي والثقافي**، ط 1، الأردن: دار وائل، 2004.

25 . دليس لامبولاي : **200 وصفة طبيعية** ، ترجمة فادية عيدوش ، بيروت ، لبنان : دار الفراشة للطباعة والنشر ، 2001.

26 . راتب السعود: **الإنسان والبيئة**، عمان، الأردن: دار الحامد للنشر والتوزيع، 2004.

27 . زكرياء طاحون: **أخلاقيات البيئة وحماقات الحروب**، بدون طبعة، مصر: وكالة الأهرام والتوزيع، 2002.

28 . عاطف وصفي : **الأنثروبولوجيا الثقافية**، بيروت ،لبنان: دار النهضة العربية ، 1971.

29 . عالية حبيب وآخرون: **علم الاجتماع الريفي**، ط1، عمان، الأردن: دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، 2009.

30 . عبد المجيد لبصير: **موسوعة علم الاجتماع**، ط 1، عين مليلة، الجزائر: دار الهدى، 2010.

31 . عبد المجيد عمر النجار: **قضايا البيئة من منظور إسلامي**، الدوحة، قطر: مركز البحوث والدراسات، 1999.

32 . عمار عوادي: **الهجرة من وادي سوف وأثرها على حياة السكان ، 185'ـ 1962**، ط 1، الجزائر: دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، 2013.

33 . عوادي عمار: **كتابات ووثائق من تاريخ وادي سوف**، ط 1، الجزائر: 2011.

34 . محمد أحمد بيومي: **تاريخ الفكر الاجتماعي**، الأزاريطة، مصر: دار المعرفة الجامعية، 2003.

35 . محمد الجوهري: **الأنثروبولوجيا** . أسس نظرية وتطبيقات علمية، الأزاريطة، مصر: دار المعرفة الجامعية، 1997.

36 . محمد الجوهري وآخرون: **علم إجتماع البيئة**،ط1، عمان، الأردن: دار المسيرة، 2010.

37 . محمد السويدي: **مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري**، تحليل سوسيولوجي لأهم مظاهر التغيير في المجتمع الجزائري المعاصر، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1990.

38 . محمد السيد غلاب : **البيئة والمجتمع** ، ط 7 ، القاهرة : مكتبة الإشعاع للطباعة والنشر والتوزيع ، 1997.

39 . محمد الهادي لعروق و سمير بوريمة: **أطلس الجزائر و العالم**، عين مليلة، الجزائر: دار الهدى، 1998.

40 . محمد حسن الغامري: **مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1991.

41 . محمد عباس إبراهيم وآخرون: الأنثروبولوجيا "علم الإنسان"، الأزاريطة، مصر: دار المعرفة الجامعية، 2002.

42 . محمد نزار خوازم وآخرون: **تاريخ العلاج والدواء،الرياض**، المملكة العربية السعودية: دار المريخ، 1990.

43 . موريس أنجرس: **منهجية البحث العلمي في العلوم الانسانية**، ترجمة بوزيد صحراوي وآخرون: ط 2، الجزائر: دار القصبة، 2006 .

44 . نيقولا تيماشيف: **نظرية علم الاجتماع**، ترجمة: محمد عودة وآخرون، مصر: دار المعارف، 1972.

45 . صلاح الدين شروخ: **علم الاجتماع التربوي**، ب ط، عمان، الأردن: دار اليازوري، 2009.

46 . صلاح مصطفى الفوال: علم الاجتماع البدوي، الموسوعة العربية للعلوم والتنمية، القهرة، مصر: دار غريب، 2002.

47 . فتحي دردار: **البيئة في مواجهة التلوث**، طبعة منقحة، تيزو وزو، الجزائر: دار الأمل، 2003.

48 . فتحي محمد أبو عيانة: **دراسات في الجغرافيا البشرية**، ط 2، الأزاريطة، مصر: دار المعرفة الجامعية، 2001.

49 . فتيحة محمد ابراهيم وسلوى عبد الحميد الخطيب: **مدخل إلى دراسة الأنثروبولوجيا النفسية**، الرياض، المملكة العربية السعودية: دار المريخ، 1995 .

50 . فريد أبو زينة وآخرون: **مناهج البحث العلمي**، الكتاب الثالث، طرق البحث النوعي، عمان، الأردن: منشورات جامعة عمان العربية للدراسات العليا، 2005.

51 . فوزية دياب: **القيم والعادات الاجتماعية**، ط2، بيروت: دار النهضة العربية، 1980.

52 . يحي محمودي : **الأعشاب الطبية من الحديقة النبوية** ، البليدة ، الجزائر : قصر الكتاب ، 1990.

2 . المراجع باللغات الأجنبية

53 _ Ahmed Nadjah**: Le Souf de oasis**, Alger: Editionla maison de livres , 1971.

54 _ Andre Voisan : **Le Souf Manographie**, Paris, dunemonuscrit, 1985

55 _ Billy L.Turney and George Probb: **Research in Education**, U.S.A: : The Dryden Press In , 1973,

3 . المذكرات والرسائل الجامعية

56 . علي غنابزية : **مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن التاسع عشر**، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، 2000. 2001. مذكرة غير منشورة.

4 . المجلات والدوريات

57 . ابراهيم مياسي: **من تاريخ وادي سوف**، مجلة الثقافة (الجزائر): العدد113، 1996.

58 . أمينة حمزة الجندي: **ثقافة الطفل العربي**، مجلة ثقافة الطفل العربي، تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1992.

59 . بيزيد يوسف: **ماهية التراث الشعبي**، ملتقى الموروث الشعبي وقضايا الوطن، اصدارات الرابطة الولائية للفكر والإبداع بولاية الوادي، الوادي، الجزائر: مطبعة مزوار، 2006.

60 . حسان الجيلاني: **التغير الثقافي في المجتمع الصحراوي**، (وادي سوفا نموذجا)، مجلة البحوث والدراسات الصادرة عن المركز الجامعي بالوادي، العدد التاسع، السنة السابعة، محرم 1431هـ، يناير 2010.

61 . عثمان زقب: **علاقات وادي سوف بتونس وليبيا**، محاضرات الندوة الفكرية الخامسة،دراسات تاريخية واقتصادية وثقافية متنوعة، من إصدارات الجمعية الثقافية للمركز الثقافي محمد يجور بقمار، الوادي، الجزائر: مطبعة مزوار، 2008.

62 . عماد صولة: **هوية الطعام وطعام الهوية**، مجلّة علوم الانسان والمجتمع، العدد 2، دورية دولية محكمة تصدرها كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة بسكرة، الجزائر: جوان 2012.

63 . سعد الصويان: **البداوة و البدائية**، مجلة إضافات، العدد الخامس، شتاء 2009.

64 . محيي الدين خريف: **النخلة في الجنوب التونسي**، مجلة الثقافة الشعبية، العدد9، البحرين: أرشيف الثقافة الشعبية للدراسات والبحوث والنشر، سنة 2010.

65 . مريم بشيش: الطعام التقليدي والعولمة، مجلة الثقافة الشعبية، العدد 9، أرشيف الثقافة الشعبية والدراسات والبحوث والنشر، المنامة، البحرين: 2010.

5 . مواقع الأنترنيت

www.mbahrain.net/vd/showthred.php?t 228182. 15/11/2011.14h

http. Feedo.not/Environment/Ecology/Definition of Environment.htm.

08/12/2011. 12:21h

WWW.SSA.NET 15/03/2012 14:22

Htt://naseh.net/vb/showth eod.php/§t=3199.23 03 2012 15:33.

25 07 2014 23:24**www.ALTIBBI.COM**

الملاحـــــــــق

استمارة البحث

جامعة محمد خيضر ببسكرة

كلية العلوم الانسانية والاجتماعية

قسم العلوم الاجتماعية

استمارة بحث بعنوان :

تأثيرات أنماط البيئة في تغيير العادات الاجتماعية الغذائيـــــــــــــة

اعداد الطالب: **اشراف الأستاذ**

بن عمارة محمد **الدكتور حسان الجيلاني**

ملاحظة

من فضلك تجيبنا على الاسئلة المطروحة في هذه الاستمارة بكل اهتمام، وبكل صدق بقصد إتمام بحث علمي، مع العلم أنّ كل المعلومات لا تستعمل سوى في الغرض العلمي.

1. مقر السكن .....

2. نوع الأسرة:

كبيـــــرة

متوسطة

صغيـرة

3. كم عدد أفراد الأسرة؟

الذكور .... الإناث .... الذكور الكبار .... الإناث الكبار .... الشيوخ ....

4. كم من فرد يعمل من أسرتكم؟ الرجال .... النساء ....

5، ما هي مهنة الأب الحالية؟ .....

6. ما هي مهنة الأب في السابق؟ .....

7. هل أنتم متعودون على تناول الحليب في الصباح؟

نتناول الحليب دائما

نتناوله ليس دائما

لا نتناوله إلا نادرا

8، إذا كنتم تتناولون الحليب، ماهي نوعية الحليب المتناول في العادة؟ .....

9. ما هي أنواع المأكولات التي تعودتم على تناولها في وجبة الغذاء؟ .....

.....

10. ما هي نوعية المأكولات التي اعتدتوها في وجبة الغذاء الشتوي؟ .....

.....

11. ما هو الوقت المعتاد عندكم في تناول وجبة العشاء؟ .....

12. ما هي نوعية المواد الغذائية المكونة لوجبة العشاء حسب ما تعودنم عليه؟ .....

.....

13. كانت توجد عادة تناول التمر مع الحليب في الضحى، هل لازلتم تتناولونها الآن؟ .....

.....

14. عرفت في الماضي عادة تناول الشّاي في المساء، هل بقيتم على هذه العادة؟ .....

.....

15. ما هي الفترات التي تتناولون فيها الفاكهة؟

نتناولها في جميع الفصول

تعتبر ضرورية في الصيف

لا تعتبر ضرورية في كل الأحوال

تعودنا عليها في معظم الأحيان

16. ماهي أنواع أجهزة وسائل الإعلام التي كنتم تملكونها في البيت قبل ظهور الكهرباء؟

المذياع

التلفاز والمذياع

لا شيء

لا توجد إجابة

17. حسب رأيك ماهي الأسباب التي أدت بكم لتغيير العادات الاجتماعية الغذائية ؟ .....

.....

.....

.....

18. هل الوجبات الغذائية المتناولة أكثرها عصرية أم تقليدية؟ .....

دليل المقابلات

رقم المخبر	الصفة	موضوع الإفادة	تاريخ المقابلة	المكان
1	شيخ في سن 77 سنة	إختلاف عادة المجتمع في تناول نوعية اللحم بين الماضي والحاضر	03 01 2012	بيت المخبر
2	شيخ في سن 89 سنة	مكانة التمر	03 01 2012	بيت المخبر
3	شيخ في سن 76 سنة	العمل والغذاء	15 02 2012	بيت المخبر
4	شيخ في سن 88 سنة	تناول التمر وتصبيره	13 03 2012	غابة المخبر
5	شيخ في سن 75 سنة مهنته السابقة التجارة	دور النخيل في الاقتصاد	16 03 2012	متجر ابن المخبر
6	شيخ في سن 79 سنة	تناول الخضر	17 03 2012 12 04 2012	بيت الباحث
7	عجوز في سن 78 سنة	أنواع الخضر التي كانت تزرع	22 04 2012	بيت المخبرة
8	شيخ في عمر 81 سنة	أنواع الأشجار المثمرة في القديم	04 05 2012	غابة المخبر
9	عجوز في سن 82 سنة	طريقة الطبخ وأنواع الخبز المتناولة وأطعمة الأفراح والمناسبات قديما	12 06 2012	بيت المخبرة
10	عجوز في عمر 76 سنة	شرب الحليب في الماضي	07 07 2013	بيت المخبرة

11	شيخ في سن 79 سنة	أنواع اللحوم المتناولة بحسب الأفضلية في الماضي	09 10 2013	أمام بيت المخبر
12	شيخ في سن 70 عام	أنواع الحيوانات المستأنسة في الماضي	11 10 2013	غبة المخبر
13	شيخ في عمر 77 سنة	علاقة الحيوانات البرية بالحياة الاجتماعية	12 11 2013	أمام بيت المخبر
14	عجوز في عمر سنة 76	وجبة فطور الصباح	12 11 2013	بيت المخبرة
15	شيخ في عمر 76 سنة	عادة شرب الشاي	12 11 2013	بيت المخبر
16	عجوز في عمر 77 سنة	وجبة الغذاء وتناول الفواكه في الماضي وآداب المائدة	29 11 2013	بيت المخبرة
17	متقاعد عمره 69 سنة	مكانة الكسكسي ومأكولات الشركات	01 12 2013	أمام بيت المخبر
18	إمرأة في سن 56 سنة	تصبير المواد الغذائية	03 12 2013	بيت الباحث
19	شيخ في عمر 88 سنة	تأسيس وادي العلندة وتطور تعميرها	04 12 2013	بيت المخبر
20	إمرأة متزوجة عمرها 33 سنة	أنواع الكيفيات في وجبة الغذاء حاليا	25 12 2013	مقر العمل
مقابلات مختلفة				
21	سوداني الجنسية	جلسة عامة	07 04 2014	جامعة بشار

22	مختص في الكيمياء فرع بيئة	الخصائص الكيميائية للقار	12 06 2013	بيت الباحث
22	عراقي عمره 77 سنة	جلسة عامة	09 05 2014	بيته ببشار
23	بن علي محمد الصالح (باحث في الأمثال والحكم الشعبية)	الأمثال الشعبية	05 . 08 . 2012	بيت الباحث
24	طبيب	الأمراض الناجمة عن فضلات الحيوانات	25 . 07 . 2014	بيت الطبيب

قائمة الجداول

الرقم	العنوان
1	نسبة توزيع النباتات في الأمثال والحكم
2	توزيع الحيوانات الأليفة في الأمثال والحكم الشعبية
3	أنواع الماشية وتكراراتها في الأمثال والحكم
4	وحدة الموضوع في صنف الحيوانات البرية للأمثال والحكم الشعبية
5	وحدة الموضوع للطيور في الأمثال والحكم
6	عادات تناول الحليب في الصباح
7	نوعية الحليب المتناول
8	أنواع المأكولات في وجبة الغداء
9	العادات الاجتماعية في وجبة الغداء الشتوي
10	وقت تناول وجبة العشاء
11	نوعية المواد المكونة لوجبة العشاء
12	عادة تناول التمر مع الحليب في الضحى
13	تناول الشاي في الفترة المسائية
14	تناول الفاكهة في مختلف الفصول
15	إمتلاك العائلات لأجهزة وسائل الاعلام قبل ظهور الكهرباء

آفاق البحث

بعد إتمام هذا البحث تصورت عدد المواضيع المناسبة للدراسة في العلوم الاجتماعية، منها ما هو يخص علم الاجتماع، ومنها ما يتعلّق بالأنثروبولوجا، وأخرى تتعلق بتخصصات أخرى.

1. التغير في عادات الغذاء والصحة.

2. رمزية الأكلات الشعبية.

3. المطبخ والمجتمع.

4. المهنة وعادات الطعام.

5. التغير الاجتماعي وتناغم الأجيال.

6. علاقة الاتصال بالتحضر.

7. السياحة البيئية في الصحراء الجزائرية.

8. الرمال وسكان وادي سوف.

9. ممارسات تلويث البيئة الصحراوية.

ملخص البحث

تمحورن إشكالية البحث في علاقة التأثير الموجودة بين عناصر البيئة الطبيعية الصحراوية وتغيير العادات الاجتماعية الغذائية، وتمثل التساؤل في: كيف تعمل أنماط البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية في تغيير العادات الاجتماعية الغذائية؟ وكان ميدان البحث بمنطقة وادي العلندة بصحراء وادي سوف، وهدف البحث تمثل في التعرف على مظاهر التغيير الذي حدث لهذه العادات جرّاء التغيرات والتغييرات التي طرأت على عناصر البيئة سواء الطبيعية أو الاجتماعية، هذا من خلال العمليات المرتبطة بهذا التغيير والتغير على حد السواء.

وانطلقنا من فرضية مفادها: إن العادات الاجتماعية الغذائية بوادي سوف ظلت على علاقة وطيدة بالبيئة الطبيعية الداخلية وبمرور الزمن تغيّرت تبعا لتغيرات بعض عناصر البيئة الداخلية والخارجية.

وقد استخدمنا المنهج الوصفي بالإضافة إلى المنهج الأنثروبولوجي، وكذلك منهج تحليل المضمون، وكانت انطلاقة البحث تتمثل في وصف بيئة سوف التي تميّزت بطابع صحراوي، تكسوها الرمال الناعمة، وتحوي بباطنها خزانا من المياه الجوفية أغلبها عذبة، كما تنبت فيها مجموعة من النباتات منها البري ومنها المزروع من طرف الانسان، وأهم ما يميز المنطقة هو نبات النخلة التي عملت على استقرار السكان في مناطق عمرانية بعدما كانوا رحل، وتعيش في هذه الصحراء جملة معتبرة من الحيوانات البرية والأليفة، ولعل الجمل هو الحيوان المميز للمنطقة أكثر من غيره، وتعلّق به المجتمع ودخل في طبيعة حياة السكان في أغلب مجالاتها.

ولعل جملة النباتات والحيوانات التي تعيش في هذه الصحراء كان لها تأثير في طبيعة العادات الاجتماعية الغذائية، بحيث كان في السابق قبل ما طرأ من تحضر وعصرنة، وخصوصا أثناء تواجد الاستعمار الفرنسي كان الغذاء يرتكز على ما تجود به البيئة المحلية في أغلبه، عدا بعض المواد التي تجلب من مناطق مجاورة عن طريق عملية التبادل، فكانت المواد الغذائية تتمثل في التمر وبعض الخضروات المحلية مثل اليقطين والسلق والبصل والثوم والطماطم وغيرها، بالإضافة إلى القمح الذي يجلب من الشمال الجزائري، وكان لطبيعة التضاريس والمناخ دورا هاما في تشكيل نوعية الوجبة الغذائية وكيفية تحضيرها، كما ابتكر المجتمع عدة طرق لتصبير المواد الغذائية، كـ "الخابية"

لتصبير التمر، و "البطانه" أيضا، وصبروا اللحم بطريقة التجفيف " القديد"، إلى غير ذلك من الطرق المحلية التي تعتمد في مجملها على مواد محلية بحتة.

أما عن الوجبات اليومية فهي تختلف من فصل لآخر وفي نفس الوقت متشابهة عند أغلب الطبقات الاجتماعية، فأشهر أكلة تمثلت في الكسكسي بمختلف كيفيات تحضيره، ويعتبر تناول التمر مع الحليب من الوجبات المفضلة أيضا، كما تمثلت الوجبات في "البركوكش" و"المرسة" و"المطابيق" و"خبزة الملّة"، وهناك أكلات أخرى تعود عليها مجتمع البحث. وكانت الأكلات الصيفية تميل إلى النوع البارد، أما في البرد تميل إلى الساخنة والثقيلة في الوقت نفسه.

وبمرور الزمن، وبعد الاستقلال في سنة 1962 بدأت مظاهر التغير والتغيير بوادي سوف جراء عملية التنمية الاجتماعية التي قامت بها السلطات الجزائرية التي عممت التعليم عن طريق إنشاء المدارس في كامل التراب الجزائري، ومدّت الطرقات والمسالك لتسهيل المواصلات، كما عملت السلطات على مد أعمدة الكهرباء، وبنت الجامعات، وقرّبت المؤسسات الإدارية والصحية لجميع السكان، فكان كل هذا وغيره له دور في تغيير جملة العادات الاجتماعية الغذائية التي هي محل بحثنا، هذا من خلال عملية التثقيف والاحتكاك مع البيئات الخارجية، سواء داخل الجزائر أو خارجها، وتأتى هذا خصوصا لدى مجتمع البحث الذي وقع فيه تغيير في العادات الاجتماعية الغذائية بواسطة الالتحاق بالمدارس الجوارية والبعيدة عن المنطقة، وحتى خارج الوطن مثل الهجرات العلمية لتونس وسوريا ومصر وكذا المغرب، كما كان للطرق دور كبير في عملية التواصل مع المناطق المجاورة، وعملت على تسهيل عملية تبادل السلع والخدمات، كما فعلت التجارة عملية الاحتكاك بالثقافات الأخرى لا سيما طبيعة المواد الغذائية، وكيفية تناولها، ومن المعروف عن أهل المنطقة أنهم يمارسون النشاط التجاري سواء داخل الوطن أو خارجه، كما عمل العديد منهم في الشركات البترولية والمنجمية، وعمل العديد منهم في الدول الأروبية، كل هذا عمل على تغيير العادات الغذائية، بالإضافة إلى جملة التغييرات التي طرأت على على النشاط الزراعي بالمنطقة، حيث أكتشفت زراعة البطاطا والزيتون ومزروعات أخرى، الذي عمل هذا على تغيير العادات الاجتماعية الغذائية أيضا، وكان للإعلام وأجهزته دورا كبيرا أيضا في عملية نقل الثقافات الغذائية الأخرى للمنطقة.

وفي الأخير نستطيع القول بأنّ العادات الاجتماعية الغذائية بوادي سوف كانت في السابق على علاقة وطيدة بالبيئة المحلية، وبمرور الوقت وانتشار التنمية الاجتماعية والاقتصادية تغيرت هذه العادات بسبب جملة التغيرات التي حدثت في البيئة الداخلية كما تعتمدها النظرية التطورية في عملية التغيير الثقافي، وبسبب الانتشار من البيئات الخارجية كما تفسر ذلك نظرية الانتشار في عملية التغيير الثقافي.

Résumé

Cette problématique consiste à étudier la relation d'effet entre différents éléments de l'environnement naturelle saharienne et le changement des traditions sociales alimentaire , la question est : Comment fonctionne les types d'environnement naturelle et l'environnement sociale , dans le changement des traditions sociales alimentaire et s'était notre domaine de recherche , le Sahara d'Eloued (Oued Souf) dont le but de donner une définition des formes de changement qui s'est effectuées sur les traditions traduit dans les éléments de l'environnent soit naturelle ou sociale traduit par les opérations qui ont une relation avec ce changement .

on s'est lancé d'une hypothèse qui est la suivante : Les traditions sociales alimentaire à Oued Souf est resté une relation solide avec l'environnement naturelle interne et à travers le temps s'est changées suivant les changements de quelques éléments de l'environnement interne et externe. On a utilisé la méthode descriptive et aussi la méthode anthropologique avec la méthode analyse du contenu.

c'était notre début de recherche qui consiste à la description de l'environnement de Souf qui à un aspect Sahraoui couverte des dunes brillante comme elle se compose d'un important sous sole riche en nappes d'eaux dont la majorité potable et on justifiant aussi un ensemble important des plantes sauvages cultivé par l'homme , c'est ce qui est important dans cette zone la plante du palmier qui à procédé à la stabilité de la population dans les zones d'agglomérations après êtres nomades , et aussi un ensemble important d'animaux dont plusieurs sont sauvages et domestiques , peut être le dromadaire est le seule animale qui caractérise cette zone plus qu'un autre par une grande affection sociale , et comme le palmier et le dromadaire ont une grande contribution à la vie sociale de Oued Souf , qui ont percés dans la nature de la vie de cette population dans tout ses aspects .

Ce qui consiste un ensemble de plantes et d'animaux qui vient dans le Sahara et qui a un effet dans les traditions sociales alimentaires , puisque c'était dans le passé avant la parution du civilisation surtout pendant la période coloniale l'aliment se fondait sur ce que se trouvait dans la majorité à l'environnement locale excepté quelques aliments importés des zones proches à travers les

opérations d'échanges , ces aliments se composaient des dattes et quelques légumes de produit locale comme Potiron , le Coction , l'Ognon , l'Ail , Tomate , ect …

ajoutant le Blé importer du nord Algérien, ainsi la surface naturelle et le climat ont un role important dans la composition de la qualité alimentaire et la méthode de sa préparation. aussi notre société de recherche a inventée plusieurs méthodes de conservation d'aliment alimentaire , al Khabia pour la conservation des dattes et al Battana pour les viandes avec la méthode de séchage , c'est de la viande sèche et aussi plusieurs méthodes locale utile dans son ensemble aux aliments purement locale .

Mais pour les plats alimentaires du jour se différencie d'un temps à l'autre et semblable dans tout les plats sociale , le mieux préféré c'est le Couscousi avec ses différents méthodes de préparation et le plat des dattes avec du lait , et aussi le Berkoukache , elMerça , elMtabigue ou elMhadjebe et le pain de Malla , et d'autres différents repas habitués par la société de recherche. A l'époque les repas de l'Eté dévié au froid mais les repas l'Hiver dévié au chaud et au lourd .

- Et par le temps et après l'indépendance de l'Algérie en 1962 commencé les gestes de transformation à Oued Souf dû aux opérations de développements pris par les autorités Algérienne comme l'enseignement et la création des écoles à travers tout le territoire Algérien , en déterminant les routes et les voies facilitant l'opération de communication et elle a travaillé à la généralisation de l'électricité et la création des Universités et l'approchement des établissements administratives et sanitaires à l'ensemble de la population , ceci et d'autre ont le rôle sur la transformation des traditions sociales , parmi la quelle c'est l'objet de notre recherche , c'est l'opération de la cultuvation et l'approchement avec les environnements externes soit à l'intérieur de l'Algérie ou à l'extérieur et cela viens spécialement chez la société de recherche , cela à provoquer le changement des traditions sociales et alimentaires par le rapprochement aux écoles approximatives ou lointaine de la zone et même à l'étranger comme l'émigration scientifique du Tunisie , Syrie , Egypt , Maroc , ainsi que les voies ont joué un rôle important sur l opération de la continuité avec les zones de proximités et les rechanges du produits et des services et comme le commerce a joué le rapprochement avec les autre cultures surtout l'origine de la nature des alimentations et la façon de nourriture , il est reconnu chez les gent de cette zone pratiquent le commerce d'une façon large soit a l'intérieure ou à l' extérieure du payé et aussi un nombre important appartenant à la couche des

travailleurs dans les établissements pétrolière et des mines .et dans les payes européennes . Ces raisons ont aidé de changer les habitudes alimentaire et l activité agricole de la zone. puisilque est découvrit énormément de nouvelles agricultures récente comme la pomme de terre les olives, cette découverte a aidé de changer les habitude alimentaires sociales .on n oubliant le du éléments du Besse sur l opération de transportation d autres cultures alimentaires de la zone

enfin .il est important de dire que les habitudes sociales alimentaires ouadi souf étaient avec une dure relation avec l environnement local et a travers le temps c'est l'opération du développent sociales et économique qui ont changer les tradition a cause du changement traduite dans cette environnent intérieure par la théorie de développement et travers la diffusion de l'environnent extérieure